الجامعـــة الأردنيـــة
كليـــة الدراســات العليـا

١ -
٥ ١٢٧

الفقـــر فـي الشعـــر الجاهلـي

إعداد الطالب
جمال علي محمود حسن

إشراف
الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية .

١٩٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٣/٨/٢٥ م وأجيزت

أعضاء اللجنة	التوقيع
١- الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن رئيسا	
٢- الأستاذ الدكتور هاشم ياغي عضوا	
٣- الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي عضوا	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــداء ،،

إلى والدي العزيزين اللذين كللاني بالرعاية ،، ،،

إلى كل من قدم لي عونا مع خالص التقدير ،، ،،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضـــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
قـرار لجنــة المناقشــة	ب
الإهـــــــداء	جـ
فهــرس المحتويـات	د
ملخـص باللغـة العربيـة	ز
مقدمـــــة	ح
الفصل الأول : مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي	١-٢١
-١- الفقـــــر فـي اللغـــــة	٢
-٢- مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي	٦
الفصل الثاني : أسباب الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	٢٢-٦٣
-١- الأسباب البيئية والاقتصادية	٢٣
-٢- الأسبـــاب الاجتماعيـــــة	٥٢
-٣- الأسبـــاب النفسيـــــــة	٦٢
الفصل الثالث : مظاهر الفقر في الشعر الجاهلي	٦٤-١١٠
-١- الصعلكـــــة	٦٥
-٢- الغزو والحروب والغارات	٧٨
-٣- الكـــــــرم	٩٤
الفصل الرابع : صورة الفقراء في الشعر الجاهلي	١١١-١٦٠
-١- طوائف شتى من الفقراء :	
١- الضريك	١١٣
٢- القرضوب	١١٥
٣- المعصب	١١٥
٤- المجرف	١١٦
٥- المخذول	١١٧
٦- المدفـع	١١٨
٧- الضعفـاء	١١٨
٨- كبير الســن	١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
٩- الضرير	١٢١
١٠- الغارم	١٢٢
١١- المولى الفقير	١٢٣
١٢- الجار الفقير	١٢٤
١٣- الضيف والمستتبـح وابـن السبيـل	١٢٦
١٤- الجـادي	١٢٩
-٢- الفقراء من أصحاب الحرف :	١٣١
١- الصائـد	١٣١
٢- المشتار	١٣٧
٣- الحـادي	١٤١
٤- الراعي	١٤٣
٥- العضـروط	١٤٥
٦- الحـداد	١٤٦
-٣- الرقيق من الإماء والعبيد	١٤٦
-٤- الأرامل والأيتام	١٥٤
أ- الأرامـــل	١٥٤
ب- الأيتام	١٥٧
الفصل الخامس : آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	١٦١-١٩٥
-١- الآثـــار الجسديـــة	١٦٢
-٢- الآثـــار الاجتماعيـة	١٧٨
-٣- الآثـــار النفسيـــة	١٩٠
الفصل السادس : مدافع الفقر في الشعر الجاهلي	١٩٦-٢١٣
-١- الرحلـة والطواف	١٩٧
-٢- الحروب والغارات	١٩٩
-٣- الصعلكـــة	٢٠٠
-٤- احتـراف المهـن	٢٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
٩- الضرير	١٢١
١٠- الغارم	١٢٢
١١- المولى الفقير	١٢٣
١٢- الجار الفقير	١٢٤
١٣- الضيف والمستتبـح وابـن السبيـل	١٢٦
١٤- الجـادي	١٢٩
-٢- الفقراء من أصحاب الحرف :	١٣١
١- الصائـد	١٣١
٢- المشتار	١٣٧
٣- الحـادي	١٤١
٤- الراعي	١٤٣
٥- العضـروط	١٤٥
٦- الحـداد	١٤٦
-٣- الرقيق من الإماء والعبيد	١٤٦
-٤- الأرامل والأيتام	١٥٤
أ- الأرامـــل	١٥٤
ب- الأيتام	١٥٧
الفصل الخامس : آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	١٦١-١٩٥
-١- الآثـــار الجسديـــة	١٦٢
-٢- الآثـــار الاجتماعيـة	١٧٨
-٣- الآثـــار النفسيـــة	١٩٠
الفصل السادس : مدافع الفقر في الشعر الجاهلي	١٩٦-٢١٣
-١- الرحلـة والطواف	١٩٧
-٢- الحروب والغارات	١٩٩
-٣- الصعلكـــة	٢٠٠
-٤- احتـراف المهـن	٢٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
-٥- الكـــــــــرم	٢٠٠
-٦- الميســـــــــر	٢٠١
-٧- الـــــــــوأد	٢٠٧
-٨- الصبـر وقـوة الإرادة	٢١٢
الفصل السابع : أخلاقيات ومواساة	٢١٤-٢٢٣
- أ - أخلاقيـات فقـراء	٢١٥
-ب- مواســـاة وعـــزاء	٢١٩
خاتمـــــــــة	٢٢٤
المصـــادر والمراجـــع	٢٢٦
الملخـــص بالإنجليزيـــة	٢٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى بحث ظاهرة الفقر وإبراز صورة الفقراء ومعاناتهم في الشعر الجاهلي . وتميط اللثام عن أسرار هؤلاء الفقراء من الناس ، الذين يشكلون السواد الأعظم من المجتمع الجاهلي ، حيث كانوا يعيشون في شقاء وحرمان شديدين ، فتعسوا بفقرهم وقلة مواردهم وعدم توافر قدر كفايتهم من وسائل المعيشة .

فتناولت هذه الدراسة مفهوم الفقر ومعانيه ومعاييره الاجتماعية في العصر الجاهلي . وبحثت في الأسباب البيئية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية للفقر . وتناولت مظاهر الفقر المتمثلة في الصعلكة والحروب والكرم . وأبرزت صورة الفقراء وطوائفهم وأساليب حياتهم ، وأخلاقياتهم . وبحثت – أيضا – في آثار الفقر الجسدية والاجتماعية والنفسية . وبحثت في وسائل دفع الفقر والتخفيف من حدته وشروره .

فجاءت هذه الدراسة معتمدة شعر الشعراء الجاهليين في استجلاء ظاهرة الفقر في العصر الجاهلي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ،،،

فلقد عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة في أغوار التاريخ . وما زالت ظاهرة الفقر مشكلة اجتماعية كبيرة ، يعاني منها كثير من الشعوب والمجتمعات والأفراد ؛ ويتجرع أصحاب الفقر هموما مادية ومعيشية وأخرى اجتماعية ونفسية ، تقض مضاجعهم وتنغص عليهم حياتهم . ولعل وجود الطبقية المقيتة المتمثلة في وجود الغني المترف بينما جاره فقير محروم من متاع الدنيا غير منعم ولا مترف ، تخلق نتائج وآثارا اجتماعية ونفسية خطيرة تسلك بفئة كبيرة من المجتمع إلى انعدام الثقة بالنفس والتحلل من المسئوليات وفقدان الذات ، مما يسبب في – النهاية – آثارا سلبية على بناء المجتمع وتماسكه . خصوصا إذا ما تعلق الموضوع بالمجتمعات الفقيرة في ثرواتها الطبيعية ومواردها الاقتصادية .

والحقيقة أن الفقر يختلف نسبيا من مجتمع لآخر ومن بلد إلى بلد حسب توافر الموارد الاقتصادية واستغلالها وتوزيع الثروات بين الأفراد .

والعرب في العصر الجاهلي عرفوا الفقر والفقراء مثل باقي الشعوب ؛ وكان الفقر يحتل مساحة كبيرة من قاطني الجزيرة العربية التي كانت فقيرة في مواردها وثرواتها .

فكان الفقراء يؤلفون السواد الأعظم من المجتمع الجاهلي . والشعراء الجاهليون ، وهم لسان حال بيئتهم ، يعكسون في شعرهم خصب البلاد وجدبها وفقر الناس وغناهم .

فجاءت هذه الدراسة لبحث ظاهرة الفقر في الشعر الجاهلي ، لتتبين مفهوم الفقر وصورة الفقراء كما بدت في شعر الشعراء الجاهليين .

ولم يسبق أن بحثت الظاهرة كما بدت في الشعر الجاهلي ولم تنفرد بها دراسة مستقلة أو بحث متخصص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أهم المصادر التي بنيت عليها هذه الدراسة : معاجم اللغة ، فأفادت منها في تبين مفهوم الفقر ومصطلحاته ، وأفادت من دواوين الشعر الجاهلي ، والمجموعات الشعرية كالمفضليات للمفضل الضبي والأصمعيات للأصمعي ، وكتب الحماسة كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري وحماسة البصري والحماسة الشجرية ؛ وأفادت من الكتب التاريخية والأدبية التي تناولت العصر الجاهلي وأحداثه .

ومن المراجع الحديثة التي أفادت منها هذه الدراسة : كتابا الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن : "الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث" و "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي" . وأفادت من كتاب محمد الحوفي "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، ومن كتاب يوسف خليف " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" ، وغيرها من المراجع والدراسات الأدبية والتاريخية التي تناولت العصر الجاهلي .

وجاءت هذه الدراسة في سبعة فصول :

الفصل الأول : يتناول مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي ويتبين مصطلحات الفقر في اللغة وأشعار الجاهليين .

الفصل الثاني : يبحث في أسباب الفقر البيئية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل الثالث : يدرس المظاهر الكبرى للفقر في العصر الجاهلي من الصعلكة والغارات والحروب والكرم كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل الرابع : يتناول صورة الفقراء وطوائفهم في الشعر الجاهلي .

الفصل الخامس : يدرس الآثار الجسدية والاجتماعية والنفسية للفقر كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل السادس : يبحث في وسائل الجاهليين في دفع الفقر والتخفيف من حدته كما أظهرها الشعر الجاهلي . فكانت من هذه الوسائل : الرحلة والطواف والتنقل والإرتحال ، والغزو والغارات ، واحتراف المهن ، والكرم والميسر ، والوأد ، والصبر وقوة الإرادة .

الفصل السابع : يوجز بعض أخلاقيات الفقراء ، مثل غنى النفس والكرم والعفة والأمانة والوفاء والعزة . ثم يقف على بعض مظاهر المواساة والعزاء للفقراء ؛ فالموت نهاية كل حي غني أو فقير .

وأتبعت هذه الفصول بخاتمة توجز أهم نتائج الدراسة . ثم أوردت قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها في دراستي هذه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، فأمدني بملاحظاته وتوجيهاته التي أضاءت لي الطريق الصعب .

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الإمتنان إلى الأستاذ الدكتور هاشم ياغي والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة . جزاكم الله عني خير الجزاء وأتمه .

وما توفيقي إلا بالله

١٩٩٣/٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــــل الأول

مفهوم الفقر في اللغة و الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي

-١-

الفقر في اللغة

الفَقْـرُ والفُقْرُ ضد الغنى (١) . وقال ابن سيـده : وقـدره أن يكون لـه مـايكفي عيالـه (٢) . أو الفقير من يجد القوت (٣) . ورجل فقير من المـال ، وقـد فَقُرَ ، فهو فقير والجمع فُقَراء ، والأنثى فقيـرة من نسوة فَقَائر وفُقَراء (٤) . وَفَقِرَ يَفْقَرُ إذا قل ماله (٥) . وقالوا افتقر كما قـالوا اشتـد ، ولم يقولوا فَقُرَ كما لم يقولوا شـدد ، ولا يستعمل بغيـر زيـادة . وأفقره اللـه من الفَقْر فافتقر (٦) .

وقال ابن السكيت : الفقير الذي له بُلْغَةٌ من العيش ، قال الرّاعي يمدح عبد الملك بن مـروان ويشكو إليه سعاته :

أَمَّا الفَقِير الّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وَفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَك لَه سَبَدُ (٧)

فالفقير له حلوبة .

وقيل : الفقيـر يكون له بعض ما يقيمـه (٨) ، والشـاهد علـى ذلـك بيت الراعـي السابـق . وقيـل : الفقير الذي له ما يأكل (٩) .

---

(١) جمهـرة اللغـة لابـن دريـد ، ٣٩٨/٢ . والمحكـم ، ٢٣١/٦ . ولسـان العـرب ، ٦٠/٥ . والقاموس المحيط ، ١١١/٢ . وتاج العروس ، ٣٣٤/١٣ ، مادة "فقر" .

(٢) المحكم ، ٢٣١/٦ .

(٣) تاج العروس ، ٣٣٤/١٣ .

(٤) لسان العرب ، ٦٠/٥ . وينظر الصحاح ، ٧٨٣/٢ .

(٥) المصباح المنير ، ٦٥٥/٢ مادة "فقر" .

(٦) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٦/١٣ .

(٧) السابقان . وينظر تهذيب الألفاظ ، ص١٥ .

(٨) تهذيب الألفاظ لابن السكيت ، ص١٥ . ولسان العرب ، ٦٠/٥ .

(٩) لسان العرب ، ٦٠/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٤/١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفقير لـه بعض ما يكفيـه أولـه بُلْغَةٌ من العيش . والبُلْغَـةُ مـا يُتَبلّـغُ بـه مـن العيـش ، زاد الأزهري : ولا فضل فيه . والبلاغ : الكفاية . وتقـول : لـه فـي هذا بـلاغٌ وبُلغـة وَتَبَلُّـغٌ أي كفاية (١) . و تبلّغ بالقليل : اكتفى به ، وما هي إلا بُلْغة أتَبَلّغُ بها (٢) .

ويمكن أن نقـول أن البلغـة من العيش هي عيـش الكفـاف . وكمـا جـاء فـي بعض كتب الفقه والتفسير أن الفقير عنده مايكفيه للحال (٣) ، والفقير يملك قوت يومـه (٤) ، أو الذي يجد القوت (٥) ، والفقير هو من يملك أقل من النصاب (٦) ، وإن كان صحيحاً ذا كسب ولديه حاجتـه الأصلية من مسكن وأثاث وثياب وما إلى ذلك . وقيل العبرة في الحاجة ولو ملـك نصاباً أو نصباً (٧) .

فالفقيـر من له بلغـة من العيش . ومن له دون البلغـة فقير أيضـاً . وبعبـارة أخرى من يملك دون الكفايـة فقيـر (٨) . فالفقير "مـن لايملك إلا أقل القوت" (٩) . والفقير الـذي "لاشـيء لـه" (١٠) ، أو "لاشيء له البته" (١١) .

---

(١) لسان العرب ، ٤٢١/٨ "بلغ" .

(٢) أساس البلاغة ، ٦٢/١ ، مادة "بلغ" .

(٣) تفسير النسفي ، ٦٥٩/١ .

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ، ٩٠٢/٢ .

(٥) شرح السنة ، للبغوي، ٨٨/٦ .

(٦) والنصـاب : ما نصبـه الشـارع علامـة على وجـوب الزكـاة . ويشترط لوجـوب الزكـاة أن يبلـغ المـال المملـوك نصاباً . فعلى سبيـل المثـال : أول نصـاب الإبـل خمس . وأول نصاب البقر ثلاثون . وأول نصاب الغنم أربعون . وأول نصاب الذهب أربع وثمانون غراماً ..... .

(٧) الفقه على المذاهب الخمسة ، محمد جواد مغنية ، ص١٧٧ .

(٨) ينظر مثلاً : المغني ، لابن قدامة ، ٤٢١/٦ . والفقه على المذاهب الخمسة ، ص١٧٨ .

(٩) المعجم الوجيز (معجم حديث) مادة "فقر" .

(١٠) النهايـة فـي غريـب الحديـث ، ٤٦٢/٣ . ولسـان العـرب ، ٦٠/٥ . وتـاج العـروس ، ٣٣٦/١٣ . وورد ذلك في كتب الفقه ، ينظر مثلاً : شرح فتح القدير ، لابن الهمام الحنفي ، ٢٦١/٢ .

(١١) الافصاح في فقه اللغة (معجم حديث) ، ص٦٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفقير هو الفقير وإن اختلفت المسميات والأوصاف والعبرة في الحاجة (١) .

والفقير عند العرب المحتاج . قال الله تعالى : " أنتم الفقراء إلى الله " (٢) ، أي المحتاجون إليه (٣) .

وجاء في تعريف الفقر : الحاجة ، وفعله الافتقار ، والنعت فقير . وفي التنزيل العزيز : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (٤) . وقيل : وكأنّ الفقير سمي فقيراً لزمانة تصيبه مع حاجة شديدة تمنعه الزمانة من التقلب في الكسب على نفسه ، فهذا هو الفقير (٥) .

والمفاقر : وجوه الفقر لا واحد لها . وشكا إليه فُقُورَه أي حاجته . وأخبر فقوره أي أحواله . وأغنى الله مفاقره أي وجوه فقره . ويقال سد الله مفاقره أي أغناه وسد وجوه فقره (٦) .

يقول الشّمّاخ :

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفاقِرَه أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ (٧)

والمَفاقر : جمع فَقْر على غير قياس كالمشابه والملامح ، ويجوز أن يكون جمع مَفْقَر مصدر

---

(١) وجاء في معنى الحاجة والمحوج والإحواج : وهي من الفقر ، وفيها بقية من نشب لا يغمره ولا يغمر عياله ، "تهذيب الألفاظ" ، لابن السكيت ، ص١٥-١٦ . وينظر في أسماء الفقر وأوصاف الفقراء : تهذيب الألفاظ ، ص١٥ وما بعدها . وجواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر ، ص٦٥-٦٦ . وفقه اللغة وأسرار العربية ، لأبي منصور الثعالبي ، ص٤٢-٤٣ .

(٢) سورة فاطر : ١٥ .

(٣) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٧٨٣/١٣ ، مادة "فقر" .

(٤) سورة التوبة ، ٦٠ .

(٥) قبل السابق .

(٦) ينظر في هذه المعاني "النوادر في اللغة" ، ص ٣٠٥ . والصحاح ، ٧٨٣/٢ مادة "فقر" والمحكم ٢٣١/٦ ، مادة "فقر" .

(٧) أساس البلاغة ، ص٣٤٥ . والنهاية في غريب الحديث ، ٤٦٤/٣ . ولسان العرب ، ٦١/٥ . والقاموس المحيط ، ١١١/٢ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ . والقنوع : المسألة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أفقره أو جمع مُفْقِر (١) . وقولهم فلان ما أفقره وما أغناه ، شاذ لأنه يقال في فعليهما افتقر واستغنى ، فلا يصح التعجب منه (٢) .

ومعاني الفقر والفقير في المعاجم اللغوية كثيرة ، فقد قيل : رجل مَفْقُور وَفَقِير : مكسور الفَقَار ، يضرب مثلاً لكل ضعيف لاينفذ في الأمور (٣) . والفقير معناه : المفقور الذي نزعت فِقْرَة من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفقر (٤) . ورجل فَقِر : يشتكي فَقَارَه (٥) ، ورجل متفاقر: يدعي الفقر (٦) .

وفُقُور النفس وشُقورها همُّها ، وواحد الفُقُور فَقْر، والفَقْر الهمّ والجمع فُقُور . ويقال : شكا إليه فُقُوره . ويراد أيضاً بالفُقُور الأحوال والحاجات (٧) .

والفَقْرُ عند الجرجاني : "فَقْدُ ما يحتاج إليه ، أمّا فقْد مالا حاجة إليه فلا يُسمَّى فَقْراً " (٨) .

ويرى الراغب الأصفهاني أن أوجه استعمال الفقر في القرآن الكريم أربعة (٩) : "الأول : وجود الحاجة الضرورية ، وذلك عام للإنسان ما دام في دار الدنيا ، بل عام للموجودات كلها . وعلى هذا قوله تعالى : "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله " (١٠) . والثاني : عدم المقتنيات ، وهو المذكور في قوله تعالى : "إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله" (١١) ، وقوله تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (١٢) . والثالث :

---

(١) النهاية في غريب الحديث ، ٤٦٤/٣ . ولسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ .

(٢) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٤٣/١٣ .

(٣) لسان العرب ، ٦٢/٥ .

(٤) السابق ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٨/١٣ .

(٥) لسان العرب ، ٦٢/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ .

(٦) أساس البلاغة ، ص٣٤٥ . تاج العروس ، ٣٤٤/١٣ .

(٧) ينظر النوادر في اللغة ، ص٣٠٥ . ولسان العرب ، ٦٥/٥ .

(٨) التعريفات ، ص١٤٧ .

(٩) المفردات في غريب القرآن ، ص٣٨٣ . وهي في مجمع البيان الحديث . لسميح عاطف الزين ، مادة "فقر" .

(١٠) فاطر ، ١٥ .

(١١) النور ، ٣٢ .

(١٢) التوبة ، ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقـر النفـس* ، وهـو الشـره المعنـي بقولـه عليـه السـلام : (كـاد الفقـر أن يكـون كفـراً) وهو المقابل بقوله (الغنى غنى النفس) . والمعني بقولهم : من عدم القناعة لـم يفده المـال غنـىً الرابـع : الفقر إلى اللـه** ، المشار إليـه بقوله عليـه السـلام : (اللهم أغننـي بالافتقـار إليك ، ولا تفقرني بالاستغنـاء عنك) ، وإياه عنى بقولـه تعالـى : "رب إنـي لمـا أنزلـت إلـي مـن خـير فقيـر" (١) .

وللفقر أسماء وصفات وردت في بعض كتـب اللغـة . ولا بـد مـن الإشـارة إلـى بعضها حتى يسهـل على الدارس تبينهـا عنـد حديثنـا عـن مفهوم الفقـر فـي الشـعر الجـاهلي ؛ فمن أسمـاء الفقـر : فقـر ، عُدْم ، حاجـة ، خلّة ، مسكنة ، عُسْرة ، ضِيقـة ، عيلـة ، متربـة ، خصاصة ، إملاق ، إعواز ، ضر ، بؤس ، حرمان ، مسغبة ، مخمصة ، إقتار ، إقفار ، افتقار ، اقـواء ، سَغَب ، .. . ومـن أوصاف الفقير : فقير ، مسكين ، محروم ، عديم ، صعلـوك ، ضريـك ، مُمْلـق ، مُـرِقّ ، معسِر ، مرمِـل ، مرمِـق ، مملِـق ، مسنِـت ، محتـاج ، معيل ، قانـع ، جائع ، مقتر ، مقفـر ، مجرَّف ، مجلَّف ، مجوَّع ، جَـدِب ، مجْدِب ، معوِز ، معدِم ، مُصـرِم ، .... وغيرها (٢) .

-٢-

مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي

١- الفقر : الحاجة

جاء الفقر في مواضع من الشعر الجاهلي بمعنى الحاجـة إلـى الشـيء (٣) . مـن ذلك يقول

---

(١) القصص ، ٢٤ .

(٢) ينظر في أسماء الفقر وصفات الفقراء : جواهر الألفاظ ، قدامه بن جعفر ، ص٦٦ .

(٣) وهـذا المعنى جـاء في معاجـم اللغـة . وقـال بذلك بعـض الفقهاء والمفسريـن حيـن جعلـوا العبـرة في صـرف الزكاة والصدقات للفقيـر هـي الحاجـة ، لأن الفقـر معناه الحاجـة قـال تعالى " ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله " فـاطر ١٥ أي المحـاويج إليـه . وينظـر فـي ذلك كتـاب " الفقـه علـى المذاهـب الخمسـة" ، محمـد جـواد مغنيـة ، ص١٧٧ . وينظـر "شـرح السـنة" للبغوي ، ٨٨/٦ .

* ورد هذا المعنى في بعض مواضع قليلة من الشـعر الجـاهلي . ينظـر مثـلاً : ديـوان قيـس بـن الخطيم ، ص١٥٨ ، وحماسة أبي تمام ، ٢/ ٤٤ .

** لم يعرف هذا المعنى – على حد علمي – في الشعر الجاهلي . إنما جاء في الاسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بشر بن أبي خازم الأسدي في فرسه :

وما يُدْرِيكَ ما فَقْرِي إليه إذا ما القَوْمُ كَرُّوا أَوْ أَغَاروا (١)

فمعنى " فقري إليه " : حاجتي إليه ، يريد أنه يحتاج إليه كثيراً وذلك في الحروب والغارات .

ويقول زُهيْر بن أَبي سُلمى لبني سُلَيْم عندما بلغه أنهم يريدون الإغارة على غطفان :

وإنّا وإيّاكُمْ إلى ما نَسُومُكُمْ لَمِثْلَانِ أَوْ أَنتُمْ إلى الصُّلْحِ أَفْقَرُ (٢)

وقال آخر في هجاء بني أسد :

ضَمَمْنَاكُمُ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ إليكُمُ كَمَا ضَمَّتِ السَّاقَ الكَسِيرَ الجَبائرُ (٣)

أي ضممناكم ولسنا في حاجة إليكم . ولكنها الرحمة والشفقة عليكم .

فالفقر : الحاجة ، والفقير : المحتاج إلى الشيء . وهذا جانب من مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي .

والغالب في معنى الفقر في الشعر الجاهلي هو الحاجة المادية وسوء الأحوال المعيشية . فالفقير ذو حاجة مُسْتيئس أشعث (٤) ، وله خَلّة أي حاجة كما يصرح بذلك عروة بن الورد عندما وصف فقيراً هزيلاً ذا صبية يشكو المفاقر في قوله :

إذا قُلْتَ قَدْ جَاءَ الغِنَى حالَ دُونَهُ أَبو صِبْيَةٍ يَشْكُو المَفَاقِرَ أَعْجَفُ

لَهُ خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحَقَّ دُونَها كَرِيمٌ أَصَابَتْهُ خُطُوبٌ تَجَرَّفُ (٥)

وترد لفظة "محتاج" في الشعر الجاهلي دالة على الإنسان الفقير .

٢- الفقير من لامال له يكفيه

لم يكن لدى الفقير مال يكفيه مؤونة العيش . بينما نجد الغني صاحب مال وثروات في عيشه اتساع .

والمال : ماملكْتَه من جميع الأشياء ، وقيل : المال في الأصل ما يُملك من الذهب والفضه ،

---

(١) ديوانه ، ص٧٩ . وفي المفضليات ، ص٢٤٥ : ولوا بدلا من كروا . وفي لسان العرب مادة ركب منسوب للسليك بن السلكة ، مع اختلاف في الشطر الثاني .

(٢) شرح شعره ، ص١٥٨ . نسومكم : نعرض عليكم ونريدكم عليه .

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢٠٩/٢ .

(٤) ديوان الأفوه الأودي ، ص١٧ .

(٥) ديوانه ، ص١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم أطلقا على كلّ ما يُقتني ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم ومال أهل البادية : النّعم (١) . والنّعم : واحد الأنعام وهي المال الراعية مثل الإبل والغنم والبقر (٢) .

وعلى هذا فكل مايمتلكه الإنسان أو يقتنيه فهو من المال . فمن المال عند العرب في الجاهلية – غير النعم – السلاح بأنواعه مثل الرمح والسيف والدرع والفرس (٣) ، وأدوات اشتيار العسل مثل المسائب والأخراص (٤) ، وفضلات النحل (٥) ، وغير ذلك .

فهل من ملك سيفاً ورمحاً ودرعاً صار غنياً ؟ وهل من يملك المسائب والأخراص غني لأنه ملك مالاً ؟

بالطبع لا أو ليس بالضرورة باعتبار القدرة على الكسب والكفاية المعيشية والحاجة . ولا نقول – في العرف الجاهلي للغنى – لمن يملك شاة أو شاتين – وهي من المال – أنه صاحب مال لذلك فهو غني . ولكن قد نقول لمن ملك المائة أنه صاحب مال وغني .

فالغني يملك المال ، وقد يملكه الفقير ليتحصل به على قوته أو ما يسد رمقه .

والمال عند الناس كالصوف في الكثرة للغني ، والقلة للفقير . كما يشير إلى ذلك علقمة الفحل في قوله :

والمالُ صُوفٌ قَرَارٍ يَلْعَبُونَ بِهِ ... عَلى نِقَادَتِهِ وافٍ وَمَجْلُومُ (٦)

فالناس بين بين منهم الغني ومنهم الفقير . وقد يفتقر الغني وقد يغتني الفقير .

ثم إن المال له قيمته وفوائده المحببة لدى الجاهليين . فخير المال ماكف عن أهله الذم أو وقى سوء مطعم ، كما يقول بشر بن أبي خازم :

---

(١) لسان العرب ، مادة "مول" ، ١١/٦٣٥-٦٣٦ .

(٢) السابق ، مادة "نعم" ، ١٢/٥٨٦ .

(٣) ينظر ديوان حاتم ، ص٧٥ . وأمالي القالي ، ٢/١٢٣ . والعمدة ، لابن رشيق ، ٢/٣٦ .

(٤) ينظر ديوان الهذليين ، ١/٢٠٨ .

(٥) السابق ، ١/٨٧ .

(٦) ديوانه ، ص٦٥ . وفي المفضليات ، ص٤٠١ . القرار : غنم صغار الأجساد والآذان الواحدة قرارة . ويقال إنها قصار الأرجل ، قباح الوجوه ، وهي على قبح أشكالها تعطي أجود الصوف . والنقد غنم صغار أيضا الواحدة : نقدة ، وأدخل الهاء لتأنيث الجمع ، والوافي الذي لم يُجزّ . المجلوم المجزوز بالجَلَم . والجلم : ما يجز به الشعر أو الصوف . وهذا مثل ضربه . يلعبون به : يتمتعون وينظرون لكثرته عندهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَلا إِنَّ خَيْـرَ المالِ مـا كَفَّ أَهلَـهُ عَنِ الذَّمِّ أو مالٌ وقَى سُوءَ مَطْعَمِ (١)

فالمـال يصرف في الحقـوق ، كدفع الديـون والديات ، وغيرها ، وكذلك للطعـام في وقت الشـدة .

ومـن منافـع المـال "فَأَوَّلُـه زادٌ وآخِـرُه ذُخْـرٌ" (٢) . ومـن فوائـده مانجـده في قـول حاتم الطائي :

يُفَـكُّ بِـهِ العَاني وَيُؤْكَـلُ طَيِّبـاً وما إِنْ تُعَرِّيه القِدَاحُ ولا الخَمْرُ (٣)

فمن فوائد المال أنه يفدى به الأسير . فهل من لايملك فدية الأسير فقير ؟

يمكن القول أن الفقير من لا مال له ، وهذا من جانب . وقد نستدل على هذا مـن قـول جـابر ابن الثّعلب الطائي :

كَأَنَّ الفَتَى لَمْ يَعْـرَ يَوْمَاً إِذا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُعْلُوكاً إِذ مَـا تَمَـوَّلا (٤)

والصعلوك هنا الفقير لا مال لـه (٥) . فـإذا مـا تمـول أي صـار ذا مـال خـرج عـن نطـاق الفقـر وأصبح غنياً .

أليس الفقير إذن بحاجة إلى مال يعتاش من ورائه أو طعام يقيم به أوده ؟

إن الفقير يتحصل على ذلك غالباً بالعطـاء أو بالسؤال أو بالكسب . وكثيراً مـا نجـد فـي الشـعر الجاهلي التمدح والتفاخر بتلبية حاجة الفقير وعونه ومساعدته وتقديم الأموال له . يقـول الأعشـى الكبير في مدح هوذة بن علي :

طويـلِ النِّجَـادِ رفيـعِ العِمَـا دِ يَحْمِي المُضَافَ وَيُعْطِي الفَقِيرا (٦)

٤٢٠٥٦٧

ويقول حسان بن ثابت مفتخراً بقومه :

أَعْطَـى ذَوُو الأَمْـوالِ مُعْسِرَهُمْ والضَّارِبِيـنَ بِمَوْطِـنِ الرُّعْـبِ (٧)

والفقير يهان في سبيله صالح المال كما ينوه الأعشى إلى ذلك في مدحه قيس بن معد يكـرب الكندي :

---

(١) ديوانه ، ص ١٩٤ .

(٢) ديوان حاتم ، ص٨٤ .

(٣) السابق ، ص٨٤ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٠٩/١ .

(٥) وفي تهذيب الألفاظ لابن السكيت ، ص ١٦ : الصعلوك الذي لاشيء له .

(٦) ديوانه ، ص١٤٧ .

(٧) شرح ديوانه ، ص٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا وَأَسَى وَأَصْلَحَ بينها وسَعى لَها (١)

وينوه عبد الله بن رواحة – وقد أجاب قيس بن الخطيم – إلى أهمية تلبية الحاجة للفقير في قوله :

نُحامي عَلى أَحْسَابِنَا بِتِلادِنَا لِمُفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلِ الحَقِّ رَاغِبِ (٢)

٣- الفقير لايملك السائمة

والفقير صاحب الحاجة تحبس له السائمة ليختار منها ما يشاء . يقول عِلْبَاءُ بن أَرْقَم مفتخراً :

وَكَفَيْتُ مَوْلايَ الأَحَمَّ جَرِيرَتي وَحَبَسْتُ سَائِمَتِي عَلى ذِي الخَلَّةِ (٣)

فالفقير لا يملك السَّوام " والسوام والسائمه بمعنى : وهو المال الراعي والسوم والسائمة : الإبل الراعية . والسَّوام : كل ما رَعى من المال في الفلوات إذا خلي" (٤)

يقول عروة فيمن لا يبعث سواماً :

إِذا المَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سَوَامَاً وَلَمْ يُرَحْ وَلَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ فَقِيراً وَمِنْ مَوْلَىً تَدِبُّ عَقَارِبُهْ (٥)

والفقراء ليس لهم نعم ، كما يشير إلى ذلك مرقّش الأكبر في قوله :

حَارَبَ واسْتَعْوَى قَرَاضِبَةً لَيْسَ لَهُمْ مِمَّا يُحَازُ نَعَمْ (٦)

٤- الفقير : من ليس لديه قوت

وتجد الفقير معصب الرأس أو البطن بالخرق لشدة جوعه ، لا طعام له ، فتراه طوافاً ، يقول الأَسْوَد بن يَعْفُر في صائد أشعث :

مُعَصَّباً مِنْ صَبَاحٍ لَا طَعَامَ لَهُ وَلَا رَعِيَّةَ إِلَّا الطَّوفُ والعَسَسُ (٧)

فالفقراء بحاجة إلى الطعام . والشعر الجاهلي يفيض بأخبار اطعام الفقراء والمحتاجين . فيعطى الفقير القوت ، ويمنح الناقة المسنة والسمن ، كما ينوه إلى ذلك عروة بن الورد عند مخاطبته

---

(١) ديوانه ، ص٧٩ ،

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص٢٠٠ .

(٣) الأصمعيات ، ص١٨٤ . الأمم : الأخص من الحميم .

(٤) لسان العرب مادة "سوم" ، ١٢ /٣١١ .

(٥) ديوانه ، ص٢٩ .

(٦) المفضليات ، ص٢٣٩ . القراضبة : الفقراء .

(٧) ديوانه ، ص٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زوجته التي لامته على عطائه ، في قوله :

أَفِـي نَـابٍ مَنَحْنَاهَـا فَقِيـراً ... لَـهُ بطِنَـا بنَا طُنُبٌ مُصِيتُ

وَفَضْلَـةِ سَمْنَـةٍ ذَهَبَـتْ إِلَيْـهِ ... وَأَكْثَـرُ حَقَّـهِ مَـالا يَقُـوتُ (١)

٥- الفقير : من لامسكن له

لم يكن للفقراء مساكن أو بيوت مثل الأغنياء . وإن كانت لهم - للفقراء - بيوت ، فهي في الغالب بيوت حقيرة . فمن الفقراء من لابيوت لهم ، فينزلون في كنف الشجر (٢) . وترى الفقراء لاصقين بالتراب من شدة الفقر وسوء الحال كما يشير إلى ذلك طرفة بن العبد في معلقته ، بعدما أصبحت قبيلته قد أفردته أفراد البعير الأجرب ، وقد انفق طرفة طريفه ومتلده على الخمر واللذة ، يقول :

رَأَيْتُ بَني غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِي ... وَلا أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ (٣)

فالغبراء : صفة الأرض جعلت كالاسم لها . والمراد من "بني غبراء" الفقراء الذين لصقوا بالأرض من شدة الفقر ، وهم لاينكرون إحسان طرفة وإنعامه عليهم ، فوصلوه بعدما هجره أقاربه لطلب المعروف .

فالأغنياء لهم بيوت من الأدم ، بينما الفقراء لاصقون بالتراب .

فالفقير بحاجة إلى مأوى . يقول أبو كبير الهذلي في تأبط شراً :

يَحْمِي الصِّحَابَ إِذَا تَكُونُ عَظِيمَةً ... وَإِذَا هُمُ نَزَلُوا فَمَأْوَى العُيَّلِ (٤)

٦- الفقير من لا خدم له

والفقير ليس لديه خدم ولا عبيد ، يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان في قوله :

---

(١) ديوانه ، ص٣٣ . الطُّنُب : حبل طويل يشد به باب الخيمة . أو يُشَدُّ به الوتد . المُصيت : يسمع صوته في قرب . ومعنى الشطر الثاني من البيت الثاني : أكرمت الفقير مايقوته . ولا يستحق هذا الإكرام الشكر لأن ما يجب له علينا أكثر مما منحناه ، وهذا بعض حقه .

(٢) ينظر ديوان عروة ، ص١٠٨ .

(٣) ديوانه ، ص٤٥ . وشرح المعلقات السبع ، ص٥١ . الطراف : البيت من الأدم والجمع الطروف . وكنّى بتمديده عن عظمه .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلكِـنْ عِصْمَـةٌ فـي كُـلِّ يَـوْمٍ يُطِيـفُ بِـهِ المُخَـوَّلُ والعَدِيـمُ (١)

"والمخوّل : الذي لـه خوْل مثل العبيـد والإماء وغيرهم . والخَـوَل : العبيد والإمـاء وغيرهم من الحاشيـة" (٢) . وأراد الشاعـر بالمخـوّل الغنـي . والعَدِيم الفقير . وما دام "الغنـي ضد الفقيـر" (٣) ، فالفقير إذن لا يملك الخَول .

٧- الفقير من لامكسب له أو قل كسبه

والفقير من لامال لـه ولا مكسب وكذلك المسكين (٤) . فالمضـرور بمرض أو هزال أو نحو ذلك بحاجة إلى مساعدة . يقول ربيعة بن مقروم مفتخراً بمساعدة المحتاج المضرور بمرض أو هزال :

وَأَشْعَثُ قَـدْ جَفَـا عَنْـهُ المَوالي لَقِيَ كَالحِلْسِ لَيْسَ لَـهُ زِمَاعُ
ضَرِيـرٍ قَـدْ هَنَأْنَـاهُ فَأَمْسَـى عَلَيْـهِ فِـي مَعِيشَتِـهِ انْتِّـاعُ (٥)

فهذا المحتاج قد جفاه ناصروه وضيعوه ، فهو مطروح كالحلس ليس به مضاء فـي الأمر ولا عزم ولا يقدر على الكسب لأنه مضرور بمرض أو ضعف .

فالفقير الذي به زمانة أو مرض .

ولكن ليس بالضرورة أن يكون الهزال سببه الفقر ، وإنما قد يكون بسـبب آخر ، كالإنشـغال بالخيل وإصلاحها ، كما يقول الأسعر الجعفي :

لكـنْ قَعِيـدَةُ بَيْتِنَـا مَجْفُـوَّةٌ بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرِهَا وَلُهَا غِنَى (٦)

وكذا قول تأبط شراً في الرثاء ، يتمدح بهزال الممدوح من غير بؤس أو فقر ولكن لسخائه على أضيافه وإيثاره إياهم بالطعام على نفسه ، يقول :

يَابِسَ الجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ وَنَـدِي الكَفَّيْـنِ شَهْـمٌ مُـدِلُّ (٧)

---

(١) شرح شعره ، ص١٥٤ .

(٢) لسان العرب ، مادة "خول" ، ٢٢٤/١١ .

(٣) السابق مادة "غنا" ، ١٣٦/١٥ .

(٤) وجاء هذا التعريف في بدائع الصنائع" للكاساني ، ٩٠٢/٢ .

(٥) المفضليات ، ص١٨٧ .

(٦) الأصمعيات ، ص١٥٧ . قعيدة الرجل ، أو قعيدة بيتـه امرأتـه . الجَنَـاجِن عظـام الصـدر مفردها جنجن بكسر الجيمين وفتحهما .

(٧) ديوان الحماسة ، ٣٤٣/١ . المدل : الواثق بنفسه وبعدته وآلاته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحياناً كثيرة يكون الهزال والضعف سببه الجوع وانعدام الطعام خصوصاً في زمن الشدة وسني الجدب . ولنا حديث آخر عن الجوع وآثاره في فصل آخر إن شاء الله .

وترى كبير السن يعجز عن الكسب . فالشيخ الكبير بحاجة إلى معين يتكفل بحاجته وإلا سيشكو الفقر . يقول حكيمُ بنُ قُبيْصَة الضبي يعاتب ابنه بشرا الذي تركه بلا معين :

لَعَمْرُ أَبي بِشْرٍ لَقَدْ خَانَهُ بِشْرٌ ... عَلَى سَاعَةٍ فيها إِلى صَاحِبٍ فَقْرُ
فَمَا جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ هَاجَرْتَ تَبتَغِي ... وَلكِنْ دَعَاكَ الخُبْزُ أَحْسَبُ والتَّمْرُ (١)

فالمريض والضعيف وكذلك كبير السن ليس لهم مكسب يكفي حاجتهم ، فهم فقراء ، ويشتد فقرهم إن لم يكن لهم معين .

وكذا العاجز عن الكسب كاليتامى والأرامل من الفقراء . فاليتامى فقراء في أكثر من وجه . يقول السموأل بن عادياء في الفخر والحماسة :

رَأَيْتُ اليَتَامى لَا يَسُدُّ فُقُورَهُمْ ... قِرَاناً لَهُمْ في كُلِّ قَعْبٍ مُشَعَّبِ
فَقُلْتُ لِعَبْدَيْنَا أَرِيحَا عَلَيهِمِ ... سَأَجْعَلُ بَيْتي مِثْلَ آخَرَ مُعْزَبِ (٢)

وكذا من لم يطلب الكسب كالعاجز عنه . فالمرء إذا لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر ، يصرح بذلك عروة بن الورد :

إذا المَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشَاً لِنَفْسِهِ ... شَكَا الفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
وَصَارَ عَلى الأَدْنَيْنَ كَلّاً وَأَوْشَكَتْ ... صِلَاتُ ذَوِي القُرْبَى لَهُ أَنْ تَنَكَّرَا (٣)

فالفقير الذي ليس له مكسب وليس له حرفة .

* * *

و من الفقراء أيضاً أصحاب الحرف والمهن التي لا تكفي صاحبها مؤونة العيش على طول المدة . مثل الصائد ، أقصد صائد القوت ، ومشتار العسل والراعي والأجير والحداد وغيرهم . فهؤلاء لهم حرفة أو مهنة ولهم مكسب ولكن دون الكفاية .

---

(١) ديوان الحماسة ، ٣٨٩/٢ .

(٢) ديوانه ، ص٧٨ . القَعْب : القدح . مُشَعَّب : مصلح . ويخاطب عبديه في البيت الثاني : ردا الإبل إلى مراحها لينحرها لضيوفه . والمُعزَب : المتباعد بإبله في المرعى فذكر ما سيفعله من أجل اليتامى .

(٣) ديوانه ، ص٨٩ . الأدنين جمع الأدنى . كلا : حملا ثقيلا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا صائد له صبية صغار قد حالفوا الفقر زمنا طويلا ، والسبب في هذا الفقر هو أن كسبهم وقوتهم يعتمد على ما تصيده الكلاب التي يستعين بها أبوهم في اقتناص الحيوانات البرية . يقول الأعشى الكبير في هذا الصائد :

ذُو صِبْيَةٍ كَسْبُ تِلْكَ الضَّارِيَاتِ لَهُمْ قَدْ حَالَفُوا الفَقْرَ واللَّأْوَاءَ أَحْقَابَا (١)

وهذا ربيعة بن مقروم يصور صائدا من بني جلان ، فيقول من ذلك :

إِذَا لَـمْ يَجْتَـزِرْ لِبَنِيـهِ لُحْمَـاً غَرِيضَاً مِنْ هَوادِي الوَحْشِ جَاعُوا (٢)

فهذا الصائد خاب مسعاه ولم يصد لحما طريا . وكثيرا ما كان الصائد يخيب كما يصوره الشعر الجاهلي ، فيلهف أمه ، ويعض على أصابعه ندما على خيبته ، لأن أولاده وزوجته بانتظاره ، إذا لم يحضر لهم شيئا من الصيد جاعوا .

فهؤلاء وأمثالهم الذين لا يكفي كسبهم كفايتهم هم فقراء . لذلك نجد عروة بن الورد يوصي بعدم الرضا بالعيش الدون ويحض الفقير على السعي وطلب الكسب . يقول :

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالْتَمِسِ الغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا

وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُونٍ وَلَا تَنَمْ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيلَ مَنْ كَانَ مُعْسِرَا (٣)

فالفقير من له حرفة وقادر على الكسب ولكن دون الكفاية .

٨- **الفقير : سائل الناس**

والفقير يسأل الناس طالبا سد حاجته من المال وغيره . يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان بقوله :

وإِنْ أَتَـاهُ خَلِيـلٌ يَـوْمَ مَسْأَلَـةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ (٤)

ويكثر في الشعر الجاهلي ذكر السائل والمجتدي وهو طالب العطاء . وتمدح الشعراء بإغاثة المحوج الجادي (٥) .

والحقيقة أن في السؤال مذلة وهواناً . لذلك يوصي عبد قيس بن خُفاف البرجمي التميمي بعدم التخشع للسؤال إذا ما افتقر الإنسان فيقول :

---

(١) ديوانه ، ص٤١٣ . اللأواء : الشدة .

(٢) المفضليات ، ص١٨٩ .

(٣) الحماسة البصرية ، ٣٤٣/١ .

(٤) شرح شعره ، ص١٢٠ . الحرم : المنع .

(٥) ينظر : شاعرات العرب ، ص٧٠ . والأصمعيات ، ص١٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَإذا افْتَقَـرْتَ فَـلَا تَكُـنْ مُتَخَشِّعَـاً تَرْجُو الفَوَاضِلَ عِنْدَ غَيْرِ المُفْضِلِ (١)

وكأن الفقير في الشعر الجاهلي هو طالب المعروف أو السائل ، في قول حُجَيَّة بن المضرّب في مدح زرعة أحد الملوك وقومه :

وَلَوْ كَانَ في الأَرْضِ البسِيطَةِ مِثْلُهُمْ لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَا عُرِفَ الفَقْرُ (٢)

فكأن الشاعر قد حصر الفقر في المختبط العافي . وجاء في لسان العرب من مادة "خبط" : "الخَبْطُ : طلب المعروف ، خَبَطَه يَخْبِطُه خَبْطَا واخْتَبَطَه . والمُخْتَبِطُ : الذي يسألك بلا وسيلة ولا قرابة ولا معرفة . ويقال خبطه : إذا سأله ، ويقال : اختبطني فلان إذا جاء يطلب المعروف من غير آصرة .... وقيل الاختباط طلب المعروف والكسب" (٣) . "والعافي السائل من عفا يعفو" (٤) . فلو كان في الأرض مثل قوم زرعة للسائل لما عرف الفقر .

فالفقير في الشعر الجاهلي هو المحتاج له دون الكفاية في كل شيء أو لا شيء له من متاع العيش .

وبعبارة موجزة يمكن القول : إن الفقير في الشعر الجاهلي هو : المحتاج والفقر الحاجة وهي دون الكفاية باعتبار المعيشة . والفقير من يشغل فكره في قوته وقوت عياله مع ضيق مكسبه وسوء أحواله . ومن كان دون ذلك فهو فقير .

* * *

وثمة مصطلحات أو تعبيرات وردت في الشعر الجاهلي تفيد معنى الفقر والحاجة أو الفقير المحتاج . وهي كثيرة الدوران في الشعر الجاهلي ، ومنها :

أ- العدم

"العَدَمُ والعُدْمُ والعُدُمُ : فقدان الشيء وذهابه . وغلب على فقد المال وقلته ، عَدِمَهُ يَعْدَمُهُ عُدْمَاً فهو عَدِمٌ ، وَأَعْدَمَ إذا افتقر . والعَدَمُ : الفَقْر ، وكذلك العُدْم . وأَعْدَم إعْدامَا وَعُدْما : افتقر وصار ذا عُدْمٍ فهو عَدِيمٌ ومُعدِمٌ لا مال له . والعَدِيم : الفقير الذي لا مال له وجمعه عُدَمَاء" (٥) .

---

(١) الحماسة الشجرية ، ٤٧٠/١ .

(٢) الحماسة البصرية ، ٤٥٧/١ .

(٣) ٢٨٢/٧-٢٨٤ .

(٤) لسان العرب ، مادة "عفا" .

(٥) السابق مادة "عدم" ، ٣٩٢/١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد هذا في الشعر الجاهلي . فالممدوح "مَأْوى كُلِّ مُثْرٍ وَمُعْدِمٍ" (١) ؛ فالمثري الرجل الغني ، من أثرى الرجل إذا كثر ماله ، فهو مثر . والمعدِم : الفقير لا مال له من أعدم إذا افتقر . ويقول عبيد بن الأبرص مفتخرا بالفتية الشجعان :

لَا يَحْسَبُونَ غِنَىً يَبْقَى وَلَا عَدَمَا إِذَا رَأَى ذَاكَ مِنْهُمْ مَعْشَرٌ فَرُطُ (٢)

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان ، عند حديثه عن النوق والخيول :

يَنْزِعْنَ إِمَّةَ أَقْوامٍ لِذِي كَرَمٍ بَحْرٍ يَفِيضُ عَلَى العَافِينَ إِذْ عَدِمُوا (٣)

ويقول طرفة بن العبد مخاطبا بني تغلب وكأنه يقول لهم : يقاتلكم غنينا دفاعا عن ماله وفقيرنا طلبا للغنيمة :

تَذْكُرُونَ إِذْ نُقَاتِلُكُمْ لَا يَضُرُّ مُعْدِمًا عَدَمُهْ (٤)

ويقول حسان بن ثابت :

يُسَوِّدُ ذُو المَالِ القَلِيلِ إِذا بَدَتْ مُرُوءَتُه فِينَا وَإِنْ كَانَ مُعْدِمًا (٥)

ب- الإملاق

"الإمْلَاق : الافتقار ، كما في الآية الكريمة : "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق" . ورجل أَملق من المال أي فقير منه قد نفذ ماله . أملقَ الرجل ، فهو مُمْلِقٌ . والمُمْلِقُ الذي لا شيء له . مملق إذا افتقر فهذا لازم ، وأملق الدهر ما بيده ، ومنه قول أوس بن حجر :

لَمَّا رَأَيْتُ العُدْمَ قَيَّدَ نَائِلِي وَأَمْلَقَ ما عِنْدِي خُطُوبٌ تَنَبَّلُ (٦)

وأَملقته الخطوب أي أفقرته .

وأصل الإملاق : الإنفاق . يقال أملق ما معه إملاقا ومَلَقَه مَلْقًا إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك" (٧)

---

(١) ديوان بشر ، ص٢٠٠ .

(٢) ديوانه ، ص٦٥ . الفرط : المجاوز فيه الحد والاسراف والظلم .

(٣) شرح شعره ، ص١٢٤ . الإمَّة : النعمة . العافي : طالب المعروف .

(٤) ديوانه ، ص١١٦ .

(٥) ديوانه ، ص٣٦٧ . والحماسة البصرية ، ١٢/١ .

(٦) ديوانه ، ص٩٤ .

(٧) لسان العرب ، مادة "ملق" . ٣٤٧/١٠-٣٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - الفاقة

"الفاقة : الفقر والحاجة ، ولا فعل لها . يقال من الفاقة إنه لَمُفْتَاق ذو فاقة . وافتاق الرجل أي افتقر . والمفتاق : المحتاج" (١) ويذكر الأعشى الكبير ذا الفاقة أثناء مدحه قيس بن معد يكرب في غاراته :

وَلَقَدْ جَرَرْتَ إلى الغِنَى ذَا فَاقَةٍ ... وَأَصَابَ غَزْوُكَ إِمَّةً فَأَزَالَهَا (٢)

ويقول الأعشى أيضا يشكو الزمان والدهر :

وَهَلْ يَعُودَنَّ بَعْدَ عُسْرٍ ... عَلَى أَخِي فَاقَةٍ يَسَارُ (٣)

د- الخلّة

جاء في لسان العرب من مادة "خلل" (٤) : والخلّة : الحاجة والفقر . [قيل] : به خلّة شديدة أي خصاصة (٥) . وفي المثل : الخلّة تدعو إلى السلة . والسلة : السرقة . وخلّ الرجل : افتقر وذهب ماله وخلّ الرجل إذا احتاج . يقال فلان ذو خَلّةٍ أي محتاج . والخلة بالفتح الحاجة والفقر . ورجل مُخِلّ ومختل وخليل وأخل : معدم فقير محتاج ؛ قال زهير بن أبي سلمى :

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ ... يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ (٦)

يعني بالخليل المحتاج الفقير المختل الحال . والحرم : الممنوع .

هـ- الإقلال

"القلة : خلاف الكثرة . وأَقَلّ : افتقر . والإقلال : قِلّة الجِدّة ، وقل ماله ، ورجل مُقِلّ وأَقَلّ : فقير" (٧)

---

(١) لسان العرب ، مادة "فوق" ، ٣١٩/١٠ .

(٢) ديوانه ، ص٨٣ . إمة : نعمة . والمعنى : لكم أصابت نعمته ذا فاقة فأغنته وكم نزلت بذي نعمة فأفقرته .

(٣) ديوانه ، ص٣٣١ . وللأعشى في موضع آخر من ديوانه ذكر "الفاقة" بمعنى الفقر . ديوانه ، ص١٣٧ .

(٤) ٢١٥/١١ .

(٥) والخصاص : الفقر . وينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص٨٦ .

(٦) شرح شعره ، ص١٢٠ .

(٧) لسان العرب ، مادة "قلل" ، ٥٦٣/١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول عبد الله بن الزبعرى :

كُـلُّ بُـؤْسٍ وَنَعِيـمٍ زَائِـلُ ... وَبَنَـاتُ الدَّهْـرِ يَلْعَبْنَ بِكُلّ

والعَطِيَّـاتُ خِسَـاسٌ بَيْنَنَـا ... وَسَـوَاءٌ قَبْـرُ مُثْـرٍ وَمُقِـلّ (١)

ويقول أمية بن أبي الصلت في الفخر بقومه ثقيف :

قَوْمٌ إِذا نَـزَلَ المُقِلُّ بِأَرْضِهِمْ ... رَدُّوهُ رَبَّ صَوَاهِـلٍ وَقِيَـانِ (٢)

فالمقل : الفقير .

و- الرّمق

"الرَّمَقُ : بقيّةُ الحياة . [وقيل] بقية الروح . وقيل : هو آخر النفْس . المُرْمَـقُّ من العيش : الدون اليسير . وعيشٌ رمِق : يُمسك الرَّمق . والرُّمُقُ : الفقراء الذين يتبلغون بالرِّماق وهو القليل من العيش . والرُّمَّقُ : الضعيف من الرجال" (٣) .

ز- الإقتار

جاء في لسان العرب لابن منظور : "القَتْـرُ والتَّقتير : الرُّمْقَـةُ من العيش . قَتَرَ يَقْتِـرُ ويقتُر قتْرا وقُتُورا فهو قاتِر وقَتُـور وأَقْتَـرُ ، وأَقْتَـرَ الرجل : افتقـر . والقَتْرُ ضيق العيش وكذلك الإقتار . وأقتر : قل ماله وله بقية مع ذلك ... وَقَتَرَ الرجل : قل ماله حتى [قعد] مع الفقـراء" (٤) .

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

لِيَبْكِـهِ مُقْتِـرٌ أَفْنَـى حَرِيبَتَـهُ ... دَهْرٌ وَحَالَفَهُ بُؤْسٌ وَإِقْتَارُ (٥)

فالمقتر الفقير والإقتار الفقر . حريبته : أرادت ماله .

ويقول الشاعر :

---

(١) الحماسة البصرية ، ٣١٩/١-٣٢٠ . والشاعر قالها في غزوة أحد ولـم يكن قد أسلم بعد ، أسلم بعد فتح مكة . وخساس : حقيرة قليلة لا خطر لها مهما عظمت .

(٢) شرح ديوانه ، ص٢٣.

(٣) لسان العرب ، مادة "رمق" ، ١٢٥/١٠ .

(٤) من مادة "قتر" ، ٧٠/٥-٧١ .

(٥) ديوانها ، ص٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَرِيمٌ رَأَى الإقْتَارَ عَاراً فَلَمْ يَزَلْ أَخَا طَلَبٍ لِلْمَالِ حَتَّى تَمَوَّلا (١)

ح- العسر

"العُسْرُ والعُسُر : ضِد اليُسْر ، وهو الضِّيقُ والشِّدَّة والصعوبة* . . والعرب تضع المعسور موضع العسر والميسور موضع اليسر . وأعسَرَ الرجل : أضاق . والمعْسِر : نقيض الموسر . وأعسر ، فهو معسر : صار ذا عُسرة ، وقلة ذات اليد ، وقيل : افتقر . والعُسْرَةُ : قلة ذات اليد . وكذلك الإعسار . والعسرى نقيض اليسرى ، والمعسور ضد الميسور" (٢) .

يقول عبيد بن الأبرص مفتخرا :

والخَالِطُو مُعْسِرٍ مِنهُمْ بِمُوسِرِهِم وأَكْرَمُ النَّاسِ مَطْرُوقاً إِذَا اخْتُبِطُوا (٣)

ويقول حسان بن ثابت :

أَعْطَى ذَوُو الأَمْوَالِ مُعْسِرَهُمْ والضَّارِبِينَ بِمَوْطِنِ الرُّعْبِ (٤)

ط- البؤس

جاء في لسان العرب من معاني البؤس : الشدة والفقر . وَبَئِسَ الرجل يَبْأَسُ بُؤْسا وَبَأْسَا

---

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٥٥/٢ .

(٢) لسان العرب "عسر" ، ٥٦٣/٤ .

(٣) ديوانه ، ص٩٤ .

(٤) ديوانه ، ص٨٩ .

* "الشدة : المجاعة . والشدائد : الهزاهز . والشدة : صعوبة الزمن . وشدة العيش : شظفه" هذه من مادة "شدد" لسان العرب ، ٢٣٤/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبئيسا إذا افتقر . واشتدت حاجته فهو بائس أي فقير .... والبأساء والمَبأسة كالبؤس (١) ؛ قال بشر بن أبي خازم :

فَأَصْبَحُوا بَعْدَ نُعْمَاهُمْ بِمَبْأَسَةٍ والدَّهْرُ يَخْدَعُ أَحْيَاناً فَيَنْصَرِفُ (٢)

ي- العيلة

جاء من مادة "عيل" في لسان العرب (٣) : "عال يعيل عَيْلا وعَيْلة وعِيُولا وَمَعِيلاً : افتقر . والعَيِّلُ : الفقير . وكذلك العائل ، قال الله سبحانه وتعالى : "ووجدك عائلا فأغنى" * . والعالة : الفقراء جمع عائل . والعيْلة والعَالة : الفاقة . فيقال : عالَ يعيلُ عَيْلةً وعُيولا إذا افتقر . يقول أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاح :

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ"

وفي الشعر الجاهلي ذكر للعائل والعيل والعيال ، بمعنى الفقراء (٤) . يقول زهير بن أبي سلمى في المرء يغنى بعد فقره ويفتقر بعد الغنى :

قَدْ يَقتَنِي المَرْءُ بَعْدَ عَيْلَتِهِ يَعِيلُ بَعْدَ الغِنَى وَيَجْتَبِرُ (٥)

---

(١) مادة "بأس" ، ٦/٢٠-٢٣ . وجاء أيضا في هذه المادة : البأساء اسم الحرب والمشقة والضرب . والبأس الشدة في الحرب . والبأس الخوف . ورجل بئس : شجاع ... وأبأس الرجل : حلت به البأساء . والبائس المبتلى . والبائس الألفاظ المترحم بها كالمسكين . والبأساء الشدة . والبأساء والبؤسى من البؤس ضد النعمى والنعماء "والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة : كله الخفض والدعة والمال ، وهو ضد البأساء والبؤسى . والناعمة والمنعمة والمناعمة الحسنة العيش والغذاء والمترفة" لسان العرب "نعم" ، ١٢/٥٧٩" - والمبتئس : الحزين وقيل : المبتئس المسكين الحزين . والأبؤس : الداهية . قيل في بيت تأبط شرا :

قَدْ ضِقْتُ مِنْ حُبِّها ما لا يُضَيِّقُنِي حتّى عُدِدتُ مِنَ البُوسِ المَساكِينِ

يجوز أن يكون عنى به جمع البائس ويجوز أن يكون من ذوي البؤس ، والبائس الرجل النازل به بلية أو عدم يرحم لما به .

(٢) ديوانه ، ص١٣٩ .

(٣) ١١/٤٨٨- .

(٤) ينظر مثلا : ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ١/٨٥ . والأصمعيات ، ص١٨٤ .

(٥) شرح شعره ، ص٢٣٠ . يقتني أي يجمع ويستغني . عيلته : فقره . عال يعيل افتقر . وعال يعول عيالة .

* سورة الضحى ، آية ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ك- المسكين

المسكين : الذي لا شيء له . وقيل الذي لا شيء له يكفي عياله . وقيل : الذي اسكنه الفقر أي قلل حركته . أو الذي قد أذله الفقر . وقيل المسكين أسوأ حالا من الفقير ، وقيل بل أحسن حالا منه (١) .

والحقيقة أن الاثنين من المحتاجين ، يستأهلان العطاء والصدقة . وعلى الرغم من اختلاف الآراء في تعريفهما وتباين هذه التعريفات عند اللغويين والفقهاء ، والمفسرين ، إلا أن بعضهم أشار إلى استوائهما في الحاجة (٢)

ولم أجد شيئا في الشعر العربي يدفعني إلى الاستدلال على اختلاف الفقراء عن المساكين ؛ لأنني لم أجد سوى بعض الشواهد القليلة في الشعر الجاهلي فيها لفظة المسكين أو المساكين . وعلى كل حال فالمسكين هو من زمرة المحتاجين والفقراء ، أو هو من أوصاف الفقراء . ويقول سيد قطب : "والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون" (٣) .

---

(١) ينظر في ذلك : لسان العرب مادة "سكن" ، ٢١٤/١٣ . ومادة "فقر" ، ٦٠/٥ . والقاموس المحيط ، "فقر" ١١١/٢ . وتاج العروس "فقر" ، ٣٣٦،٣٣٥/١٣ .

(٢) ينظر مثلا : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، لابن رشد الحفيد ، ٢٠١/١-٢٠٢ . ويقول ابن رشد في شرح آية (٦٠) من سورة التوبة : إيجاب الصدقة للأصناف المذكورة في الآية "إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... " هو الحاجة فقط أو الحاجة والمنفعة العامة .

(٣) في ظلال القرآن ، المجلد ٣ ، ص١٦٦٩ . [وقيل : "الفقير الذي لا يسأل لأن عنده ما يكفيه للحال . والمسكين الذي يسأل لأنه لا يجد شيئا ، فهو أضعف حالا منه . وعند الشافعي رحمه الله على العكس" . ينظر في هذا القول : "تفسير القرآن الجليل" المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" لأبي البركات النسفي ، م١ ، ص٦٥٩ . وقيل : "الفقير من له أدنى شيء والمسكين من لا شيء له فيحتاج للمسألة لقوته أو ما يواري بدنه" ينظر في هذا القول : "شرح فتح القدير ، لابن الهمام الحنفي ، ٢٦١/٢ . وقيل : "الفقير الذي يجد القوت ، والمسكين الذي لا يجد القوت ، وقيل : الفقير المحتاج والمسكين من أذله الفقر وأسكنه عن الحركة" ينظر في ذلك شرح السنة للبغوي ، ٨٨/٦] .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

أسباب الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي

للفقر في العصر الجاهلي أسباب بيئية واقتصادية ، وأسباب اجتماعية ، وأسباب نفسية . وثمة معتقدات وعادات جاهلية تسبب الفقر . وسيكون الحديث عن هذه الأسباب مفصلا أو موجزا من خلال الشعر الجاهلي .

-١-

الأسباب البيئية والإقتصادية

إن ثمة أسبابا طبيعية للفقر في العصر الجاهلي . والسبب الأقوى لهذا الفقر هو قلة الثروات البيئية والإقتصادية وندرة الخيرات الطبيعية ، وذلك بسبب ما تتعرض له أرض الجزيرة العربية – موطن العرب في الجاهلية – من الجدب .

ولعل اقتصاد العرب في العصر الجاهلي كان يعتمد الإعتماد الأكبر على الثروات البيئية في أرض الجزيرة ، والمتمثلة بوجود الماء والكلأ ، لإعتماد الأغلبية على الماشية والرعي . فما دام أساس الإقتصاد الجاهلي ، وهو الموارد البيئية ، ضعيفا ، فإن الاقتصاد في النهاية يظل ضعيفا متقلبا ، يرتبط بالجدب والخصب .

ثم إن تعاقب سنوات الجدب على أرض الجزيرة العربية ، جعل الفقر ظاهرة حتمية ، ومتوقعة في كل زمان ومكان ، لأن العرب اعتمدوا في معيشتهم اعتمادا كبيرا على خير السماء والأرض في الماء والكلأ .

ويرتبط جدب الجزيرة بالمطر ارتباطا وثيقا . فقلة المطر أو انعدامه يقضي على الخصب والنماء ، فيموت النبات ويضعف الحيوان ويهزل الإنسان حتى يضطر لشرب ماء كروش الإبل وأكل الضب أو دم الفصد بعد شوائه في مصران ، دفعا لغائلة الجوع ، وسدا للرمق .

وما يزيد الطين بلة وجود الرياح الشديدة التي لا تبقي ولا تذر ، تهب على الجزيرة ، فتأكل الخصب وتأتي على الزرع ، وتسبب الجدب ، وتشيع الفقر في المجتمع الجاهلي .

وما يزيد الفقر ويجعله يشمل أكبر فئات المجتمع الجاهلي عدم توفر موارد اقتصادية كافية . فلم تكن الصناعة ذات أهمية لدى العرب ، ولم تكن مزدهرة ، لذلك لم تحقق أي تقدم ملموس في الإقتصاد الجاهلي . ثم إن العرب لم يولوا الزراعة الأهمية المرجوة ، إلا في بعض مناطق الخصب التي تتوفر فيها موارد مائية دائمة . أما التجارة فكانت لها أهميتها لدى بعض القبائل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأفراد في المجتمع الجاهلي خصوصا من كانوا يقطنون في المدن وفي طرق القوافل التجارية ، أو حول الأسواق . وحتى إن القوافل التجارية كانت تتعرض للسلب والنهب ، وإن اعتماد بعض الجاهليين على الحرف والمهن ، كالصيد ، واشتيار العسل ، والرعي والإغارة ... ، لم تكن تكفي صاحبها مؤونته على المدى الطويل ، فيبقى في الأغلب فقيرا إلى درجة ما . كما سنرى ذلك في حديثنا عن صورة مثل هؤلاء الحرفيين في الشعر الجاهلي . في الفصل الرابع . ثم إن فقر البيئة وقلة الموارد أوجد فئات فقيرة لا يستهان بها ، كالجائع والمعصب والمجرف والضيف الفقير والمستنبح وابن السبيل وغيرهم وسنرى صورتهم في الفصل الرابع أيضا .

وإنني آثرت الحديث في هذا الفصل عن الجدب وعناصره ، لأنها أقوى الأسباب الطبيعية والإقتصادية للفقر (١) ، ولأن الشعر الجاهلي يزخر بوصف هذه الأسباب .

فتحدثت في زاوية واسعة من هذا الفصل عن الجدب والسنه وفصولها وعن المطر والرياح كأساس قوي لأسباب الفقر ، كما ظهرت لي في الشعر الجاهلي .

١. الفقر والجدب

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا عن اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم . وقال : " اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب وكل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش ، من الحبوب والأدم ، والحنطة والفواكه لزكاة المنابت واعتدال الطينة ووفر العمران ، وفيها الأرض الحرّة (٢) التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة ، فسكانها في شظف من العيش : مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ... ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار ، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب ... فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب ، وتجدهم

---

(١) ينظر : فقه اللغة وأسرار العربية ، للثعالبي ، ص٤٣ . وتهذيب الألفاظ ، لابن السكيت ، ص٢٦ وما بعدها .

(٢) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، تتكون من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين (لسان العرب والقاموس المحيط مادة (حرر) . وفي "معجم البلدان" لياقوت الحموي ذكر لحرار كثيرة تبلغ الثلاثين (حرة) ٢/٢٤٥-٢٥٠ . وينظر في الحرار كذلك "معجم ما استعجم" للبكري ، ٢/٤٣٥-٤٣٨ . وتاريخ العرب (مطول) ، فيليب حتي ، ١٩/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان .." (١) . وأكثر اعتماد أبناء الجزيرة العربية في العصر الجاهلي كان على التمر (٢) .

وعندما ننظر إلى الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، نرى الجدب والقحط والأرض الجرداء القاحلة ، لا ماء فيها ولا نبات لكثرة الصحاري وقلة الماء . وإنما الخصب قليل بالنسبة للقحط والجدب. ولكثرة أوقات هذا الجدب وطول أمدها ،كان بعضهم يأكل الضباب والذئاب (٣).

ويقالُ مَكان جَدْبٌ وجديب وأرضٌ جدبة وجُدُوب (٤) ، ضد الخصب والنماء .

وتكثر أزمان الجدب والقحط والمحل في جزيرة العرب ، والتي معظم أرضها صحراء قفر. بخصوص " القفر" فقد تواتر ذكرها في الشعر الجاهلي ، وجاء في لسان العرب في معناها : أقفر : ذهب طعامه وجاع . وقَفِر ماله قَفرًا : قل " (٥) . ومعنى هذا أن "القفر" يحمل في طياته الفقر وقلة الموارد .

وكذلك "المحل" ، فمن معانيه "الشدة" . والمحل الجوع الشديد وإن لم يكن جدب . والمحل نقيض الخصب . وأرض محل وقحط : لم يصبها المطر في حينه (٦) .

وتكثر في الجزيرة العربية الصحاري والمفازات أو المهامه والفلوات والأرض الجدبة ، التي لا كلأ فيها ولا ماء . والجدب إذا ما طال زمانه عم الفقر البلاد ، واشتدت المحن والأزمات ، وانتشرت الآفات ، وعانى الإنسان الجاهلي أشد المعاناة .

وكثرت الألفاظ الدالة على الأرض الجدبة ، والصحاري القفرة ، في الشعر الجاهلي ؛ من ذلك مثلا : المهمه والمهامه (٧) ، والمهمه القفر والفلاة المقفرة (٨) ، والبيد والصحراء والفلاة ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ٣٩٣/١ .

(٢) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ٢٠٩/٣-.

(٣) السابق ، ٢١٠/٣ .

(٤) خزانة الأدب ، للبغدادي ، ٨٣/١ .

(٥) مادة "قفر" .

(٦) لسان العرب "محل" . وينظر "تهذيب الألفاظ" ، لابن السكيت ، ص٢٦

(٧) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١٢٢ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص٥٤ . والمفضليات ، ص٤١٩.

(٨) ينظر ديوان عنترة ، ص٤٦ ، ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعموم البلاد تجدب في الجزيرة العربية (١) . ونجد وصفا للجاحظ للأرض الجدبة ، قليلة الماء ، عديمة الموارد (٢) .

ويكون الجدب والمحل عند قلة المطر (٣) ، وتتعرى السماء من الغيوم والأرض من النبات ، كما يقول عامر بن الطفيل :

لِلّهِ غارتُنا والمَحْلُ قَدْ شَجِيَتْ مِنْهُ البِلادُ فَصَارَ الأُفْقُ عُرْيَانا (٤)

وإذا كان في السماء سحاب أَصْهَب إلى البياض ، فذلك دليل على أنه لا ماء فيه ، ودليل على الجدب . قال النابغة :

صُهْبَاً ظِماء أَتَيْنَ التِّينَ عَنْ عُرُضٍ يُزجينَ غَيْماً قليلا مَاؤُه شَبما (٥)

ويكون المحل والقحط في الشتاء (٦) . والعرب تسمي القحط شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد (٧) . وعلامة الجدب في الشتاء سحاب في العشي لاماء فيه أحمر بالغداة (٨) .

ويكون الجدب في الشتاء ، وعند هبوب ريح الشمال الباردة والنكباء ، وعندما يطلع النجم محلقا في السماء وعند قلة الغيم ، واحمرار الجو عند طلوع الشمس ومغربها (٩) ؛ والحمرة

---

(١) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص٩٩ .

(٢) "البيان والتبيين" ١٥٣/٢ .

(٣) ينظر "وصف المطر والسحاب ... لابن دريد الأزدي ، ص٣٨ ، ٤٧ . والمفضليات ٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ، ص١٣٧ .

(٥) ديوانه ص١٠٧ . والأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة ، ص١٧٥ . التين : جبل بالشام وهو الذي أقسم الله عز وجل به وقال "والتين والزيتون" سورة التين ١ . شبم : بارد . يزجين : يسقن ، والشمال تسوق السحاب .

(٦) ينظر "البيان والتبيين" للجاحظ ، ٢٣٣/٣ . و "تاريخ اليعقوبي" ، ٢٥٩/١ .

(٧) لسان العرب مادة "شتا" .

(٨) الأنواء لابن قتيبة ، ص١٧٦ .

(٩) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص٢٣ – ٢٧ . ديوان الحماسة ، ١٩٩/١ . ديوان الحطيئة ، ص٢٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدالـــة على الجدب تكون بغير سحاب (١) . وثمـة حمرة دالـة على الغيث تكون السماء ذات غيم (٢) .

ومن شدة الجدب يكون العام فيه سواد وبياض (٣) . ونجـد أحد الشـعراء الإسـلاميين يكنـى "بالظلماء" عن الجدب والقحط وشدة الحاجة (٤) .

والجدب يشيع الفقـر ، وذلـك لأن فـي الجدب ينعدم الكـلأ والمـاء ، فترى الرعـاة يعـودون بالإبل مـن المرعى ، لأنهم لايجـدون لها مـا تأكـل لانعـدام النبات ، فـالأرض جـرداء دون نبات (٥) . وتضن النوق الغزيرة الدر بالألبان حين يشتد الجدب (٦) . ولشدة الجدب لا يجدون في مائة من الإبل ما يُعلل به صبي ، فهم ينحرونها طعاما للجائعين (٧) .

وفـي الجـدب والمحل ينتشر الجوع والهزال والضعف في الإنسان والحيـوان . وتقـل الأموال (٨) . ويصبح قوم من الأقوام عبيدا لآخرين حين الجدب والقحط (٩) .

وتختلف تصرفات بعض الأقوام بين الخصب والجـدب . يقول شاعر بني جرم مـن طـيء يصف قوما باللؤم والبطر عند الخصب ، والتذلل عند الجدب :

إِذَا أَخْصَبْتُـمْ كُنْتُـمْ عَـدُوّاً وَإِنْ أَجْدَبْتُـمْ كُنْتُـمْ عِيَالا (١٠)

لذلك تمدحوا وافتخروا بالكرم والجود ومساعدة الفقراء زمن الجدب والمحل (١١) . وكـانت

---

(١) الأنواء لابن قتيبة ، ص١٧٦ .

(٢) السابق ، ص١٨٠ .

(٣) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٤١ .

(٤) ينظر ديوان الحماسة ، ٩٩/١

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٧٥ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ٣٩٥ . وديوان الهذليين ، ٢٦/١ ، ٦٣ ، ١٠٦ .

(٧) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٣٥٠ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٢٧ . المفضليات ، ص٢٥٩ .

(٩) ينظر المفضليات ، ص٢٥٩ – ٢٦٠ .

(١٠) ديوان الحماسـة ، ٨٥/١ . والمعنـى : إذا وجدتـم سـعة عاديتمونـا وإن أسـاء إليكم الزمـان وضاق بكم العيش فزعتم إلينا واستنجدتم بنا حتى كأنكم عيال .

(١١) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٣٥٠ .وديوان الحماسة ٤٣٦/١ ، ٤٦/٢،٢٥٨،٣٥٠،٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العـرب ، إذا كان الشتاء ونالهم القحط ، وقلـت ألبـان الإبـل ، استعملوا الميسـر (١) ، وافتخـروا بذلك (٢) ، وافتخروا بذبح النوق ، وتقديم لحمها وشحمها طعاما للناس في المحل والجدب (٣) وبعقر الكوم في الشتاء المحال (٤) . كمـا يفتخرون بإهانـة الأمـوال ونحـر الإبـل للطـارقين فـي السـنة الشـديدة القحـط عندمـا يسـرع الراعـي إلـى لقاحـه يؤويهـا خشـية البـرد (٥) ، وبالسـماحة والسخاء عند المحل وقلة المطـر (٦) ، ويحتفـون بمـن ينزل فـي فنـاء دارهـم مـن المحتـاجين والفقراء زمن الجدب (٧) .

ويتمـدح العـرب كذلـك بمـن يكـون نعم "منـاخ العـافين فـي الزمـن المحـل" (٨) ، ومـن يحبسـون إبلهم في الجدب والمحل لإطعام الحـي ابتغـاء المجـد وتـرك اللـوم (٩) ، ومـن يكـون خير قومه في سنة الجدب والقحط (١٠) . ويهجـون مـن لا يكـرم ضيفـه إذا شـاع الجـوع فـي الجـدب (١١) .

٢- الفقر والسنة

تكثر سنوات الجدب والفقر فـي العصـر الجـاهلي . ولتوالـي هـذه السـنين وتكرارهـا أطلـق العرب السنة على الجدب والقحط ، وذلـك لإنعدام المطـر وعمـوم المحـل (١٢) "وضَـنَّ سَـحَابُها

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، ص٢٥٩/١ .

(٢) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص٣٠ .

(٣) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص٧٥ . وديوان الأعشى ، ص٢٧٥ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص٢٩٨ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٣٧ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٠٥ .

(٧) ينظر السابق ، ص٣٩٥ .

(٨) ينظر ديوان الحطيئة ، ص٢٤٤ .

(٩) ينظر ديوان طرفة ، ص٦٨ .

(١٠) ينظر المفضليات ، ص٤١٩ .

(١١) ينظر ديوان بشر ، ص٢١ .

(١٢) ينظر ديوان عامر، ص٤٦ . وديوان عروة ، ص٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِسِجَالٍ" (١) . وَأَسْنَتَ القَوْمُ إذا أَجْدبوا (٢) . وأطلقوا على سني القحط والجدب "المجاوع" جمع مجموعة لكثرة الجوع فيها (٣) . كما وسموا السنوات الشداد باللَّزْبات جمع لزْبة (٤) . والسنة الأزمة إذا اشتد قحطُها (٥) ، والسنة الأزوم أوسنة الأزمة شديدة القحط (٦) . وقَحُوط وتحوط اسمان للسنة المجدبة (٧) .

وأطلق العرب على السنة التي يكثر فيها الجدب والإمحال "الشهباء" أي البيضاء من الجدب ، فلاترى فيها خضرة ، وتكون ذات غبار إذا انعدم القطر (٨) .

وأطلقوا على السنة الجدبة الشديدة "الغبراء" لإغبرار الهواء فبها وانعدام المطر وانتشار الجدب (٩) .

و"كَحْل" السنة الشديدة المجدبة ليس فيها خصب (١٠) .

و"الجُلْبَةُ" السنة الشديدة الجديبة (١١) . و"الحَجْرَة" السنة الشديدة المحال (١٢) . والسنة

---

(١) ديوان عنترة ، ص١٤٩ .

(٢) ديوان الحطيئة ، ص١٨٢ .

(٣) ينظر لسان العرب مادة "جوع" . وشرح شعر زهير ،ص١٥٥ . وديوان الماسة ، ١٢٧/١.

(٤) ينظر ديوان شعر المتلمس الضبعي ، ص٢٤٥ .

(٥) ينظر شرح ديوان أمية ، ص٢٣ .

(٦) ينظر السابق ،ص٤٤ .

(٧) ينظر ديوان أوس ، ص٥٤ . وديوان بشر ، ص٢٥ .

(٨) ينظر لسان العرب مادة "تبت" . وديوان بشر ، ص١٧٤ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص٣٥ . وديوان حاتم ، ص٦٧ . وديوان الحطيئة ، ص١١٢ . وديوان الخنساء ، ص١١.

(٩) ينظر ديوان طرفة ، ص٤٥ . وشرح المعلقات السبع ، ص١٤٠ .

(١٠) ينظر لسان العرب مادة "كحل" . وديوان سلامة ١١٧ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص١٠. وديوان الأفوه الأودي ، ص١٤ . والمفضليات ، ص١٢٣ .

(١١) ينظر ديوان الأسود ، ص٥٩ . وديولن الحطيئة ، ص٢٨٢ .

(١٢) ينظر لسان العرب مادة "تبت" . وديوان الحطيئة ، ص٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"المُجَلِّحَة" ، والمجاليح السنوات التي تذهب بالمال ، تحمرّ فيها آفاق السماء ، وينعدم المطر (١) . والدهر يُجلحّ أي يأتي على القوم ويرهقهم (٢) . و"الجَلائف" جمع جليفة وهي السنة الشديدة التي تذهب بالأموال ويعم الفقر فيها (٣) ، والسنة "المُجْحِفة" التي تُجْحِفُ بالقوم قتلا وإفسادا للأموال ، وهي المضرة بالأموال والنعم (٤) . و"الجَائِحَة" الشدة التي تجتاح المال من سنة قحط أو فقر أو فتنة (٥) .

وذكر الشعراء الجاهليون العام يكون فيه الجدب والقحط . فنوهوا إلى العام الجاحد عام الجدب والقحط (٦) . والعام الجديب يذهب فيه المال ويشيع الجدب والفقر (٧) . ويستطال العام زمان الشدة والمحل (٨) . والسنة "الخَرْجَاء" وعام أخرج إذا كان فيه سواد وبياض من الجدب (٩) .

مما سبق نرى أن الشعراء الجاهليين ذكروا السنة في كثير من الأحيان كدليل على الجدب والقحط والفقر والشدائد والأزمات والمحن . وذكروا أيضا العام يكون فيه الجدب والشدائد . ولكن غلبت السنة على الجدب وغلب العام على الخصب والرخاء . و"كثيرا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء والخصب" (١٠) .

ونرى بعض الشعراء الجاهليين عمموا زمن الجدب في الدهر والأزمان ، وكل الوقت على

---

(١) ينظر شاعرات العرب ، ص٤٨ .
(٢) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص٦٥ .
(٣) ينظر ديوان الحماسة ، ٢٤٩/٢ .
(٤) ينظر لسان العرب مادة "جحف" .
(٥) ينظر ديوان ذي الأصبع العدواني ، ص٨٩ .
(٦) ينظر شرح ديوان أمية ، ص٣٧ .
(٧) ينظر المفضليات ، ص١٠٥ .
(٨) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص١٠٠ .
(٩) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٤١ .
(١٠) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٤٣٨/٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإطلاق . فالزمان الكالح الشبم ، الذي لا يهب غير البرد والجوع (١) . ولزبات الدهر السوء عند القحط والجدب وذهاب الأموال ، وانتشار الفقر (٢) .

ولذلك نرى الجاهليين يتمدحون ويتفاخرون بالكرم والاطعام والجود ومساعدة الضعفاء وإغاثة الفقراء والمحتاجين في هذه السنين والأعوام ، عند كل لزبة أو شدة تصيبهم (٣) ، ويستحب الإكرام "في العام المسنت" (٤) .

ففي سنة الأزمة تشتبه على الناس ، شديدة القحط ، والتي ترى فيها وكأن الناس راحوا يمضغون االشجر الشائك ، فتسمع من تحت أسنانهم مثل الصّرير ، كما يقول أُميّة بن أبي الصّلت :

سَنَةٌ أَزْمَةٌ تُخَيِّلُ بالنّا س تَرى لِلعضَاه فيها صَرِيرا (٥)

في مثل هذه السنة يتفاخرون بأنهم سمحاء أجواد كرماء ، على المرملين والفقراء والضيوف ، ويجودون في لزبات السنين وعند هبوب ريح الشمال (٦) .

ويقول أبو دُواد الإيادي :

وَسَمَاحٌ لَدَى السِّنِينَ إذا ما قَحَطَ القَطْرُ واسْتَقَلَّ الرِّهَامُ (٧)

فالسنة الشديدة المحل من أقوى الأسباب للفقر . وقد عقد الثعالبي في كتابه "فقه اللغة وأسرار العربية" فصلا في تفصيل أوصاف السنة الشديدة المحل ، إذ يقول : "إذا احتبس القطر في السنة فهي سنة قَاحِطة وكَاحِطة . فإذا ساء أثرها فهي محل وكحل . فإذا أتت على الزرع والضرع فهي قَاشُورة ولاحِسة وحَالِقَة وَحِرَاق . فإذا أتلفت الأموال فهي مُجْحِفة ومُطْبِقَة وَجَدَاع وحصَّاء شُبِّهت بالمرأة التي لاشعر لها . فإذا أكلت النفوس فهي الضَّبُع " (٨) .

---

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص٤١٣ .

(٢) ينظر المفضليات ، ص٢٧٧ .

(٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٤١ . وديوان الخنساء ، ص١١ .

(٤) البخلاء للجاحظ ، ص٢٣٠ .

(٥) شرح ديوانه ، ص٤٤ .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ، ١٢٢/٣ .

(٧) الأصمعيات ، ص٢١٦ . استقل : ارتحل . الرِّهام : الأمطار الضعيفة الواحدة رهمة ، أراد القحط وامتناع المطر .

(٨) ص٤٣ . وينظر أيضا في مثل هذه المعاني "تهذيب الألفاظ" لإبن السكيت ، ص٢٦-٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- الفقر وفصول السنة :

السنة عند العرب اسم لاثني عشر شهرا (١) . وفصول السنة أربعة . وهي الشتاء والربيع والصيف والخريف (٢) . وبعضهم يبدأ بالصيف فالخريف فالشتاء فالربيع (٣) . وبعضهم ابتدأ بفصل الخريف (٤) .

والعرب "تذهب في تحديد أوقاتها إلى ما تعرف في أوطانها من إقبال الحر والبرد ، أو إدبارهما ؛ وطلوع النبات واكتهاله ، وهيج الكلأ ويبسه . وتذهب في عدد الأزمنة إلى الإبتداء بفصل الخريف ، وتسميه الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه . ثم يكون بعده فصل الشتاء . ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ؛ وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وتأتي فيه الأنوار . وإنما سموه صيفا لأن المياه عندهم تقل فيه . والكلأ يهيج . وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني . ثم يكون بعد فصل الصيف ، فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف" (٥) .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب الصيف ، ويستأثر بالنصيب الأكبر من السنة لامتداد حره ، ثم الشتاء (٦) . لذلك نجد من يقسم السنة ستة أشهر وستة أشهر (٧) ، "فبعض العرب يقسمون السنة نصفين : شتاء وصيفا . ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى ، لأن النبات يكون فيه . ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله والربيع آخره ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله والقيظ آخره" (٨) .

وفي فصل الربيع يكون السمن ، والندى ... (٩) . ويسمون شهري القيظ اللذين يخلص فيهما حره ، شهري ناجر ، وسميا بذلك لأن الإبل تشرب ، فلا تكاد تروى لشدة الحر (١٠) .

---

(١) لسان العرب مادة "شتا" .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٤٣٩/٨ .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، ٢١٧/٢ .

(٤) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص١٠٤ .

(٥) السابق ، ونفس الصفحة .

(٦) المفصل في تاريخ العرب ، جواد علي ، ٤٣٩/٨ .

(٧) لسان العرب "شتا" .

(٨) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص١٠٤ .

(٩) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص١٠٨ .

(١٠) السابق ، ص١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذان الشهران هما بيضة القيظ (١) . ويسمون شهري الشتاء الخالص شهري قُماح . وسميا بذلك لأن الإبل ترفع فيهما رؤوسها عند الماء لشدة برده (٢) . ويدعون هذين الشهرين ملحان ، وشيبان ، لبياض الأرض بالجليد والصقيع فهذان شهرا الشتاء (٣) . وفصل الشتاء والذي يطلق عليه أحيانا "جمادى" لجمود الماء فيه ، قد يكون ستة أشهر (٤) كما سبق وذكرنا .

وفي العصر الجاهلي كان فصل الشتاء ـ في أغلب السنين ـ هو فصل الجوع والفقر والشدة خصوصا في شهري قماح ، وأظنهما كانون الأول وكانون الثاني . إذ في هذين الشهرين يحب الزاد . ويتمدح بمن يكون سمحا جوادا فيهما . يقول مالك بن خالد الخُناعيّ الهُذلي في مدح زهير ابن الأَغَرّ :

فَتَىً ما ابْنُ الأَغَرِّ إذا شَتَوْنَا وَحُبَّ الزَّادُ في شَهْرَيْ قُماحِ (٥)

وجاء في لسان العرب في الشتاء : "وشتا القوم يشتون : أجدبوا في الشتاء خاصة . والعرب تسمي القحط شتاء ، لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد . وقال الحطيئة وجعل الشتاء قحطا :

إذا نَزَلَ الشِّتَاءُ بدارِ قَوْمٍ تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ

أراد بالشتاء المجاعة . والعرب تجعل الشتاء مجاعة لأن الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للانتجاع . ويقال أشتى القوم فهم مشتون إذا أصابتهم مجاعة" (٦) .

ويكثر في الشتاء الجوع والأرامل (٧) لما يحصل في هذا الفصل من القحط والجدب . يقول حسان بن ثابت :

وَأَنَا مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ إذا أَزِمَ الشِّتَاءُ مَحَالِفَ الجَدْبِ

---

(١) السابق ، ص١٠٧ .

(٢) السابق ، ص١٠٥ .

(٣) السابق ، ص١٠٦ .

(٤) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص٨٦ ، من معلقة لبيد .

(٥) ديوان الهذليين ، ٣/٥ . والأنواء ، ص١٠٥ . وشهرا قماح : كانون الأول وكانون الثاني ، وهما أشد الشتاء بردا (لسان العرب – مادة قمح) .

(٦) لسان العرب "شتا" .

(٧) ينظر ديوان الأفوه الأودي ، ص١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَعْطى ذَوُو الأَموالِ مُعْسِرَهُمْ والضَّارِبين بِمَوْطِنِ الرَّغْبِ (١)

وفي فصل الشتاء تهب الرياح الشامية المشؤومة ، فيشتد البرد خصوصا إذا صادفت هذه الرياح ليلة مقمرة خالية من الغيوم (٢) . وقد تخلف النجوم عن أنوائها في هذا الفصل فتمحل ولا تمطر (٣) . لأن العرب كانت تنسب المطر إلى نوء النجم ، فتجعل نوء النجم علما للمطر ووقتا له ، كما يجعلون الشتاء للبرد وقتا ، والقيظ للحر وقتا (٤) . ومنهم من كان يجعل الفعل للكوكب فيكون عنده هو الذي أنشأ السحاب ، وأتى بالمطر وهذا من أمور الجاهلية (٥) . "وتقول الأعراب : "مطرنا بنوء النجم الفلاني" ، ينسبون المطر للنجوم وأنوائها . والأنواء جمع نوء ، وهو وقت طلوع نجم من المشرق وانحدار نظيره من المغرب . ويقولون إذا احتبست الأمطار "حقبت الأنواء" (٦) .

ويشتد الجدب في فصل الشتاء ، ويقل المطر ، وينتشر البرد والصقيع والجمود ، ومن شدة البرد يدخل الكلب في جحره (٧) .

ويقل الرزق ويضيق في فصل الشتاء (٨) . ويكثر الفقراء والمحتاجون والسائلون والعفاة (٩) . وينتشر الجوع (١٠) . وتهزل النساء عند اشتداد القحط في الشتاء (١١) .

---

(١) شرح ديوانه ، ص٨٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص١٦٦ .

(٣) ينظر ديوان الأسود ، ص٦٨ . والمفضليات ، ص٢٢٠ .

(٤) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص١٣ .

(٥) السابق ، ص١٤ .

(٦) وصف المطر والسحاب .. لابن دريد الأزدي ، ص٣٦-٣٧ .

(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٩٩ . وديوان الأسود ، ص٦٨ . وديوان شعر الحادرة ، ص٣٤٠-٣٤١ . وديوان الحماسة ، ٢/٢٥٦ . والمفضليات ، ص٢٢٠ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٩٥ .

(٩) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٣٢٢ . وديوان عروة ص٦٤ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٩٥،١٩٩ . وديوان حاتم ، ص٩٨ .

(١١) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٢٥ . وديوان بشر ، ص٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك نجد الافتخار بالصبر على الجوع والفقر في هذا الفصل العصيب (١) . ويفتخرون كذلك بإطعام الجائع (٢) ، وبنحر النوق وإطعام الضيف حين جمود الماء وانتشار الصقيع أو الجليد ، وبمساعدة الفقراء والمحتاجين وطلاب الحاجات ، واهلاك المال ، وحماية الجار (٣) .

ويفتخر العرب بتقديم الجفان المملوءة بالإبل العظام الأسنمة للضيف والفقير والمدفع واليتيم (٤) . ويتفاخرون بالإطعام إذا هبت رياح الشتاء الباردة واشتد ظلام الليل في مستهل الشهور عند القحط والجدب (٥) .

ففي فخرهم بالجود في المحل ، يقول أبو ذؤيب الهذلي :

لَنَا صِرَمٌ يُنْحَرْنَ في كُلِّ شَتْوَةٍ إذا مَا سَمَاءُ النَّاس قَلَّ قِطَارُها (٦)

وتمدّح العرب في العصر الجاهلي – كذلك – بالإطعام والكرم والجود إذا ما الكلب أحجره الشتاء (٧) ؛ وبالميسر للأضياف والجوعى عند شدة البرد وكلب الشتاء ، وعندما تطلع الثريا عشاءَ (٨) ، وإذا ما دنا الناس بعضهم من بعض ، واقتربت البيوت من بعضها قبيل الربيع (٩) . ويتمدحون بالميسر في الشتاء البارد حين تهب رياح الشمال الباردة (١٠) ، وبمن يحفظ "الحي الجميع إذا شتوا" (١١) . فتراهم يهجون من يشبع في الشتاء وجيرانه

---

(١) ينظر ديوان عروة ، ص٦٤ .

(٢) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٩٥،٢٩٩ .

(٣) ينظر ديوان طرفة ، ص١٢١ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٣٦ . وديوان بشر ، ص١٧٦،٢٩٨،٣٢٢ . وشرح شعر زهير ، ص٢١٦ . وديوان السموأل ، ص٨٧ . وديوان الأعشى، ص١٢٥ . وديوان الحماسة ، ١٩٩/١ .

(٤) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص١٣٦ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص٤٢١ .

(٦) ديوان الهذليين ، ٢٧/١ .

(٧) ينظر الحماسة البصرية ، ٤٢٢/١،٤٢٩،٥٨٢ . وشرح ديوان أمية ، ص١٩ .

(٨) ينظر ديوان أوس ، ص٣٣ .

(٩) ينظر ديوان طرفة ، ص٩١ . وديوان عروة بن قميئة ، ص٢٠٣ .

(١٠) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص١٢٧ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٦٦ .

(١١) ينظر ديوان بشر ، ص٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبيتون جوعى (١) .

وفي شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، كان يحمد الجيران مشهد المرثي عند الشتاء ، ويأوي إليه الأرامل والضيوف والفقراء ، وكان المرثي يحامي عن الكبير الفقير في هذا الفصل (٢) .

وكان العرب يستحبون الكرم في أشهر بعينها ، مثلا في شهر شوال في قول أوس ابن حجر :

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ لِحَيٍّ مُفْرَدٍ صَقِعٍ مِنَ الأَعْدَاءِ فِي شَوَّالِ (٣)

وشهر جمادى فيه الجدب والبرد (٤) .

٤- الفقر والمطر

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بشكل عام ، والمطر يندر سقوطه ، ولذلك فإن أكثر أراضي الجزيرة العربية صحراوية . ومع ذلك فثمة أودية تسيل فيها المياه في موسم الأمطار ، وهي أودية شديدة الانحدار ، تصب في البحر الأحمر أو في بحر العرب . وتسقط الأمطار في الخريف والشتاء في الشمال ، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن . وإذا سقط المطر في البادية، فإنه يتسبب في إنبات عشب ، ينمو سريعا ثم يذوي سريعا ، فالحياة في البادية هي التي أملتْ على البدو الترحال والانتقال حيث موارد المياه والعشب (٥) .

وأشار ابن قتيبة إلى أمطار الفصول في بلاد العرب . فكل مطر الربيع عندهم يكون في الصيف (٦) . وبمطر القيظ حياء أهل اليمن ، لأنهم يمطرون في القيظ ، فيخصبون في الخريف. ويسمى مطر فصل القيظ "الحميم" ، وأما غير أهل اليمن فلا ينتفعون بالحميم . ويسمى مطر الصيف هذا أيضا "صَيِّفا" ويسمى "رَمْضِيّا" و "شَمسِيّا" (٧) .

---

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٩٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٢٠٨ . والأصمعيات ، ص٥٩،٦٢ . وديوان الهذليين ، ٢/٥٤،١٤١،١٤٩ .

(٣) ديوانه ، ص١٠٧ .

(٤) ينظر المفضليات ، ٢/٣٧١ .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيد عبد العزيز ، ص٧٥ .

(٦) الأنواء ، ص١١١ .

(٧) السابق ، ص١١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسمى مطر فصل الخريف "ربيعا" و "خريفا" . ويسمى "وسميا" لأنه يسم الأرض بالنبات . والمطر الذي بعد الوسمي يسمى "الولي" . ولا ينفع الوسمي إلا بالولي لأن أول الوسمي يقع وللحر سلطان، فيجعل النبات ، وإن لم يأت الولي ، جف (١) .

وقالوا : وبمطر الصيف يعنون الربيع أشد وابلا وأشد سيلا .. وأقل دواما . ومطر الوسمي أقل وألين .. وأروى ، وهو خصب أهل الحجاز وأهل البادية . فأما أهل العراق فيمطرون الشتاء كله ، ويخصبون في الصيف (٢) .

ويسمى مطر الشتاء ربيعا ، ويهل فصل الشتاء في تشرين الآخر ؛ والعرب تسمي المطر ربيعا في أي وقت سقط ، حتى الحميم ، وهو مطر القيظ (٣) . كما تسمي الخريف ربيعا لوقوع أول المطر فيه (٤) .

واهتم العرب بتمييز أنواع السحب (٥) الممطرة . وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر ، وكثر حديثهم فيه (٦) . وسموا السحابة التي يرجى منها المطر "الخلقة" ، والسحابة التي يدوم مطرها بالسحابة "الداجنة" (٧) و"الديمة" السحاب يدوم مطره (٨) والديمة مطر يبقى أياما لا يقلع (٩) .

والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب ، حيث الرياح الموسمية صيفا وفي الشمال الغربي أمطار شتوية . وكثيرا ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز . ووصف

---

(١) السابق ، ص١١٥-١١٦ .

(٢) السابق ، ص١١٦ .

(٣) الأنواء ، ص١١٨ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص١٣٥ .

(٥) ينظر في أحاديث العرب وأقوالهم في السحب كتاب "وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع" ، للإمام ابن دريد الأزدي ، ص٦،٩،٤٩ .

(٦) ينظر في ذلك المصدر السابق ، ص١٤،٢٨،٤٣،٥٦،٧٦ .

(٧) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص٧٨ .

(٨) ينظر ديوان طرفة ، ص١١٩ .

(٩) وصف المطر والسحاب ، ابن دريد ، ص١٦،٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

امرؤ القيس في معلقته (١) سيلا جارفا حدث بالقرب من تيماء في بني أسد (٢) . كما وصف تأبط شرا سيول الصيف الجارفة (٣) . وتقل الأمطار أيضا في الداخل فسموها غيثا وحيا ، وهي عزيزة يتمناها الناس (٤) .

وإذا احتبست الأمطار جفت الأرض ، وأجدبت ، وحل الهلاك والفناء على القطعان والرعاء . ولطول ما يحدث لهم من ذلك سموا الجدب سنة . لذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العشب والكلأ (٥) .

وأطلق العرب على السنوات التي لا تنزل فيها مطر بالسنين البيض ، وأحيانا يسمونها السنوات الشهباء (٦) .

وتكون السماء في سنوات الجدب "غير حَلْبَة" (٧) كبيت العنكبوت . ويقحط القطر وينعدم . ويكون الصُّرَّاد أو "صُرّاد غَيْم" (٨) غيم فيه البرد ولا ماء فيه . وتكون السحب رقيقة غير ماطرة (٩) .

وثمة تشبيه من لا خير فيه من الناس بالسحاب يعجب الناس صوت رعدها ، ولكن لا خير فيها ، تأتي الريح بالحصباء ، وتقطع أطناب البيوت "وأكذب شيء برقُها ورعودُها" . يقول قُرَادُ ابنُ خَنَسٍ الصَّادِرِيّ يهجو قوما :

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ رِزُّها ... بِأَبْدَةٍ تُنْحِي شَدِيدٍ وَئِيدُها

---

(١) في شرح المعلقات ، ص٣٥ ، وديوانه ، ص٦٢-٦٣ .

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٢٠ .

(٣) في الأصمعيات ، ص١٣٥ .

(٤) "الجاهلية ، مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي" ، يحيى الجبوري ، ص١٩ . وفي هامش الصفحة يقول : وأسموها جودا وحيا لما في ذلك من معنى العون والنصرة والخير والكرم والحياة .

(٥) العصر الجاهلي ، شوقي حبيب ، ص٢١ .

(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيد عبد العزيز ، ص٧٨ .

(٧) ديوان حاتم الطائي ، ص٩٣ .

(٨) ديوان طرفة ، ص٩٨ . وديوان الهذليين ، ١٣٩/١ .

(٩) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تُقَطِّعُ أَطْنَابَ البُيُوتِ بِحَاصِبٍ وَأَكْذَبُ شَيءٍ بَرْقُهَا وَرُعُودُهَا (١)

وأراد بالسماء السحاب . والعرب أيضا "تسمي المطر في الأرض السماء" (٢) .

وإذا فقد المطر تمحل الأرض ، ويعم البلاء . وتفنى الماشية ، ويصبح "الغني فقيرا ، والمترف معدما" (٣) . وقد شبه أبو ذؤيب الهذلي حاجة الصديق والتجاءه للقوم لما هلكوا كفقد البلاد المطر إذا ما تمحل ؛ يقول :

كانُوا مَلاوِثَ فاحْتَاجَ الصَّدِيقُ لَهُمْ فَقْدَ البِلَادِ -إذا ما تُمْحِلُ- المَطَرا (٤)

ولأهمية المطر عند العرب في العصر الجاهلي نرى الشعراء يدعون للبلاد بالسقيا بالأمطار المعتدلة التي تروي النباتات والمزروعات ، ويستفيد منها الناس في شربهم وسقي حيواناتهم . وكانوا يحترسون من الأمطار الجارفة عند دعوتهم للبلاد بالسقيا ، لأنه – أحيانا – تتعرض البلاد للأخطار والانجرافات بفعل الأمطار الغزيرة والسيول التي تطيح بالزروع والمنازل والدور . وتحدث البلاذري عن سيول مكة ، وخصص لها فصلا في كتابه فتوح البلدان (٥) .

ويقول طرفة بن العبد في مدح قتادة بن مسلمة الحنفي المُلَقَّب بغَيْثِ الضَّرِيك ، يدعو لبلاده بالسقيا ، محترسا من أن تفسدها كثرة الأمطار :

فَسَقَى بِلادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبَ الغَمَامِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي (٦)

وإذا ما اصفرت مياه الآبار عند قلتها وطول مدة بقائها يتفاءل الشعراء بالمطر الذي سيصيبهم وسوامهم ، كما يشير طرفة إلى ذلك بقوله :

إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنْ سَيُدْرِكُنَا غَيْثٌ يُصِيبُ سَوَامَنَا مَطَرُهْ (٧)

---

(١) ديوان الحماسة ، ١٧٥/٢ . رزها أي صوت رعدها . الآبدة الداهية . تنحي تعتمد . الوئيد : الصوت العالي . والشاعر في البيت الذي يلي هذين البيتين يشير إلى انهزامهم عند ملاقاة الأعداء .

(٢) وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد الأزدي ، ص٦٠ .

(٣) السابق ، ص٢٢ .

(٤) ديوان الهذليين ، ٤٤/١ .

(٥) ينظر ٧١/١ وما بعدها .

(٦) ديوان طرفة ، ص١١٩ . صوب الغمام أي المطر . الديمة : السحاب يدوم مطره .

(٧) ديوانه ، ص٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأن بالمطر تخصب الأرض (١) بعد جدب وإمحال (٢) ، وتخضر الأرض اليابسة إذا ما جاء السحاب وانهل مطره (٣) . وبالمطر تمرع الحدائق (٤) .

ولحب العرب للمطر ، وتفاؤلهم به ، نجد من يشبه صفاء الحسب بصفاء ماء المزن (٥) ، وتشبيه الجود بماء المطر أيضا (٦) .

وقد تفاخر العرب في العصر الجاهلي بالإطعام والكرم إذا "قحط القطر وهبت بشمأل وضريب" (٧) وإذا انعدمت الغيوم في السماء وجفت ضروع النوق (٨) . ويتمدحون في شعر الرثاء كذلك بإيواء اليتامى الممحلين "وقد قحط القطر" (٩) .

وكما يقول أمية بن أبي الصلت في الرثاء :

وَهُمُ المُطْعِمُونَ إِذْ أَقْحَطَ القَطْ ... رُ وَحَالَتْ فَلَا تَرى قَزَعَهْ (١٠)

ويستحب الكرم عند قلة الغيم في السماء ، وقلة الأمطار . كما يفتخر طرفة بن العبد بقومه :

وَإِنَّا إِذا مَا الغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ ... سَمَاحِيقُ ثَرْبٍ وهيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ

وَجَاءَتْ بِصُرَّادٍ كَأَنَّ صَقِيعَهُ ... خِلالَ البُيُوتِ والمنازِلِ كُرْسُفُ

وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا ... إِلى الدِّفءِ والرَّاعِي لَهَا مُتَحَرِّفُ

---

(١) ينظر ديوان بشر ، ص٢٢٠ . وديوان أوس ، ص١٧ . وديوان امرئ القيس ، ص١٤٣ .

(٢) ينظر وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد ، ص٢١،٧٥ .

(٣) ينظر ديوان عبيد ، ص٨١ .

(٤) ينظر السابق ، ص٥٣-٥٤ .

(٥) ينظر ديوان السموأل ، ص٩١ .

(٦) ينظر الحماسة البصرية ، ٤٤٨/١ .

(٧) ديوان الأعشى ، ص٣٨٥ . الضريب : الثلج والصقيع .

(٨) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص١٧٥ .

(٩) شاعرات العرب ، ص٦٨ .

(١٠) شرح ديوانه ، ص٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَـرُدُّ العِشَارَ المُنْقِيَاتِ شَظِيَّهَا إلى الحيِّ حتَّى يُمْـرِعَ المُتَصَيِّفُ (١)

٥- الفقر والرياح

أشار القدماء إلى الرياح ، وخصوا بالذكر أربعة : الشمال والجنوب والصبا والدبور (٢) . ويقول المسعودي في الرياح الأربعة : "إحداها تهب من جهة المشرق ، وهي القبول ، والثانية تهب من المغرب وهي الدبور ، والثالثة من التيمن ، وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهي الشمال" (٣) .

ويقول ابن قتيبة في هذه الرياح الأربع بأنها أمهات الرياح ، وهي معاظمها . فالشمأل تأتي من ناحية القطب الأعلى . والجنوب تأتي من ناحية القطب الأسفل . والصبا تأتي من وسط المشرقين . والدّبور تأتي من وسط المغربين . وما هب بين حدين من هذه الحدود فهي نكباء . قال الأصمعي : الشمأل تأتي من قبل الحجر ، والجنوب تقابلها ، والصبا تأتي من تلقاء الكعبة ، يريد أنها تستقبلها إذا هبت ، ويقال لها أيضا القبول . والدبور تأتي من دبر الكعبة . وكل ريح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي "نكباء" .

والعرب تسمي الشمأل شامية ، لأنها تأتي من ناحية الشام . والجنوب يمانية ، لأنها تأتي من اليمن (٤) .

وأشار ابن قتيبة – كذلك – إلى "ريحين حارتين" : "هيفان" ، وهي الجنوب والدبور (٥) . وأشار إلى "الرياح البوارح" وهي شمال حارة في الصيف وذات عجاج (٦) .

---

(١) ديوانه ، ص٩٨ . سماحيق : القطع الرقاق من الغيم . ثرب : شحم رقيق . الحرجف : الشديدة . صراد : سحاب لا ماء فيه . صقيعه : ما يسقط بالليل كأنه الثلج . كرسف : قطن . قريع الشول : فحل الإبل . يرقص : يسرع إلى الدفء . المتحرف : المائل من شدة البرد . وأراد أنه ترك إبله ومال عنها إلى ناحية يتقي فيها البرد . العشار : الواحدة عشراء : الناقة مر على حملها عشرة أشهر . المنقيات : السمينة . شظيها : عظم ساقها . يمرع : يخصب . المتصيف : الصيف .

(٢) "كتاب التيجان في ملوك حمير" ، وهب بن منبه ، ص٣١٥ .

(٣) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ، ٢٢١/٢ .

(٤) الأنواء في مواسم العرب ، ص١٥٣-١٥٩ .

(٥) السابق ، ص١٦٠ .

(٦) السابق ، ص١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- رياح الجنوب

رياح الجنوب مهبها من جنوب الجزيرة العربية . وهي تأتي بالأمطار وتجلب الغيث . وهي ألقح الرياح ، تأتي بالأمطار والغيث غالبا . وإذا ما هبت الجنوب جاء معها خير ونماء . والعرب سموا الجنوب لاقحا لأنها تلقح السحاب . وهي تثير البحر حتى تسوده ، وتظهر كل ندى كامن في بطن الأرض . وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشئ السحاب ، وتستدره ، وتصف بواقي الرياح بقلة المطر والهبوب في سني الجدب . لذلك يتيمن العرب بالجنوب وهي عندهم مثل للخير (١) .

ودعا الشعراء للبلاد بالسقيا من سحاب يجيء من مهب الجنوب ، أو من جهة اليمن . وهذا علقمة الفحل يدعو لليلى بالسقيا في قوله :

سَقَاكِ يَمَان ذُو حَبِيٍّ وَعَارِضٍ تَرُوحُ بِهِ جُنْحَ العَشِيِّ جَنُوبُ (٢)

ب- ريح الصبا :

وريح الصبا تهب من المشرق إلى المغرب ، وتسمى رياح القبول ، وهي طيبة مقبولة ، والنفس تصبو إليها . وأكثر هبوبها على إقليم نجد (٣) . وتهب في الشتاء الجديب (٤) . وكان لبيد بن ربيعة وأبوه إذا هبت ريح الصبا أطعموا الناس ؛ لأن الصبا لا تهب إلا في جدب . تقول بنت لبيد من ذلك :

---

(١) ينظر : الأنواء لابن قتيبة ، ص١٦١،١٦٣،١٦٤،١٦٧ . ووصف المطر والسحاب .. ، لابن دريد الأزدي ، ص٣٨ . والأصمعيات ، ص٩٩ . ومن الشعر الجاهلي ينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص٥٣- ،٨٤-، ٩٧ . وديوان أمية ، ص٤٥ . وديوان عدي ، ص٨٦ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص٩٦ . وشرح ديوان لبيد ، ص١١٢ . وشرح المعلقات السبع ، ص٨٥ .

(٢) ديوانه ، ص٣٤ . عارض : سحاب معترض في الأفق متراكب ، يمان أي سحاب من جهة اليمن . الحبي : القريب من الأرض من السحاب ويكون متصلا بعضه ببعض ، فيكون بطيء السير غزير المطر .

(٣) ينظر العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٢٠ . وتاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز ، ص٧٦ .

(٤) "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي" ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبي عَقِيل ذَكَرْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الوَلِيدَا (١)

والصبا تفعل ما تفعل الجنوب ، يأتي معها القطر والمطر إذا لم تكن باردة . ونجد الصبا تقترن – أحيانا – عند بعض الشعراء الجاهليين بريح الجنوب ، لأن هبوب كلا الريحين غالبا يأتي بالمطر (٢) .

فريح الصبا لطيفة تجلي الهموم عن قلب المحزون كما تقول أسماء المُزَيّة :

فَإنَّ الصَّبا رِيحَ إذا مَا تَنَفَّسَتْ عَلى قَلْبِ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُها (٣)

ويقول عنترة العبسي :

إذا رِيحُ الصَّبا هبَّت أَصِيلا شَفَتْ بِهُبوبِهَا قَلْبًا عَلِيلا (٤)

وريح الصبا طيبة النسيم لا يكون منها ضرر ، غير باردة غالبا ، تأتي بالمطر الذي يجعل في الأرض وحلا قليلا ومطرا يسيل السيل . يقول طرفة بن العبد في هجاء زوج أخته خرنق بأنه جواد على الأباعد كريح الصبا التي ينشأ عنها كل خير وعلى الأقارب كريح الشمال الباردة المشؤومة ، يقول في المعنى الأول :

وَأَنْتَ عَلى الأَقْصَى صَبًا غيرُ قَرّةٍ تَذَاعَبُ مِنْهَا مُرْزِغٌ وَمُسِيلُ (٥)

جـ- رياح الدبور :

ورياح الدبور تهب من المغرب ، وتقابل الصبا . "والدبور [عند العرب] في الشتاء والصيف ، وهي إحدى الهيفين إلا أنها قليلة الهبوب وهي هيف تيبس الأرض (٦) . وتهب في

---

(١) بلوغ الأرب ، في معرفة أحوال العرب ، للألوسي ، ٩٢/١ . . وكان لبيد بن ربيعة حلف ألا تهب الصبا إلا أطعم ، ينظر ديوانه ، ص٣٥٧ . وقريش كانت (تطعم الصبا) ما هبت ، ينظر المحبر ، ص٢٤١ .

(٢) ينظر الأنواء ، لابن قتيبة ، ص١٦٤ . وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد الأزدي ، ص٢٨ . وينظر شعر جاهلي في ذلك ديوان عنترة ، ص٢١ . وديوان طرفة ، ص١٠٤ . وديوان امرئ القيس ، ص١٠٦ .

(٣) شاعرات العرب ، ص٦٢ .

(٤) ديوانه ، ص١٣١ .

(٥) ديوانه ، ص١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ٢٨١/٢ . تذاعب : جاء من كل وجه . مرزغ : مطر يرزغ الأرض أي يجعل فيها وحلا قليلا والاسم الرزغة .

(٦) الأنواء ، لابن قتيبة ، ص١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشتاء الجديب (١) . وهي ريح شديدة ، تكدر الماء . وشبه أحد الشعراء درعا في صفائها مثل ماء الغدير التي تصفقه رياح الدبور فتكدره (٢) . وشبه شاعر آخر رياح الشمال والدبور بالرماد ، وهذا من التشبيهات البعيدة (٣) . وكأن الشعراء الجاهليين كانوا يتشاءمون من ريح الدبور ، فاقترن ذكرها أحيانا بالحروب (٤) . وكأن الدبور تذهب بالسحاب ، يقول بشر بن أبي خازم :

فَقَدْ تَرَكَ الأَسِنَّةَ كُلَّ وُدٍّ سَحَابَاتٍ ذَهَبْنَ مَعَ الدَّبُورِ (٥)

د- النكباء :

الريح النكباء كل ريح من الرياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين ، وإذا كثرت النكباوات واشتد هبوبها ، انحبس القطر ، وكان الجدب ، وهلك المال (٦) . "وتحرق العود من النكباء التي بين الدبور والجنوب التي تجيء من مغيب سهيل" (٧) .

ونجد من يتشاءم من ريح النكباء ؛ فقد ذكر أحد الشعراء هذه الريح عند رثاء قومه الذين اقتتلوا داخل حديقة وأغلقوا بابها عليهم حتى تفانوا (٨) .

لذلك نرى التمدح والتفاخر بالكرم والإطعام عند هبوبها وريح الشمال (٩) . وهم يشبعون القوم إذا هبت النكباء المغبرة وهبت بصراد (١٠) .

ويقول حاتم الطائي :

---

(١) الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٢٦ .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص١٨، ٢٧٠ . والمفضليات ، ص٣٨٦ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص٩٤ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص٩٥ . وديوان الأعشى ، ص٤٩ . وديوان الحماسة ، ٣١٣/١ .

(٥) ديوانه ، ص٩٥ .

(٦) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص١٣٦ . ديوان شعر المثقب العبدي ، ص١١٨ . ديوان الحماسة ، ٣٣٤/١ .

(٧) الأنواء ، لابن قتيبة ، ص١٦٢ .

(٨) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٣٤/١ .

(٩) ينظر ديوان شعر المثقب العبدي ، ص١١٩ .

(١٠) ينظر ديوان الخنساء ، ص٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَإِنِّي لَأُغْشِي أَبْعَدَ الحَيِّ جَفْنَتِي إِذا حَرَّكَ الأَطْنَابَ نَكْبَاءُ حَرْجَفُ (١)

وتهب أحيانا مع ريح الشمال ، فيشيع الجدب ، ويتفاخر الشعراء بأقوامهم ساعتها بالكرم والجود . ويقول عمرو بن قميئة مخاطبا سليمى :

بِوُدِّكِ ما قَوْمي عَلى أَنْ تَرَكْتِهم سُلَيْمَى إِذا هَبَّتْ شَمَالٌ وريحُها (٢)

هـ- رياح السموم :

تهب رياح السموم صيفا في الجزيرة العربية خصوصا في نجد ، وغالبا ما يقترن الجفاف والقحط برياح السموم . فمناخ الجزيرة حار مفرط الحرارة ليلا ونهارا وخاصة في الصيف (٣).

فإذا ما انقضى الشتاء وجاء الربيع ثم الصيف تهب من ريح المصايف السموم ، تحتاج عندها الدواب إلى ورود الماء ، وكان حمار الوحش وأتانه مثلا ، إذا ما تحركت ريح الصيف وجاءت بالحر الشديد ، احتاجا لورود الماء (٤) . والطلل والمنازل قد عفتها "رياح من مشات وأصياف" (٥) .

ويكون الحر في الصيف شديدا محرقا يغير لون الجلد إلى السواد خصوصا إذا ما طلعت "الجوزاء" وكان الجو مسموما شديد الحر كأنه النار الحامية طوال اليوم ، يصل الحر من شدته ويتجاوز الثياب والعمامة إلى البدن . يقول علقمة الفحل مفتخرا بتحمله الصعاب في الرحلة :

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ تَجِيءُ بِهِ الجَوْزَاءُ مَسْمُومُ

حَامٍ كَأَنَّ أُوَارَ النَّارِ شَامِلُهُ دُونَ الثِّيَابِ وَرَأْسُ المَرْءِ مَعْمُومُ (٦)

---

(١) ديوانه ، ص١٠١ . والحماسة الشججرية ، ٥٣/١ .

(٢) ديوانه ، ص٢٣ . ما زائدة . أي بحق المودة التي بيني وبينك أي شيء قومي في الكرم والجود عند هبوب الشمال والنكباء ...

(٣) ينظر تاريخ العرب ، فيليب حتي ، ١٩/١ . العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٢٠ . مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، ص٣١ .

(٤) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص٨٦ .

(٥) ديوان عمرو بن قميئة ، ص٧٠ .

(٦) ديوانه ، ص٧٣ . الجوزاء برج من بروج السماء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَأْوَى الضَّرِيكِ إِذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مُخْلِفٍ مِتْلافِ (١)

وهذا لبيد بن ربيعة في الفخر يشير إلى أن قومه يبذلون للفقراء والمساكين والجيران ، إذا تقابلت الرياح ، وذلك في كلب الشتاء ، واختلاف هبوب الرياح ، جفانا تحكي بكثرة مرقها أنهارا تشرع أيتام الشاكين فيها وقد كللت بكسور اللحم ، يقول لبيد من معلقته :

وَيُكَلِّلُونَ إِذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ خُلُجاً تَمُدُّ شَوَارِعاً أَيتامُها (٢)

ويقول السموأل بن عادياء مفتخرا بنفسه :

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ بِفَضْلِ مالي حَقَّه عِنْدَ الشِّتَاءِ وَهَبَّةِ الأَرْوَاحِ (٣)

وذكر الشعراء الجاهليون رياح الشتاء دون تسمية لهذه الرياح ، فنجد من يفتخر بإطعام الطعام عند القحط واغبرار آفاق السماء إذا ما هبت رياح الشتاء الباردة عاصفة هوجاء (٤) . وتمدح زهير بن أبي سلمى بكرم هرم بن سنان بن حارثة وإطعامه أهل الحي الجياع إذا ما هبت ريح الشتاء (٥) .

ز- الرياح الباردة :

وثمة رياح باردة كانت تهب في الجزيرة العربية ، وقد تكون أسماء رياح أو صفات للرياح الباردة . فريح الشمال تكون في العادة باردة خاصة في الشرق ، وفي كثير من الأحيان تتحول إلى صقيع (٦) .

والعرِّيَة الريح الباردة . وريح عريّ وعريّة : باردة . وخص الأزهري بها الشمال ، فقال شمال عرية باردة ، وليلة عرية باردة . ويقال ريح عرية إذا كانت السماء نقية من السحاب ، وهو أشد ما يكون من البرد (٧) . يقول طرفة بن العبد :

---

(١) ديوانه ، ص٢٣٧ .

(٢) شرح المعلقات السبع ، ص٩٨ . الخلج جمع خليج وهو نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من بحر ، والخلج : الجذب . تمد : تزاد . شرع في الماء : خاضه .

(٣) ديوانه ، ص٨٧ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص٤٢١ .

(٥) ينظر شرح شعر زهير ، ص٩٩.

(٦) ينظر العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ،ص٢٠ .

(٧) ينظر لسان العرب مادة "عرى" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَأَنْتَ عَلى الأَدْنَى شَمَالٌ عَرِيَّةٌ شَآمِيَّـةٌ تَـزْوِي الوُجُـوهَ بَلِيـلُ (١)

ويقول ربيعة بن مقروم :

وأَضيافِ لَيْلٍ في شَمَالٍ عَرِيَّةٍ قَـرَيْتُ مِنَ الكُومِ السَّدِيفِ المُرَعَّبَا (٢)

فكان يستحب الكرم والإطعام إذا هبت عرية من الريح في سنة الجدب فلم تترك لذي المال ما يرفد به الضيف . يقول عمرو بن قميئة مفتخرا :

وإنْ صَرَّحَتْ كَحْـلٌ وَهَبَّتْ عَرِيَّـةٌ مِنَ الرِّيحِ لَمْ تَتْرُكْ لِذي المالِ مِرفَدا

صَبَرْتُ عَلى وَطءِ المَوالي وَحَطْمِهِمْ إذا ضَـنَّ ذُو القُربَى عَلَيْهِمْ وَأَخْمَـدَا (٣)

ويقول المُسَيَّبُ بنُ عَلَس في المدح بالكرم والجود عند هبوب الريح الباردة :

وَإذا تَهِيـجُ الرِّيحَ مِـنْ صُرَّادِها تَلْجَأْ يُنِيـخُ النِّيبَ بِالجَعْجَاعِ

أَحْلَلْتَ بَيْتَكَ بالجَمِيعِ وَبَعْضُهُمْ مُتَفَـرِّقٌ لِيَحُـلَّ بِالأَوْزَاعِ (٤)

ويتمدحون ويتفاخرون بالكرم والإطعام إذا ما طرقت بليل ، وهي الريح الباردة ، وتوصف بها ريح الشمال – وإذا اللقاح روحت قبل مغيب الشمس من البرد ، إذا لم تف لبنها للضيف يفي لحمها (٥) . ويتفاخرون بقري الضيف إذا ما هبت الريح الصر الباردة (٦) .

ح- ريح الشمال :

وريح الشمال عادة تكون باردة ، تهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت بالشامية ، وكانت مكروهة لما

---

(١) ديوانه ، ص١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ١٨١/٢ .

(٢) المفضليات ، ص٣٧٦ . وفي الأصمعيات ، ص٢٦١ . السديف : شحم السنام . المرعب : المقطع .

(٣) ديوانه ، ص١٠ .

(٤) المفضليات ، ص٦٢-٦٣ . الصراد : ريح بارد يرش مطرا . ويأتي معنى الصراد السحاب الرقيق لا ماء فيه . النيب : مسان الإناث من الإبل وأحدها ناب . الجعجاع : موضع البروك . يريد أن الإبل من شدة البرد لا تبرح مباركها . وخص النيب لأنها أصبر على البرد . الأوزاع : المتفرقون . يقول : إذا كانت شدة الزمان نزلت في مجمع الناس في مجالسهم حيث يأتي السؤال والضيفان .

(٥) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص١٠٣-١٠٤ .

(٦) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصحبها من برد ، ولأنها تذهب بالغيم والخصب (١) .

ويطلق على ريح الشمال "الحدواء" لأنها تحدو السحاب أي تسوقه (٢) . ويسمونها "مَحْوَة" لأنها تمحو السحاب (٣) . ويسمونها "عقيما" لأنها عندهم لا تحمل معها المطر (٤) . والعرب تتشاءم من ريح الشمال ، ويجعلونها مثلا للشر (٥) . فالشمال تذم بأنها تقشع الغيم وتجيء بالبرد . وهي أدوم الرياح في الشتاء والصيف (٦) .

وتهب الرياح الشمالية في القر والبرد (٧) . وإذا ما هبت هذه الرياح في القر والبرد والقحط والجدب ، ترى ضجيع الفتاة يلتفع بكسائه دون ضجيعه من شدة البرد . وترى الكاعب الحسناء المنعمة صارت كالسبع ، تأكل أي طعام بعد أن كانت منعمة تعاف طيب الطعام . يقول بشر بن أبي خازم :

وَهَبَّتِ الشَّمَالُ البَلِيلُ وَقَدْ ... أَضْحَى كَمِيعُ الفَتَاةِ مُلْتَفِعًا

عَامَ تَرى الكَاعِبُ المُنَعَّمَةَ الـ ... ـحَسْنَاءَ في دَارِ أَهْلِهَا سَبُعًا (٨)

وثمة من يفتخر بقومه بأنهم ينزلون بكل واد كثير الحطب ، ويطبخون ولا يبالون إن كان مجدوبا إذا ما هبت الرياح الشامية شديدة البرد ، يقول سلامة بن جندل :

كُنَّا نَحُلُّ إذا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ ... بِكُلِّ وَادٍ حَطِيبِ البَطْنِ مَجْدُوبِ (٩)

ورياح الشمال تسبب الجدب في الشتاء ، فتبعد المطر ، فهي تستخف السحاب وتحوله إلى مكان آخر (١٠) .

وقد يذكر بعض الشعراء الشامية الخريق الباردة الشديدة الهبوب في الحروب . فشبه بعضهم النبل بين الخصوم بالجراد الذي تقلبه الشامية الخريق ، يقول المُفَضَّلُ النُّكْرِيّ في قصيدة له من المنصفات :

كَأَنَّ النَّبْلَ بينهمُ جَرَادٌ ... تُكَفِّيهِ شَامِيَّةٌ خَرِيقُ (١١)

---

(١) ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز ، ص٧٦ .

(٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) من كتاب الأنواء في مواسم العرب ، لابن قتيبة ، وهي على التوالي ص١٦١،١٦٥،١٦٣،١٦٧،١٦٢ .

(٨) ديوانه ، ص١٢٥ . والبيتان من قصيدة لأوس بن حجر في ديوانه ، ص٥٤،٥٥ .

(٩) ديوانه ، ص١١٩ . وفي المفضليات ، ص١٢٤ .

(١٠) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٣٣ .

(١١) الأصمعيات ، ص٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشبه أحدهم زحفه مع الجماعة في الغزو ، حيث الغبار لكثرة الخيل في المعركة ، بريح الشمال تلف السحاب (١) .

فكانت ريح الشمال عند الجاهليين مكروهة . فنجد من الشعراء من يستعير الشمال العربية الشامية لشخص يهجوه ويعيره بأنه على أقاربه في الأذى كهذه الريح الباردة التي تتغير منها الوجوه وتتقلص منها الشفاه . يقول طرفة بن العبد في هجاء صهره زوج أخته خرنق :

فَأَنْتَ عَلى الأَدْنَى شَمَالٌ عرِيَّةٌ شَآمِيَّةٌ تَزْوِي الوُجُوهَ بَلِيلُ (٢)

وريح الشمال التي عندما تهبّ يعتزّ الشعراء بأن أقوامهم يطعمون الفقراء ويملأون الجفان بالإبل السمان (٣) .

ونرى التفاخر بالإطعام والكرم ومنح المعتفين وطلاب الحاجات الإبل ، وإيثار الضعفاء على العيال إذا هبت رياح الشمال الباردة (٤) . يقول المرقش الأكبر يفتخر بقومه :

المُطْعِمُونَ إذا هَبَّتْ شَآمِيَّةٌ وَخَيْرُ نَادٍ رآه النّاسُ نَادِينا (٥)

ويقول سُوَيْدُ بن أبي كَاهل اليَشْكُري مفتخرا بقومه :

وَإذا هَبَّتْ شَمَالا أطعمُوا في قُدورٍ مُشْبَعَاتٍ لَمْ تُجَعْ

وَجِفَانٍ كَالجَوابِي مُلِئَتْ مِنْ سَمِينَاتِ الذَّرَى فِيها تَرَعْ (٦)

وفي المدح يقول الأعشى الكبير يمدح قيس بن معد يكرب وقومه :

وَهُمُ يُطْعِمُونَ إذْ قَحَطَ القَطْـ ـرُ وَهَبَّتْ بِشَمْأَلٍ وَضَرِيبِ (٧)

() ينظر ديوان بشر ، ص٢٨ .

(٢) ديوانه ، ص١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ١٨١/٢ .

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٧٠ .

(٤) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص٥٨-٥٩ . وديوان عنترة ، ص١٧٤ . وديوان سلامة ، ص٢٢٦ . وديوان حاتم ، ص٩٠ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٧ . وشرح المعلقات السبع ، ص٩٥ . المفضليات ، ص٣٧٦ . وديوان الحماسة ، ١٥٢/٢ .

(٥) المفضليات ، ص٤٣١ .

(٦) السابق ، ص١٩٤ . مشبعات : مملوءات . الجوابي : الحياض الكبار التي يجبى فيها الماء الواحدة الجابية . الذرى : جمع ذروة وذروة كل شيء : أعلاه ، أراد الأسنمة . الترع : الامتلاء .

(٧) ديوانه ، ص٣٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنعم وأكرم بالمرثي عند هبوب ريح الشمال الباردة (١) .

يقول بشر في رثاء أخيه سمير :

المُهِينُ الكُومَ الجِلَادَ إذا ما هَبَّت الرِّيحُ كُلَّ يَوْمٍ شَمَالِ (٢)

ويقول لبيد في أرجوزة له في رثاء عمه أبي البراء ملاعب الأسنة :

كانَ غِيَاثَ المُرْمِلِ المُمْتَاحِ
وَعِصْمَةً في الزَّمنِ الكَلاحِ
حِينَ تَهُبُّ شَمْأَلُ الرِّيَاحِ (٣)

فالجدب وتعاقب سنوات المحل وقلة المطر أو انعدامه وهبوب الرياح المشؤومة على الجزيرة العربية ، من أكبر أسباب الفقر .

-٢-

الأسباب الاجتماعية

١- البناء الاجتماعي للقبيلة :

إن القبيلة في المجتمع الجاهلي هي الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه . إذ كان الجاهليون يؤمنون بوحدة القبيلة وتماسكها ، ويؤمنون بالعصبية القبيلة إلى أبعد الحدود ، ويتحرون صفاء دماء أبنائها ، ولا يسمحون لأي شخص كان من القبيلة أو من غيرها أن يعبث بسمعتها وأعرافها وتقاليدها وبنائها .

وكانت القبيلة -في الغالب- تتكون من ثلاث طبقات اجتماعية : الصرحاء الذين تتمثل فيهم العصبية القبلية في أقوى معانيها . وكان هؤلاء يقيمون الأحلاف والجوار والولاء ، ويعقدون المعاهدات في السلم والحرب .

وطبقة الرقيق من الإماء والعبيد ، وهم كالخدم للصرحاء ، يجلبون بوسائل شتى ، من داخل

---

(١) ينظر ديوان بشر ، ص١٢٥ . شاعرات العرب ، ص٤٤ .

(٢) ديوانه ، ص١٧٤ .

(٣) شرح ديوانه ، ص٣٣٣-٣٣٤ . المرمل : الفقير المعدم . المحتاج : الذي يطلب رزقا . الكلاح : بالضم : السنة المجدبة . وبالفتح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرنـــه ، ممـا يكون عليـــه ومعه من ثياب وسلاح ودابـــة . والجمـــع أســـلاب . والإستـــلاب الإختـــلاس (١) .

لذا فثمة تشابه فـي معنـى المحروب والمسلوب . ويجمـع بينهمـا أنهمـا يصبحـان – بعد وقوع الحرب والسلب عليهما – فقراء لا شيء لهما . وترى أنهما أصبحا فـي هـذه الحـال بسبب عداء الآخرين لهما في الحروب أو الغارات أو غيرهما .

وقد يكون المحروب والمسلوب كلاهما من مخلفات الحروب والغارات والنزاعات فـي العصر الجاهلي . يشير إلى ذلك بشر بن أبي خازم مفتخرا بأيام قومـه وحروبهم ضد أعدائهم قائلا :

يَوْمَ اتَّقَتْنَا قُشَيْرٌ بالحَرِيشِ هَوى كِلا الفَرِيقَيْنِ مَحْرُوبٍ ومَسْلُوبِ (٢)

وتحدث الشعراء عن الأسـلاب والأنفال التـي يغتنمهـا المنتصـر مـن حروبـه وغاراتـه ، فيعود المنتصر الممدوح أو المفتخر به بأسلاب وأنفال وغنائم كثيرة (٣) .

ونجد كذلك وصفا للمحروب .. الذي سلب مالـه ولـم يبقِ لـه شـيء بعد الحـروب . يقول الأعشى في مدح الأسود بن المنذر اللخمي وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي قام بغارة فأصاب نعما وأسرى وسبايا فترك شيوخا حربـى أخرجـوا عمـا يملكـون فـأصبحوا فقراء وكانوا أغنياء قبل الإغارة عليهم ، وآخرين قد أصبحوا أغنياء بعد مـا كـانوا فقراء قبل غـارتهم وانتصـارهم ، يقول الأعشى من ذلك :

وَشُيُـوخٍ حَرْبَى بِشَطَّيْ أَرِيكٍ وَنِسَـــاءٍ كَأَنَّهُـــنَّ السَّعَالِـــي

وَشَرِيكَيْـنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَا لِ وَكَانَـا مُخَالِفَـيْ إِقْـــلَالِ (٤)

وفي الحروب والغارات يصبح الفقير غنيا والغني محروبا مسلوبا مالُه ، دارُه دار فقير . يقول سلامة بن جندل في فرس له :

كَمْ مِنْ فَقِيرٍ بِإِذْنِ اللَّهِ قَدْ جَبَرَتْ وذي غِنًى بَوَّأَتْهُ دَارَ مَحْرُوبِ (٥)

---

(١) ينظر لسان العرب مادة "سلب" . وينظر من الشعر في ذلك المعنى ديوان عبيد ، ص٢٥ .

(٢) ديوانه ، ص٤٠ ، قشير والحريش من أحياء بني عامر ، من بطون بني كعب بن ربيعـة بـن عامر . فالمحروب في هذه الحروب : الذي نهب ماله وترك لا شيء له . والمسلوب الذي أخذ ما عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة.

(٣) ينظر مثلا ديوان الأعشى ، ص٧٣ .

(٤) ديوانه ، ص٦٣ .

(٥) ديوانه ، ص١٠٩ . جبرت : أغنت ولمت شعثه . بوأته : أنزلته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونرى الحريب يشكو الهوان بعدما أخذت أمواله في الحروب ، يشير إلى ذلك بشر بن أبي خازم مفتخرا بانتصارات قومه على الأعداء :

لَحوْنَاهُمُ لَحْوَ العِصِيِّ فَأَصْبَحُوا عَلى آلةٍ يِشْكُو الهَوانَ حَرِيبُهَا (١)

وليست الحروب هي التي تخلف المحروب والمسلوب فحسب ، ولكن قد نجد أن الكرم والجود والعطاء تحرب الأموال في رأي بعض النساء اللواتي يلمن الرجال على جودهم . ويعتبرن العطاء والكرم سلباً وحرباً للأموال ... وأن هذا العطاء يترك الأهل فقراء ، كما زعمت "رهم ابنة العباب" التي كانت تلوم ابنها حطائط بن يعفر النهشلي الشاعر على جوده (٢).

وعلى كل حال فالمحروب والمسلوب كلاهما كانا ممن يحتاجون للعون والمساعدة وتعويضهم عن الأموال التي ذهبت منهم ومواساتهم (٣) . لذلك فإننا نجد التفاخر والتمدح بتقديم المساعدة للمحروب والمسلوب . كما يقول طرفة بن العبد في الفخر بيوم تحلاق اللّمم ، وكان هذا اليوم لبكر على تغلب :

سَائِلوا عنّا الذي يَعْرِفُنا بقُوانا يَوْمَ تَحْلَاقِ اللِّمَم

- يَجْبُرُ المَحْرُوبَ فينا مالَه بِبِنَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَم (٤)

ويقول الأعشى الكبير ميمون بن قيس مفتخرا :

وَمِنَّا الذي أَسْرى إلَيْهِ قَرِيبُهُ حَرِيباً ومنْ ذا أَخْطَأَتْ نَكَبَاتُها

فقالَ لَهُ أَهْلا وَسَهْلا ومرْحَبَا أَرى رَحِما قَدْ وافَقَتْهَا صِلاتُها

أَثَارَ لَهُ مِنْ جَانِبِ البُرْكِ غُدوةً هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا إلَيْهِ رُعاتُها (٥)

فهذا القريب الذي مسه الضر ونكب في ماله ، كان ممدوح الأعشى يستقبله استقبالا حسنا ، وقام إلى مبرك الإبل - قبل أن يصبح الصباح - وساق إليه قطيعا فيه مائة ناقة يحدوها رعاتها .

---

(١) ديوانه ، ص١٨ . اللحو : قشر العود . الآله : الحالة .

(٢) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٤٣/٢-٣٤٢ .

(٣) ينظر مثلا شرح ديوان لبيد ، ص٢٠٣ . وديوان الحماسة ، ٣٦/٢ .

(٤) ديوانه ، ص١٢١ . يجبر : يصلح ويخلف عليه . ببناء : أي يبني له بيتا . السوام : المال الراعي .

(٥) ديوانه ، ص١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشعراء الجاهليين من كان يعلي شأن الحارب الغاصب الناهب وفي نفس الوقت الجابر الحريب المسلوب . يقول لبيد بن ربيعة العامري في رثاء أربد :

الحـاربِ الجابرِ الحريـبَ إذا جَـاءَ نَكِيبَـاً وإنْ يَعُـدْ يَعُـدِ (١)

فهو الحارب لأعدائه والجابر الحريب من قومه .

ب- الأسير

في الحروب والغارات في العصر الجاهلي يكثر الأسرى . وكان الرجل المشترك في هذه الحروب والغارات يطمح في أسر الرجال وسبي النساء . لأن الأسير كان يفدى بماله إن كان صاحب مال وفير ، أو من قبل قومه وذويه إن استطاعوا فديته ، وإلا سيعيش هذا الأسير في بؤس وشقاء . وكذلك إن كانت الفدية قليلة لهذا الأسير فسوف يلقى شقاء وعناء شديدين قد تكلفه حياته أحيانا (٢) . لذلك ترى الإفتخار بأسر السادة الأثرياء والملوك الأغنياء (٣) . وبالأسرى تكبل بالصفاد (٤) . ويفخرون كذلك بمن يكبل أسيرا في الحديد زمانا ليكون له خوار (٥) .

ومن الأسرى من يكون ثريا فيفدي نفسه بماله فيصبح بلا مال (٦) .

وقد يمن على الأسير بالفداء إن كان فقيرا ، ويفتخر من يقوم بهذا المن (٧) . وكانوا يتفاخرون بفداء الأسرى وفك أغلالهم وقيودهم (٨) والمال عند بعض الجاهليين :

يُفَـكُّ بِـهِ العَاني وَيُؤْكَـلُ طَيِّبـاً وَيُعْطَى إذا مَنَّ البخيلُ المُطَرَّدُ (٩)

---

(١) شرح ديوانه ، ص ١٥٨ .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص١٥٠ .

(٣) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص١١٢ .

(٤) ينظر ديوان عنترة ، ص٧٩ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص٢٨٩ .

(٦) ينظر المفضليات ، ص١٥٧ ، ٣٢٧ .

(٧) ينظر السابق ، ص ٣٢٨ . وديوان سلامة ، ص١٧٦ .

(٨) ينظر ديوان أوس ، ص١٢٥ . وشرح ديوان لبيد ، ص٢٥١ . وديوان سلامة ، ص٢٠٢ .

(٩) ديوان حاتم الطائي ، ص٧٠ . وله بيت آخر بهذا المعنى في ديوانه ، ص٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتمدح الجاهليون بفك "أغلالِ الأسيرِ المقيّدِ" (١) . وفكّ "عانٍ كبيلٍ" (٢) . ويمدحون من يفك الأسرى ويفتدي الأسير الضعيف السقيم بالمال (٣) .

وفي شعر الرثاء يكون المرثي للأسير العاني معوانا يفتديه بماله ، فمن للأسير بعد هلاك المرثي (٤) .

وفي الشعر الجاهلي ذكر للأسير المكردس ، المطروح على جنبه المنقبض على نفسه ، لأنه يكون موثقا مقيداً لايتحرك وهو نائم على خده (٥) . وكان هذا الأسير المكردس مشبه به للثور الوحشي (٦) وللحمار الوحشي (٧) . وشبه الأعشى حبه لصاحبتِه "قتيلة" بالأسير المكردس (٨) .

وكان الأسير تبكي عليه إمرأته ، وإذا ما أسر يكون عند من أسره بمنزلة الكلب ، يجوع فيهم "وإنْ طَعِمُوا" (٩) .

ويكون الأسير هزيلا مكسور الجناح . يقول بشر يمدح أوس بن حارثة مشيرا إلى حادثة وقوعه أسيرا في يد أوس بن حارثة وإطلاق أوس إياه وحبائه بعد إطلاقه :

فككتَ أسيراً ثُمّ أفضلْتَ نِعمةً فَسُلّمَ مَبْرِيُّ العِظَامِ مهيضُ (١٠) .

وقد كان أسر شخص يسبب الفقر لأسرته بعد أسره . فعامر بن الطفيل يفخر بانتصاراته وقومه على القبائل ، وأسرهم لحاجب بن زُرارة ، ولم يتركوا لأسرته سواما :

---

(١) شرح شعر زهير ، ص١٦٨ .

(٢) ديوان الأسود ، ص٥٤ .

(٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٨٧ . وديوان علقمة ، ص١٠٤ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص٦٦ . والأصمعيات ، ص٥٥ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص١٠٣ .

(٦) ينظر السابق .

(٧) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١١٦ .

(٨) ينظر ديوانه ، ص٤٠١ .

(٩) ديوان الهذليين ، ١٣/٣ . لذلك جاء في القرآن الكريم قوله تعالى "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" .

(١٠) ديوانه ، ص١٠٨ . وكان بشر قد هجا في شعره أوسا . وكان بشر ذكر أنه ثوى أسيرا ثلاث سنين ، ديوانه ، ص٢٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَسَرْنَا حَاجِبَاً فَثَوى أَسِيرا وَلَمْ نَتْرُكْ لِأُسْرتِهِ سَوَاما (١)

فالحروب سبب لا يستهان به من أسباب الفقر في العصر الجاهلي كما يبدو من الشعر الجاهلي .

٣- كثرة العيال

كان البعض في العصر الجاهلي ممن لهم أولاد كثر يشكون الفقر والحاجة أكثر من غيرهم ممن ليس عندهم أبناء أو لديهم الأولاد ولكنهم قلة ، وأقصد بالأولاد الصبية الصغار . إذ إن أبا الصبية بحاجة إلى كد وتعب وطواف في البلاد من أجل الحصول على الرزق ليكفي أولاده مؤونة العيش.

فنرى أبا الصبية ضعيفا هزيلا يشكو الفقر والحاجة ، وله أولاد عجاف . قام عروة بن الورد بمساعدته وأخذ بيده كما يقول :

إذا قُلْتُ قَدْ جَاءَ الغِنَى حَالَ دُونَهُ أَبو صِبْيَةٍ يَشْكُو المَفَاقِرَ أَعْجَفُ (٢)

ونقرأ في الشعر الجاهلي من يشكو انحناء الظهر والتقدم في العمر وكثرة العيال (٣) . فصاحب العيال إذا كان فقيرا قليل المال يطرح نفسه كل مطرح كي يصيب شيئا من الرزق لعياله الفقراء (٤) .

وهذا الأشعث الفقير ذو عيال فقراء همهم ما ينفقونه كل الوقت يطلبون من أبيهم أن يغزو راجلا كي يصيب غنيمة أو مالا ينفقونه . يقول أبو ذُؤيب الهُذلي في هذا الفقير وقد قام أبو ذؤيب وجماعته بقتله وشفاء غيظه :

وَأَشْعَثَ بَوْشِيٍّ شَفَيْنَا أُحَاحَهُ غَدَاتَئِذٍ ذِي جَرْدَةٍ مُتَمَاحِلِ

أَهَمَّ بَنِيهِ صَيْفُهُمْ وَشِتَاؤُهُمْ فَقَالوا تَعَدَّ وَاغْزُ وَسْطَ الأَرَاجِلِ (٥)

وكان غيظ هذا الأشعث الفقير ناتجا عن فقره وكثرة عياله . "وقد زعموا أن العيال سوس

---

(١) ديوانه ، ص١١٣ . ثوى : أقام في الأسر . الثاوي : المقيم ، والثواء : الإقامة . يقال ثوى فلان في مكان كذا وكذا وأثوى . السوام : ما رعى من الإبل يقال سامت تسوم والمسيم الراعي .

(٢) ديوانه ، ص١٠٧ .

(٣) ينظر في ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص١٥٦ .

(٤) ينظر ديوان عروة ، ص٤٠ .

(٥) ديوان الهذليين ، ٨٣/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المال ، وأنه لا مال لذي عيال" (١) . لذلك نرى بعض الجاهليين يقتلون أبناءهم من الفقر أو خشيته (٢). وسنرى عادة الوأد خشية الفقر في فصل وسائل دفع الفقر .

وثمة أسباب أخرى غير التي ذكرنا تسبب الفقر . منها الحمالات والديون والديات والغرامات (٣) . فالقبيلة أو العشيرة تشترك في الجريرة.

ومن العادات الجاهلية التي كانت منتشرة بين أفراد المجتمع شرب الخمر ، وإنفاق التالد والطريف فيها (٤) . وكان الكثيرون يهينون أموالهم ويضيعون ثرواتهم في سبيل اللذة والمتعة وشرب الخمر فنجد من يتلف ماله على الخمر والنساء ولعب القمار (٥) . وليس هذا فحسب بل قد يرهن الرجل امرأته في شرب الخمر . ولا نعدم من حرم الخمرة على نفسه لأنها تسلب المال والعقل (٦) .

وهناك معتقدات وعادات جاهلية كانت من جانب تشكل إسرافا وتبذيرا ومن جانب آخر تسبب الفقر إلى حد ما . فكان العرب يعقلون ناقة الرجل عند قبره حتى تموت ، ويطلق على هذه الناقة : البلية (٧) .

ومن عاداتهم ومعتقداتهم عقر الإبل على القبور ، وتقديم القربان للآلهة ، والبحيرة السائبة والوصيلة والحامي لا ينتفعون منها .

وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله : "ما جعل الله من بَحيرة ولا سَائبة ولا وصِيلة ولا

---

(١) البخلاء ، للجاحظ ، ص٢٠٤ .

(٢) كما ورد في القرآن الكريم عن الجاهليين . في سورة الأنعام ، ١٥١، وسورة الإسراء ٣١ .

(٣) ينظر مثلا في معنى ذلك : ديوان الأعشى ، ص٢٥٣ . وديوان أوس ، ص١١٤ . والمفضليات ، ص٣٥٨ ، ٣٦٨ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٤٥ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان الأعشى . وديوان قيس بن الخطيم ، ص٧٣ .

(٦) ينظر كتاب "الأشربة" ، لابن قتيبة ، ص٢٦ ، ٦٨ . و"الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص٤٥٢ .

(٧) ينظر مثلا : شرح ديوان لبيد ، ص٣١٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص٩٨ . والمفضليات ، ص٣٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـام" (١) لأن الله يعلم أن ذلك يلحق بالإنسان الضرر الكبير في عدم الإنتفاع بهـذه الحيوانـات "وهذه هي الجاهلية في تضييع المال بلا دليل من عقل أو شريعة " (٢) .

-٣-

أسباب نفسية

١- الكـــرم

مع أنني أفردت حديثا مفصلا لظاهرة الكرم في الفصل التالي من مظاهر الفقـر ، لأن الكـرم ظاهرة لها أكثر من تفسير من حيث دوافعها وأسبابها ونتائجها ، لكنني سأشير في هذا المقام إلـى أن الإسراف في الكرم قد يسبب الفقر لصاحبه . كما يشير إلى ذلك لبيـد بـن ربيعـة عندمـا لامتـه زوجته على فقره وسوء حاله وقلة ماله ، فأجابها بقوله :

ولكـنّ مالِي غَالَـــهُ كُلَّ جَفْنَـةٍ إذا حَـــانَ وِرْدٌ أَسْبَلَتْ بِدُمُوعِ

وإعطائيَ المَوْلى عَلى حين فقْره إذا قالَ أَبْصِرْ خَلَّتِي وَخُشُوعي (٣)

وتجدر الإشارة إلى أن البخل الشديد الذي كـان يتصـف بـه بعـض الأغنيـاء الجـاهليين كـان يسبب الفقر أو يزيد من حدته مـن قريـب أو مـن بعيـد . لأن البخـل مـا هـو إلا إمسـاك الخيـرات واحتكار الأموال لدى شخص دون المجموع .

٢- **العجز الجسمي** وذلك لعدة أسباب :

أ- **الضعف** :

من نواميس الكون أن يوجد الشيء وضده . فيوجد الإنسان القوي والإنســان الضعيـف الـذي لا حول له ولا قوة . وفي الضعف فقر ، لأن الضعيـف غير قـادر علـى الكسب كمـا ينبغـي ،

---

(١) المائدة آية ١٠٣ . والبحيرة : الناقـة التـي نتجـت خمسـة أبطـن آخرهـا ذكـر ، فيبحـرون أي يشقون أذنها ، ويحرمون نحرها وركوبها والإنتفاع بها . والسائبة : الناقة التي تنتج عشرة أبطن إنـاث فتهمـل ولا تركـب ولا يشـرب لبنهـا إلا ضيـف . الوصيلـة : إذا ولـدت الشـاة ذكـرا جعلـوه لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإذا ولـدت ذكـرا وأنثـى قـالوا أوصلـت أخاهـا أي دفعـت عنـه الذبح فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(٢) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية , علي العتوم ، ص٤٤٤ .

(٣) شرح ديوانه ، ص٧٠ - ٧١ . غاله : ذهب به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خصوصا في العصر الجاهلي ، حيث كان الإعتماد في الرزق على الرحلة والتنقل والحركة والتي عمادها القوة .

فإذا لم يكن للضعيف سند أو ناصر شكا الفقر والهوان (١) .

ب- الشيخوخة :

كبير السن ضعيف ، فإذا لم يجد معينا أو ناصرا يعينه على معيشته ، وإذا لم يكن له سند كأن يكون ذا مال أو ثروة أو صاحب شأن ، حقت عليه لعنة الفقر والفقراء . ففي الكبر ضعف وعجز أي عجز . وفي الضعف والعجز فقر وحرمان (٢) .

جـ - الأدواء :

إن الأمراض في المجتمع الجاهلي كانت حتمية ومتوقعة ، لذلك فالمريض سيء الحال ، غير قادر على الكسب ، يشكو الفقر والهوان والحرمان ، يصارع هم المرض وهم الفقر ، فهو في عذاب ما بعده عذاب . ونجد في الشعر الجاهلي وصف الضرير أو المضرور بمرض أو هزال أو نحوه (٣) .

د - عدم القدرة على الكسب وعدم وجود المعيل . كالأرامل والأيتام الذين كانوا يشكون الفقر (٤) .

ولنا حديث آخر عن هذه الفئات الفقيرة في الفصل الرابع من هذه الرسالة - إن شاء الله - .

---

(١) ينظر مثلا : ديوان امرئ القيس ، ص١٣٢ . وديوان الحماسة ، ١٣١/١ . والحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ .

(٢) ينظر في مثل ذلك : ديوان عدي بن زيد ، ص١١٣ . وديوان ذي الإصبع العدواني ، ص١٥٦ . وديوان عبيد بن الأبرص ، ص١١٤ . وديوان عروة ، ص١١٤ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٩٣ . والأصمعيات ، ص٤٥ . والمفضليات ، ص١٨٧ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص١٧٤ . وديوان الأعشى ، ص٣٧٥ . وديوان الأسود ، ص٥٢ . وديوان عروة ، ص١٢٠ . وديوان الحماسة ، ٣٥/٢ ، ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الثالـــــث

مظاهـر الفقـــر فـي الشعـــر الجاهلـي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

مظاهر الفقر في الشعر الجاهلي

في هذا الفصل بعض مظاهر الفقر ، وهي المظاهر الكبرى ـ في رأيي – في حياة الجاهليين ، شغلت بال الشعراء في العصر الجاهلي . وقام بعض الباحثين في عصرنا الحاضر بالبحث في هذه المظاهر ، سواء كانت بحوثا مستقلة أو جزئيات من بحوث تناولت العصر الجاهلي بشكل أو بآخر .

فظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي لا يستهان بها . وكان الصعاليك من الفقراء ، تحدثوا – الشعراء منهم – عن فقرهم وتشردهم ، وجوعهم وهزالهم ، وظلم المجتمع لهم . وحاولوا التخفيف من حدة هذا الفقر بوسائل شتى ابتغاء المعيشة الأفضل بعزة وشرف . فقد كان هؤلاء الصعاليك قبل صعلكتهم طبقة مهانة فقراء في الغالب ، أهينوا من قبل المجتمع وأعرافه وأنظمته ؛ ولنظرة المجتمع الجاهلي للفقير نظرة احتقار وازدراء في الغالب ، كل ذلك جعل في نفوس هؤلاء الفقراء حب التخلص من منزلتهم الحقيرة ، والابتعاد عن الفقر وشروره . فالصعلكة مظهر من مظاهر الفقر ؛ لأن الصعاليك فقراء ، وفي نفس الوقت سلكوا سبيل الصعلكة للتخلص من هذا الفقر .

أما الحروب والغارات .. فقد تغني أقواما وتفقر أقواما آخرين . فقد تسبب الفقر وتخلف الفقراء ، فتسلب مال الغني ليصبح فقيرا ، وقد يغنى الفقير فيها فيلحق بأصحاب الثراء والغنى . وقد تكون الحروب والغارات من وسائل الجاهليين لدفع الفقر والحصول على الغنى .

أما الكرم ، فكان مقدسا عند الجاهلي ، خصوصا وقت الشدة والمحل والفقر ، ولا نعدم من يكرم وهو في فقر وقلة مال . والكرم قد يدفع جزءا من الفقر ويخفف من حدته . وفي نفس الوقت قد يسبب الفقر لأصحاب الجود والكرم ولأهليهم .

-١-

الصعلكـــــة

١- مفهومها

تدور كلمة "الصعلكة" في دائرتين (١) : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة وهي الفقر . فأما الدائرة اللغوية فتنتهي حيث بدأت ، ويبدأ الصعلوك فيها فقيرا ،

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليف ، ص٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظل في نطاقها فقيرا يخدم الأغنياء أو يستجديهم فضل مالهم ، ثم يموت فقيرا .

فالصعلوك في الدائرة اللغوية : هو الفقير الذي لا مال له . والتصعلك : الفقر (١) ، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك كما يقول حاتم الطائي :

عُنِينَا زَمَانَاً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فَكُلّاً سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ (٢)

فمادة "صعلك" تدل على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان في الحياة ، وضيق في أسباب العيش . والذي يمثل هذه الدائرة اللغوية هو الصعلوك الخامل الذي يذمه شعراء الصعاليك (٣) وغير الصعاليك (٤) .

وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء .. يبدأ الصعلوك فيها فقيرا ، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذي فرضته عليه أوضاع اجتماعية ، أو ظروف اقتصادية ، وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه من أجل هذه الغاية – لا يسلك السبيل التعاوني ، وإنما يدفعه "لاتوافقه الاجتماعي" إلى سلوك السبيل الصراعي ، فيتخذ من "الغزو والإغارة للسلب والنهب" وسيلة يشق بها طريقه في الحياة . فيصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية مظهرا من مظاهر التمرد ، وتتقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعا مشردا ، أو طريدا متمردا – حتى يلقى مصرعه . فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذي كانوا يترقبونه في كل حين ، كما يترقب غائبا منتظرا أهله – كما يشير عروة إلى ذلك في قوله :

إذا بَعدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفَ أَهْلِ الغَائِبِ المتنظّرِ

فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ المنيَّةَ يَلْقَهَا حَمِيداً وإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْماً فَأَجْدِرِ (٥)

والذي يمثل هذه الدائرة الاجتماعية هو الصعلوك العامل الذي يمدحه الشعراء (٦) .

---

(١) لسان العرب مادة "صعلك" .

(٢) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص٨٤ . والشطر الثاني للبيت في الديوان "كما الدهر في أيامه العسر واليسر" .

(٣) ديوان عروة بن الورد ، ص٧٢-٧٣ ،و ديوان الشنفرى ، ص٣٤ .

(٤) ديوان حاتم الطائي ، ص٦٥،١١٢ .

(٥) ديوانه ، ص٧٣ . "تشوف أهل الغائب المتنظر" أي ينتظره أعداؤه في كل ساعة كما ينتظر أهل الغائب غائبهم حتى يقدم ، فأعينهم إليه يتشوفونه . أجدر : أي أخلق عذر نفسه في الطلب وإن بقي فاستغنى أنفق ماله فيما تبقي له محامده في حياته وبعد موته .

(٦) ينظر مثلا ديوان عروة ، ص٧٢ . وديوان حاتم ، ص١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالصعلكة هي الفقر والصعلوك هو الفقير في دائرة اللغة ، ثم تطور المصطلح ليحمل في جانبه الطابع العدواني والسلب والنهب لتحقيق الذات (١) .

٢- فئات الصعاليك وطوائفهم وأسباب تصعلكهم :

تتألف عصابات الصعاليك من ثلاث طوائف : طائفة الخلعاء والشذاذ الذين تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم من حماها ، ونبذتهم لكثرة جرائرهم وأخطائهم حفاظا على وحدة القبيلة . ومن هؤلاء حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبو الطمحان القيني (٢) .

وطائفة الأغربة السود أبناء الإماء الحبشيات السود مثل تأبط شرا والشنفرى والسليك بن السلكة (٣) .

ثم طائفة الفقراء الذين احترفوا الصعلكة نتيجة لعدم توازن الثروات بين القبائل والمدن والقرى في العصر الجاهلي ، مما أدى إلى وجود الأغنياء المترفين والفقراء المعدمين ، مما جعل بعض الفقراء يحترفون الغزو لاستخلاص أقواتهم . مثل عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب (٤) .

وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل وصعاليك فهم (٥) .

ويمكن لنا أن نرجع سبب الصعلكة إلى سوء توزيع الثروات في العصر الجاهلي وعدم التوازن بين الغنى والفقر ، مما أدى إلى ظهور طبقة غنية وأخرى فقيرة مهضومة الحقوق .

---

(١) ينظر "الشعراء الصعاليك" ، يوسف خليف ، ص٢٣،٢٦،٥٩،٦٠ . و "العصر الجاهلي" ، شوقي ضيف ، ص٣٧٥ . و "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، أحمد محمد الحوفي ، ص٢٩٩ . وترتبط في معنى الصعلكة والصعلوك مصطلحات كثيرة منها الخلعاء والشذاذ واللصوص والشطار . انظر فيها مثلا لسان العرب المواد : "خلع" ، "شطر" ، "لص" . وينظر تاج العروس والصحاح وأساس البلاغة مادة "لص" .

(٢) الأغاني (بيروت) ، ١٣٧/١٤ .

(٣) السابق ، ٣٤٦/٢٠ . والمزهر للسيوطي ، ٢٦٩/٢ .

(٤) ينظر الأغاني ، ٨٢/٣ (دار الكتب المصرية) .

(٥) ينظر في ذلك وفي فئات وطوائف الصعاليك ، المراجع التالية : الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص٥٧-٥٨ . العصر الجاهلي ، شوقي ضيث ، ص٣٧٥ . الشعراء الصعاليك ، حسين عطوان ، ص٩-١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالجزيرة العربية وهي موطن العرب في العصر الجاهلي يكثر فيها الجفاف والقحط والجدب والفقر وهذا ليس غريبا على البيئة في الجزيرة العربية وخاصة في الحجاز فهي بيئة أهم مواردها الرعي ، ثم قليل من الخصب الزراعي في مناطق محدودة من اليمن ، وفي شمال الجزيرة ، وبعض المناطق في نجد وحول يثرب والطائف . يضاف إلى ذلك النشاط التجاري الذي يعتمد على موارد البيئة والحاجة .

وإذا أخذنا – بعين الاعتبار – التمييز العرقي بين فئات القبيلة الواحدة وإيمانها بوحدتها ، فالصرحاء من القبيلة في أعلى السلم من حيث الحقوق المميزة والمكانة الاجتماعية ويليهم الموالي ثم العبيد وهم فئة فقيرة معدمة . وجدنا أن الفقر والحاجةوالحرمان والاحساس بالفقر والظلم الاجتماعي هي من الأسباب القوية للصعلكة (١) . والذي أوجد هذا الاحساس بالفقر ، وجود رجال عندهم الهمة وأنفة النفس في بيئة فقيرة معدمة ، موارد العيش لهم فيها قليلة ، بينما في جوارهم بيئات خصبة ورجال أغنياء يعيشون عيشة رغيدة . فلم يكن هنالك مفر لهؤلاء الرجال أن يحترفوا الغزو والإغارة للسلب والنهب ينهبون ويسلبون ويغيرون على المناطق الخصبة ، ويعترضون القوافل التجارية وقوافل الحجاج ، "وأماكن انتشارهم كان بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية" (٢) .

٣- صفات مشتركة بين الصعاليك

وقد جمع بين طوائف الصعاليك الفقر والجوع والحرمان والتشرد والتمرد والسلب والنهب والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي خرجت منه ، والإيمان بأن الحق للقوة وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع ، حيث الفقير يزداد فقرا كل يوم ، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى . فالفقر يعتبر صفة مشتركة بين الصعاليك ، والذي لم تستطع حتى جهودهم في الصعلكة ، على قوتها وعنفها أن تخلصهم منه (٣) .

---

(١) ينظر مثلا : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليف ، ص٤٦ . وشعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبدالحليم حفني ، ص٥٥،١٨٥ . والشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي ، حسين عطوان ، ص٤٥ .

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٣٧٦ .

(٣) ينظر الشعراء الصعاليك ... ، يوسف خليف ، ص٥٨ . والشعراء الصعاليك ... ، حسين عطوان ، ص١٠ . و "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه" ، عبد الحليم حفني ، ص١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتصف الصعاليك في العصر الجاهلي بصفات جسدية ومعنوية تعبر عن نفورهم من المجتمعات التي تحتكر الغنى لأفراد ، ويبقى الآخرون في فقر شديد أذلاء مضيعين ، وتساعدهم على الخروج من دائرة الفقر وانحطاط منزلتهم الاجتماعية . ونجد هذه الصفات جلية واضحة في شعر شعرائهم . فاتصفوا بالشجاعة والقوة (١) ، ومعرفة مجاهل الصحراء (٢) والعدو والسرعة (٣) ، يحسنون الإغارة والغزو (٤) فكانوا يغيرون أحيانا فرادى (٥) وأحيانا في جماعات (٦) على الخيل وعلى أرجلهم .

وبكراهيتهم للأغنياء البخلاء (٧) فاتصفوا بالكرم والعطاء (٨) والإحسان للفقراء (٩) والصبر على الشدائد والجوع (١٠) . وبرغم فقرهم نجد في شعرهم عزة النفس للإنسان الفقير (١١) ،

---

(١) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص٣٢،٣٤،٣٥،٣٨،٤٠ . وديوان تأبط شرا ، ص١٢٣،١٣٩ . وديوان عروة ، ص٧٢ . والحماسة الشجرية ، ١٧٨/١ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص٣٤،٣٨ . وديوان تأبط شرا ، ص١٥٠،١٦٤،١٨٣ .

(٣) ينظر مثلا : الحماسة الشجرية ، ١٧٩/١ . وديوان تأبط شرا ، ص١٣٣،١٥١،١٥٢،١٦٣ . وديوان الشنفرى ، ص٣٤ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص٧٤،١٠٠،١١٦ . وديوان تأبط شرا ، ص١٣٧،١٥٧،١٦٨،١٧٧،١٨٦،١٩٦،٢٠٦ . وديوان الشنفرى ، ص٣٢ .

(٥) ينظر مثلا ديوان تأبط شرا ، ص١٧٧،١٨٤ . وديوان الشنفرى ، ص٣٦ .

(٦) ينظر مثلا الأغاني ٨١/٣،٨٢ (دار الكتب المصرية) . وديوان الشنفرى ، ص٣٢ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص٣٥،٨٣ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص١٤١،١٧٥،٢٠٤ . وديوان عروة ، ص٤٤،٦٤،٨٥،٩٠،١٠١ .

(٩) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص١٥٠ . وديوان عروة ، ص٥٢،١٢١،١٢٢ . والأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٨١/٣ .

(١٠) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص٣٣،٣٧ . وديوان تأبط شرا ، ص١٣٤ . وديوان عروة ، ص٦٥ . وديوان الهذليين ، ١٢٧/٢-١٢٨ ، ١٤١ .

(١١) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص١٣٦،١٨٠ . وديوان عروة ، ص٣٤،٤٢،٤٨،٨٩ . والحماسة الشجرية ، ٤٧٧/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاستهانة بالموت (١) .

وكل الصعاليك فقـراء ، دون استثناء ، حتى عروة بن الـورد سيد الصعاليك كان فقيرا مثلهم (٢) .

ونجد في شعر شعرائهم صيحات الفقر والجوع والحرمان والتشرد في الصحراء ، والثورة على الأغنياء . والمميز في ذلك أنهم – غالبا – يتحدثون عن فقرهم هم أنفسهم (٣) .

٤– الفقر في شعر الصعاليك

صور الشعراء الصعاليك فقرهم الذي يمثل فقرا قاسيا (٤) ، وذكروا أسبابه ، وتأثيره في أجسامهم ، وأثره النفسي على حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التي يسلكونها للتخلص منه ، أو للتخفيف من حدة وطأته عليهم (٥) .

فتحدثوا عن فقرهم وحرمانهم من أسباب الحياة الأساسية ، يقول الأعلم الهذلي راسما صورة لأهله وأولاده الفقراء :

وذكـــرتُ أهلِـــي بالعَـــرا ... ءِ وحَاجةَ الشَّعـثِ التَّوالِـبْ

المُصْرميـــنَ مِـــنَ التِّـلا ... دِ اللّامِحيـنَ إلـى الأقـاربْ (٦)

ويقول تأبط شرا في محادثة بينه وبين ذئب ، بأنه مثل الذئب ، لا يملك شيئا ، وإنما يعتمد في معيشته كما يعتمـد الذئب كلما أحس بالجوع . بل يشك في أن الذئـب بلغ من الفقـر ما بلغـه هو :

وَقِرْبَـةِ أَقْـوَامٍ جَعَلْتُ عِصَامَهَا ... عَلى كَاهِـلٍ منّي ذَلُـولٍ مُرَحَّـلِ

وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِـهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ

فَقُلْتَ لَـهُ لمَّـا عَـوى إنَّ شَأْننا ... قليـلُ الغِنـى إنْ كُنْتَ لمَّـا تَمـوَّلِ

---

(١) ينظر مثلا : ديـوان الشـنفرى ،ص٣٩ . وديـوان عـروة ، ص٢٩،٥١،٧٣،١١٤،١٣١ . والأغاني (دار الكتب) ، ٨٢/٣ .

(٢) الشعراء الصعاليك ... ، يوسف خليف ، ص٢٨ .

(٣) ينظر الشعر الجاهلي منهج ... محمد النويهي ، ٢٧٣/١ . والعصـر الجاهلي ، شـوقي ضيف ، ص٣٧٥ .

(٤) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حفني ، ص٥٥،١٨٥ وما بعدها .

(٥) الشعراء الصعاليك ... يوسف خليف ، ص١٣٢ .

(٦) ديوان الهذليين ، ٨١/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كِـلانا إذا مـا نَـال شيئـا أفاتَـه ُ وَمَنْ يُحْترِثْ حَرْثي وحرثَكَ يَهْزَلِ (١)

وصخر الغي يتحدث عن فقره وضيق ذات يده ، إذ يقول :

إنّـي بِدَهْمَـاءَ قَـلَّ مـا أَجِـدُ عَـاوَدَنـي مِـنْ حِبَابِهَـا زُؤُدُ (٢)

ويقول عروة يصف نفسه بالفقر الذي يدفعه إلى مجابهة المخاطر :

ومن يكُ مِثلي ذا عِيالٍ وَمُقْتِرا يَغْزُو وَيطرحْ نَفْسَه كُلَّ مَطْرَحِ (٣)

ويقول عمرو بن براقة أن سيفه معظم ماله :

وَكَيفَ يَنَامُ اللّيلَ منْ جُلِّ مالِهِ حُسَامٌ كَلَوْنِ المِلْحِ أبيضُ صَارِمُ (٤)

ويصرح عروة بأن سلاحه كل ما يملك :

ومالِيَ مالٌ غيْـرُ دِرعٍ ومِغْفَرٍ وأَبيضَ مِنْ مَـاءِ الحديدِ صَقِيلِ (٥)

وتحدثوا عن تمزق نعالهم واثوابهم وتلفها (٦) . فهذا تأبط شرا يتحدث عن تمزق نعله وهو يتسلق الجبال .. ليصل مكمنه الذي يزاول منها صعلكته ، وهذه الصخور التي يمشي عليها في حاجة إلى نعل متينة تقي قدميه وأصابعهما من تمزيق الصخور ، ولكنه لا يملك إلا نعلا بالغة الرثاثة والتمزق ، يقول :

لا شيءَ في رِيْدِها إلّا نعامتُها منْهـا هَزِيـمٌ ومِنْها قائمٌ باقِ

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص١٨٢ . والأبيات منسوبة لامرئ القيس ، ديوانه ، ص٥٠-٥١ ، وفي معلقته "شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص٢٤-٢٥ . وأنا مع يوسف خليف في أن هذه الأبيات لتأبط شرا وليست لامرئ القيس لما كان عليه امرؤ القيس من ارستقراطيته في معلقته ، فهو شاب يعبر عن اللهو والنساء والصيد ، فليس من المعقول أن يتحدث في أثناء هذا عن حمله قربة الماء وفقره وتشرده في الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة ، وهزاله ... ينظر الشعراء الصعاليك، يوسف خليف ، ص١٦٧ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ٥٥٩/٢ . زؤد : ذعر . الحباب : الحب .

(٣) ديوانه ، ص٤٠ .

(٤) أمالي القالي ، ١٢٣/٢ .

(٥) العمدة لابن رشيق ، ٣٦/٢ . والبيت فيه إقواء والأصل بالضم . وقال ابن رشيق يجوز ضم "صقيل " على القطع والتقدير "هو صقيل" .

(٦) ينظر مثلا ديوان الشنفرى ، ص٣٥،٣٧ . وديوان تأبط شرا ، ص١٣٩ . وديوان الهذليين ، ١٣١/١،١٤٩،١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشنفرى على وجهه من قبل ابنة مولاه تعبر عن ذل الفقراء والعبيد ، وقال الشنفرى في ذلك شعرا (١) .

ومن ذل الفقراء مقامهم خلف البيوت كما يصرح بذلك عروة الصعاليك ، يقول في بني لبنى "وهم فقراء" إذا جاوروا قوما نزلوا ناحية كما ينزل الفقير في كنف من شجر ؛ لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها ، يغضون أبصارهم حياء من الناس :

رأيتُ بني لُبْنَى عليهمْ غَضَاضَةً ... بُيُوتُهُمُ وَسْطَ الحُلولِ التَّكَنُّفُ (٢)

وصوروا ضيق أقارب الفقراء بهم ونفورهم وبغضهم واحتقارهم للفقراء (٣) .

٥- **فلسفة الصعاليك في الفقر والغنى وانطلاقهم من هذه الفلسفة:** انطلق الصعاليك في أعمالهم وغاراتهم وسلبهم ونهبهم من أجل المال والغنى ، ومحركهم الأول أو (الدينامو) لهم كان إحساسهم بالفقر والعجز ، وشعورهم بذل وهوان الفقراء في مجتمعاتهم .

فقد تفهم الصعاليك مشكلة الفقر التي يعانون منها ، وقارنوا بين حالهم وحال الأغنياء ، فوجدوا الفرق شاسعا بين الإثنين ، من الناحية المعيشية والإجتماعية ، فالأغنياء في عيشة رغيدة ، وهم فقراء لا يجدون ما يسد الرمق . والأغنياء لهم كلمتهم وشأنهم ومكانتهم بين الناس ، ولكن الفقراء منبوذون ، لا مكانة إجتماعية لهم ولا سلطان . فلا يسمع لهم ، ولا يسمح لهم حتى بالتكلم وسط الناس ، فهم محتقرون أذلاء .

يصرح بذلك عروة بن الورد قائلا :

دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فإنِّي ... رأيتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقيرُ

وَأُبعِدُهُم وأهونُهُم عَليهِم ... وإنْ أَمْسَى لهُ حَسَبٌ وخِيرُ

وَيَقْصِيهِ النَّدِيُّ وتَزْدريهِ ... حَلِيلَتُه وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

وَيُلْفَى ذُو الغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ ... يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

قَليلٌ ذَنبُهُ والذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكِنْ للغِنَى ربٌّ غفُورُ (٤)

---

(١) ديوانه ، ص٤٠-٤١ .

(٢) ديوانه ، ص١٠٨ . وينظر في نفس المعنى ديوان عروة ، ص ٦٨ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص٨٩، ١١٤ . وديوان الهذليين ، ١٢٩/٢ . عيرته امرأته بالفقر .

(٤) ديوانه ، ص٩١ . والأبيات في الحماسة الشجرية عدا البيت الثاني ، مع اختلاف بسيط في الأبيات ، ٤٧٨/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول مالك بن حريم شعرا في مثل هذه المعاني التي صرح بها عروة ، وكيف أن المال يرفع الخسة ، ويجعل الذميم جميلا ، وأن الفقر مذلة بين الناس (١) .

ويقول عروة أيضا في هوان وذل الفقير ونكوصه إذا لم يطلب لنفسه معاشا :

إذا المرْءُ لمْ يطلُبْ مَعَاشـاً لِنَفْسِهِ ... شكا الفقْرَ أَوْ لامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرا

وَصَارَ عَلى الأَدنيْنَ كَلاًّ وأَوشَكَتْ ... صِلاتُ ذَوي القُرْبَى له أنْ تَنكَّرا (٢)

فالموت خير للفتى من حياته فقيرا :

إذا المرءُ لَمْ يبْعَثْ سَواما ولَمْ يُرَحْ ... عَليْهِ ولمْ تَعطِفْ عَليْهِ أَقارِبُه

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلفتَى مِنْ حَياتِه ... فَقِيراً ومِنْ مَولىً تَدِبُّ عَقَارِبُهْ (٣)

فنتيجة طبيعية لمن أحس بذل الفقر ولمس هذا الذل ، أن يصاب بعقدة الفقر التي تدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا ذا مال كثير يتفضل به على الناس .

فأخذوا يطوفون البلاد (٤) ويقومون بالغارة تلو الغارة على الأغنياء البخلاء (٥) ، فهم يغيرون على أصحاب المواشي والمزارع وأصحاب النوق والإبل . فعروة بن الورد كان يغير يوما على أهل نجد ويوما تجده بأرض "ذات شث وعرعر" :

فَيَوْماً عَلى نَجْدٍ وَغاراتِ أَهْلِها ... وَيَوْماً بِأَرْضٍ ذاتِ شَثٍّ وَعَرْعَرِ (٦)

---

(١) ينظر شعره ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢/٣١-٣٢ . وينظر في مثل هذه المعاني ديوان عروة ، ص٤٣ ، في فضل الغنى والمال وذل الفقر وقلة المال .

(٢) ديوانه ، ص٨٩ . والبيتان في "بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس" للإمام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، ١/١٩٩ .

(٣) ديوان عروة ، ص٢٩ .

(٤) ينظر ذلك مثلا في : ديوان عروة ، ص٢٩،٣٩،٤٣،٦٧،٩٩،١٠٧،١٠٨،١٣١ . وديوان تأبط شرا ، ص١٧٧ . وحماسة أبي تمام ، ٢/٣٠ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص٣٩ . وديوان الشنفرى ،ص٣٢ . وديوان تأبط شرا ، ص١٦٨،١٩٠ .

(٦) ديوان عروة ، ص٧٤ ، والشث والعرعر : نباتات في الصحراء . وينظر في غاراتهم على أهل المزارع والخصب ديوان تأبط شرا ، ص١١٧،١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عروة أيضا :

لعلّ انطلاقي في البلادِ وبُغْيَتي ... وشَدّي حَيَازِيمَ المَطِيّةِ بالرَّحْلِ
سَيِدْ فَعَنِي يَوْماً إلى رَبِّ هَجْمةٍ ... يُدافِعُ عنْها بالعُقُوقِ وبالبُخْلِ (١)

ويتكبدون في ذلك المخاطر والصعاب التي قد تودي بحياتهم ، كل ذلك من أجل الغنى والمال ، لذلك نراهم قد استهانوا بالموت نفسه (٢) .

فعروة بن الورد يخاطب امرأته أم حسان ويقول لها إنه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فإن قتل فموته أرحم لها من عيش الذل . وإن غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين ، يقول :

ذَريني أُطَوِّفْ في البلادِ لعلّني ... أُخلّيكِ أو أُغنيكِ عنْ سُوءِ محْضَرِي
فإنْ فازَ سهْمٌ للمنيّةِ لمْ أكُنْ ... جَزُوعاً وهَلْ عنْ ذاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ
وإنْ فازَ سَهْمِي كَفَّكُمْ عنْ مَقاعِدٍ ... لكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ البيوتِ وَمَنْظَرِ (٣)

فمن كان فقيرا محتاجا ذا عيال عليه أن يسعى في مناكب الأرض كي ينال حاجته . يقول عروة :

ومنْ يكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْترا ... مِنَ المَالِ يَطْرحْ نَفْسَه كُلَّ مَطْرَحِ (٤)

ويقول أيضا :

وما طَالبُ الحَاجَاتِ مِنْ كُلِّ وُجْهَةٍ ... مِنَ النّاسِ إلّا مَنْ أَجَدَّ وشَمَّرا
فَسِرْ في بِلادِ اللهِ والتمِسِ الغِنى ... تَعِشْ ذا يَسارٍ أو تَمُوتَ فَتُعْذَرا (٥)

فهذا الطواف وهذه الغارات تحتاج إلى قوة بدنية وإرادة نفسية عالية . لذلك فهم – الصعاليك – يقدسون القوة والسرعة ويعتمدون عليها في إنجاز أعمالهم . فنرى شعراءهم

---

(١) ديوانه ، ص١١٥-١١٦ . والهجمه الإبل من خمسين إلى ستين .

(٢) ينظر مثلا ديوان عروة ، ص٤٢،٧٣،١٠٧،١٣١ .

(٣) ديوانه ، ص٦٧ . أخليك أي أقتل عنك فأفارقك . والتخلية الطلاق . "..عن سوء محضري" عن أن تحضري محضرا سيئا كالمسألة .

(٤) ديوانه ، ص٤١ . ونهاية الإرب للنويري ، ٦٨/٣ .

(٥) ديوانه ، ص٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمدحون الصعلوك القوي النشيط العامل الذي لا يؤخره عن طلابه لا ظمأ ولا جوع (١). ويذمون الصعلوك الذليل الخامل الذي يقعد كالنساء يعمل كما تعمل (٢) .

والموت لدى الصعاليك خير من عيشة الفتى فقيرا (٣) يعيش عيشة العبيد والإماء ، ويقوم بأعمالهم الحقيرة كالرعي ، والتحطيب ، والطبخ ، وغيرها من الأعمال المهينة التي يأنف السادة من أفراد القبيلة أنقياء الدم من القيام بها (٤) .

فصبر الصعاليك على الجوع والحرمان حتى ملهم الجوع نفسه (٥) . كما يخبرنا بذلك أبو خراش الهذلي في قوله :

وإنّي لأَثْوِي الجُوعَ حتَّى يملَّني ... فيذْهبْ لمْ يَدْنَسْ ثِيابي ولا جِرْمي
وأُغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فأَنتهي ... إذا الزَّادُ أَمْسَى لِلمُزَلَّجِ ذا طَعْمِ
أَرُدُّ شُجَاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ ... وأُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيالكِ بالطَّعْمِ
مَخافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرُغْمٍ وَذِلَّةٍ ... وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلى رَغْمِ (٦)

فإذا كان هؤلاء الفقراء يقاسون ويتحملون وطأة الجوع الشديد على أجسامهم النحيلة ، فغيرهم من الأغنياء المترفين ينعمون في لذة العيش ، وطيب المأكولات . لذلك كرهوا الأغنياء البخلاء ، ورأي شعراء الصعاليك الفقراء واضح في البخل والبخلاء واللؤماء . يصرح عروة بن الورد بذلك قائلا :

وقدْ عَلِمَتْ سُلَيْمَى أَنَّ رأْيي ... ورأيَ البُخْلِ مختلفٌ شتيتُ
وأنّي لا يُرِيني البخْلَ رأيٌ ... سواءٌ إنْ عَطِشْتُ أو رَوِيتُ (٧)

---

(١) ينظر : ديوان عروة ، ص٧١. وديوان حاتم الطائي ، ص١١٢-١١٣ . وديوان الشنفرى ، ص٣٢ . وديوان تأبط شرا ، ص١٣٦،١٤٠ .

(٢) ينظر هذه الصورة في ديوان حاتم الطائي ، ص١١٢ . وديوان عروة ، ص٧٢-٧٣ . وديوان الشنفرى ، ص٣٤ .

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص١١٤ . وديوان الهذليين ، ١٢٨/٢ .

(٤) ينظر مثلا ديوان الشنفرى ، ص٣٤ .

(٥) ينظر لامية الشنفري ، ٥-٣ . وديوانه ، ص٣٣ . وديوان عروة ، ص٥٢،٦٩ . وديوان تأبط شرا ، ص١١٥ . وديوان الهذليين ، ١٢٨/٢،١٥٨ .

(٦) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢-١٢٨ . والأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١ .

(٧) ديوان عروة ، ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وراح هؤلاء الصعاليك – ليثبتوا رأيهم في البخل وكرههم للبخلاء – يأخذون بصفات السادة ، يعطون ويذبحون للضيفان ويكرمون الفقراء والأرامل والأيتام والضعفاء ، حتى بالغوا في كرمهم إلى أن أفقرهم بعد غنى . تحدث عن ذلك عروة بن الورد ، وأخبرنا في شعره عن كرمه وبذله ماله للفقراء والمحتاجين الذين يشكون له فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم في قوله :

إذا قُلتُ قد جَاءَ الغِنى حالَ دُونَهُ ... أبو صِبْيَةٍ يَشْكُو المَفَاقِرَ أَعْجَفُ

لهُ خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحَقُّ دُونَها ... كريمٌ أصابتْهُ خُطُوبٌ تُجَرِّفُ (١)

فكرم عروة هذا وبذله ماله للفقراء والمحتاجين سبب له الفقر .

ويصور تأبط شرا نفسه كريما فيقول من قافيته :

بلْ مَنْ لِعذَّالَةٍ خَذَّالَةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللّومِ جِلْدي أيَّ تَحْرَاقِ

يقولُ أهلكْتَ مالاً لو قَنِعْتَ بهِ ... مِنْ ثَوبِ صِدْقٍ ومِنْ بُزٍّ وأَعْلَاقِ

عَاذِلَتي إنَّ بعضَ اللّومِ مُعْنَفَةٌ ... وَهَلْ مَتَاعٌ وإنْ أبقيتُهُ باقِ (٢)

وإن كثيرا من أشعارهم نجد فيها صورا لهذا الكرم (٣) الذي يعللونه – وإن أفقرهم – بأن المرء غير مخلد (٤) .

وهذا كله من عزة أنفسهم وتقديسهم للحرية كما يقول عروة :

وإذا افتقرتُ فلنْ أُرى متخشّعاً ... لأَخِي غنى مَعْروفُهُ مكدُودُ (٥)

---

(١) السابق ، ص١٠٧–١٠٨ . المفاقر جمع مفقرة . له خلة : أي له حاجة . يقول : عنده من الفقر وسوء الحال مالا يقدر أن يدخل عليه في الصلة عندنا من كان له حق حتى أحمل على نفسي ولا أنقص هذا من حقه لخلته وفقره تجرف ماله .

(٢) المفضليات ، ص٣٠ . العذالة : كثير العذل . الخذالة : الذي يكثر خذلان صاحبه . والتاء فيهما للمبالغة . الأشب : المخلط المعترض يريد من يعينني على هذه العذالة . ثوب صدق مقابل ثوب سوء ، (الجيد) . البز : الثياب أو السلاح . الأعلاق : كرائم الأموال . يريد أنه يأمره بالبخل وإمساك يده . معنفة : عنف .

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص٣٠،٤٢،٤٤،٤٨،٩٠،١٠١،١٢٠،١٢١ . وديوان الهذليين ، ٥٤/٢. وديوان تأبط شرا ، ص١٤١،١٧٥ .

(٤) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص١٤١ . وديوان عروة ، ص٦٦ . وديوان الهذليين ، ١١١/٢ .

(٥) ديوانه ، ص٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتمثل كثير من أشعارهم عزة النفس ، واستهانتهم بالموت من أجل الحرية ، بعدا عن ذل الفقر وهوان الفقراء . "وللموت خير من حياة على رغم " (١) ، "فكل منايا النفس خير من الهزل" (٢) ، "وأستف ترب الأرض" (٣) خير من الذل والعبودية .

-٢-

الغزو والحروب والغارات

كانت القبائل العربية في العصر الجاهلي تشوب حياتها الحروب والأيام والغارات "وكأنما أصبحت الحروب سنة من سنن الحياة الجاهلية وشريعة مقدسة ، يحققون بها الحياة في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه القوة وتتحكم فيه ... وفي ظل هذه الحياة قامت العلاقات بين القبائل على أساس مجموعة من القوانين أهمها : قانون العصبية وقانون الثأر" (٤) .

فقضت أحوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو ، وهو في الواقع نوع من اللصوصية إلى مرتبة يقرها النظام القبلي ، فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية ، واستولى حب القتال على نفوس أهل البوادي ، حتى أصبح حالة عقلية مزمنة ، وأصبح شن الغارات نموذجا للأعمال التي يليق بذوي الرجولة الحقة أن ينصرفوا إليها (٥) .

وأيام العرب هي مناوشات قبلية تنشأ في الغالب بين القبائل بسبب النزاع على الماشية أو المراعي أو المياه ، وكانت تتوفر فيها فرص للغزو والنهب وإظهار البطولة الفردية والفروسية . فكانت معظم حوادث الإقتتال والحروب بعثتها عوامل اقتصادية بحتة (٦) .

وكانت بعض الجماعات والقبائل في الجاهلية يعتمدون الغزو والإغارة ، لكونه مصدرا من مصادر حياتها ، وجعلت أرزاقها في رماحها ، ومعاشها فيما بأيدي غيرها ، ويمثل تلك الجماعات القبائل التي استشعرت المنعة في نفسها والعزة بأبنائها ، واندفعت وراء القبائل

---

(١) ديوان الهذليين ، ١٢٨/٢ .

(٢) ديوان عروة ، ص١١٤ .

(٣) لامية الشنفرى ، للزمخشري ، ص١٢٠ .

(٤) الشعر وأيام العرب .. ، عفيف عبد الرحمن ، ص٧٣ .

(٥) ينظر تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣١/١ .

(٦) السابق ، ١١٩/١ .

"All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضعيفة ، تغير عليها ، وتسلب أموالها وتسبي نساءها وتأسر رجالها ، وأثناء ذلك تصلصل السيوف ويقعقع السلاح ، وتصهل الخيل حتى لتستمر الحروب شهورا وسنوات ، وتكاد تأتي على الزرع والضرع ، وتعطل مسيرة قافلة الحياة . وفي أيام العرب خير شاهد على ذلك ، فإن الأيام التي كان سببها الإغارة تكاد تستغرق أيامهم جميعا ، حتى ليصعب الفصل بين الأيام التي كان سببها حب الغزو والأيام التي كان سببها طلب الثأر (١) .

ونجد في الشعر الجاهلي التفاخر والتمدح بالشجاعة وبالحروب والأيام (٢) وبكثرة الغزو والإغارة (٣) . ونجد من كانوا في الفقر والغنى يحاربون ويقتتلون ويغيرون (٤) .

وقد تكون الحروب والغارات بين القبائل العربية ، وبين الحي الواحد (٥) وقد تكون ضد عدو أجنبي كالفرس (٦) على سبيل المثال .

دوافع الغزو والحروب والغارات في الشعر الجاهلي

قد يكون الدافع من أجل الغزو والقتال فحسب (٧) ، وللتفاخر والتمدح (٨) وقد يكون

---

(١) ينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص٤٦-٤٧ .وينظر "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، أحمد الحوفي ، ص٢٣٠ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان عنترة ، ص١٢٨ . وديوان سلامة بن جندل ، ص٢٥١ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص٩٦،١٠٩ . وديوان عبيد بن الأبرص ، ص٣٢ . وديوان بشر ، ص١٧٥ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص٦٥،٧٣ . وكانت الشجاعة من أسباب السيادة عند العرب ، ينظر ذلك في ديوان عامر بن الطفيل ، ص٢٨ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان لقيط بن يعمر ، ص٣٧-٣٨ . وديوان النابغة الذبياني ، ص١٤٦ . وشعر الصعاليك مليء بأحاديث الغزو والغارات ، ينظر مثلا ديوان تأبط شرا ، ص١٣٧،١٥٤،٢٠٦ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٦٢ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص٤٦ .

(٦) ينظر مثلا : ديوان لقيط بن يعمر القصيدة الأولى . وديوان عنترة ، ص١٢٠ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص٦٠ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص١٥،٢٨٠ – يفتخر بقتل خصمه الذي تأوي إليه الأرامل في الشتاء . ديوان الأسود بن يعفر ، ص٥٤ . وديوان عنتره ، ص١٦١ . والأصمعيات ، ص٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للثأر (١) أو للثأر والغنم معا (٢) . فالثأر وحب الانتقام بدافع الغضب عند الجاهليين جعل القتال شيئا ليس غريبا في بلادهم ، وظلوا دائما في حروب ومنازعات لا تنتهي . يشير إلى ذلك دُريد ابن الصّمّة من قصيدة يرثي فيها أخاه عبد الله :

يُغَارُ علينا واترِينَ فَيُشْتَفَى ... بِنَا إِنْ أُصِبْنَا أَوْ نُغِيرُ عَلى وِتْرِ
فَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا ... فَمَا يَنْقَضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلى شَطْرِ (٣)

أسباب بيئية واقتصادية

وقد يكون القتال والتناحر على المراعي (٤) ومناهل المياه (٥) . "وقد نشأت معظم أسباب القتال بسبب التزاحم على الماء والمرعى" (٦) . ومن أيام العرب ما كان سببها الاشتجار على المرعى والحدود والآبار والعيون لاعتماد الكثيرين على التنقل والترحال طلبا للكلأ والماء وللرعي إذا ما أجدبت الأرض وقل المطر (٧) . والأيام التي حدثت بين بطون القبيلة الواحدة كان الدافع الاقتصادي والصراع على موارد المياه ومنابت الكلأ هو الأساس الذي قامت عليه هذه الأيام (٨) .

فالحروب والغارات تستهدف – أحيانا – الحصول على الأماكن الخصبة للحصول على الكلأ والمياه . لذلك نجد التفاخر بصد الأعداء الذين جاءوا من كل جانب للاستيلاء على المراعي . يقول أوس بن حجر :

تَكَنَّفَنَا الأعداءُ مِنْ كُلِّ جانبٍ ... لِيَنْتَزِعُوا عَرْقَاتِنَا ثُمَّ يَرْتَعُوا

---

(١) ينظر مثلا : ديوان عامر بن الطفيل ، ص٢٧ .
(٢) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص١٩١ .
(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٤١/١ .
(٤) ينظر مثلا : الحماسة البصرية ، ٢٥٨/١ . وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص٣٦ .
(٥) ينظر مثلا : ديوان عنترة ، ص١٤٣ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢٢٥/١، ٢٩٧ .
(٦) تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣٢/١ .
(٧) ينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص٥٠ .
(٨) ينظر : "الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي" ، عفيف عبد الرحمن ، ص٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَمَـا جَبُنُـوا أَنَّا نَسُدُّ عليهِمُ ولكنْ لقُوا نَاراً تَحُسُّ وَتَسْفَعُ (١)

وتحصل الحروب والغارات ويكون الغزو عند المحل والجدب وقلة المطر . يقول عامر بن الطفيل العامري :

لِلّهِ غارتُنا والمَحْلُ قَدْ شَجِيَتْ مِنْهُ البِلادُ فَصَارَ الأُفْقُ عُرْيَانا

حتّى صَبَبْنَا عَلى هَمْدَانَ صَيِّقَةً سُوْرَ الكِلَابِ وَمَا كَانُوا لَنَا شَانا (٢)

ويقول أيضا مخاطبا "أسماء" مفتخرا بنفسه :

يا أَسْمَ أُخْتَ بني فَزَارَةَ إِنَّني غازٍ وإنَّ المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ

– وَأَنا ابنُ حَرْبٍ لا أَزالُ أَشُبُّها سَمَراً وَأُوقِدُهَا إذا لمْ تُوقَدِ

فـإذا تَعذَّرَتِ البِلادُ فَأَمْحَلَتْ فَمَجَازُهَا تَيْمَـاءُ أَوْ بالأَثْمُدِ (٣)

ويقول بشر بن أبي خازم الأسدي مفتخرا بنفسه وقومه بالقيام بالحروب والغارات والغزوات على الخيول القوية ، وأنهم يستبيحون أرض نجد ويغلبون عليها أهلها حين يقل المطر وتمحل الأرض ويعم الناس الجدب ، ومن ذلك يقول :

كَفَيْنَـا مَـنْ تَغَيَّـبَ واسْتَبَحْنَـا سَنَامَ الأَرْضِ إِذْ قَحِطَ القِطَارُ (٤)

ويقول معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب مفتخرا بأنه إذا نزل المطر بأرض قوم فأخصبت سار وقومه إليها ورعوا نباتها غصبا :

إذا سَقَطَ السَّمَـاءُ بِأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَيْنَـاهُ وإنْ كَانُـوا غِضَابا (٥)

---

(١) ديوانه ، ص٥٧ ، العرقات : بفتح العين ، هي أصل كل شيء ، وبكسرها جمع عرقة بكسر العين وهي بمعناها . والبيت الثاني في لسان العرب مادة "سدد" . أي "لم يجبنوا من الإنصاف في القتال ولكن حشرنا عليهم فلقونا ونحن كالنار التي لا تبقي شيئا" .

(٢) ديوانه ، ص١٣٧. شجيت : امتلأت أو حزنت . الأفق الجمع الآفاق : النواحي من الأرض ونواحي السماء . عريانا : من الغيم والنبات . همدان : قبيلة يمنية . صيقة : غارة ذات صيق : وهو الغبار . سؤر : البقية . "ما كانوا لنا شانا" : أي لم نهتم بهم .

(٣) ديوانه ، ص٥٦ . والأصمعيات ، ص٢٥٢ . والمفضليات ، ص٣٦٤ . أشبها : أذكيها وأوقدها . سمرا : ليلا . تعذرت : تغيرت . أمحلت : أجدبت . مجازها : مشربها . "تيماء والأثمد" : موضعان .

(٤) ديوانه ، ص٧٣ . والمفضليات ، ص٣٤٣ . سنام الأرض : أرفع بلاد نجد . قحط القطار : أي قل المطر وأجدب الناس .

(٥) الحماسة البصرية ، ٢٥٨/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الجوع – وهو أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان – كان دافعا للإغارة من أجل الحصول على الطعام ، والجوع أثر من آثار الفقر ، "لذلك فإن كثيرا من الصراع الداخلي بين القبائل الجاهلية إنما يرجع – من بعض جوانبه – إلى الفقر والجوع" (١) .

وللجوع والجياع حديث لنا في موضع آخر من هذا البحث في فصل نتحدث فيه عن الجوع كأثر من آثار الفقر ، ودافع قوي للغارات والغزو .

ولكن تجدر الإشارة إلى قول الأعشى الكبير ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب الكندي ، بأنه صاحب همة في الحرب . فهو ليس كالذي يحارب ليشبع بطنه من جوع ، فإذا أتخم تراجع وسكن وإذا ما فاتته أكلة تداركها بأخرى ، ولكن الممدوح له في كل عام غزوة تفني دوابر الخيل وتحت حوافرها حت المبرد الخشن . يقول الأعشى :

وَلَمْ تَسْعَ للحربِ سَعْيَ امرئٍ ... إذا بِطْنَةٌ رَاجَعَتْهُ سَكَنْ

عَلَيْهَا وإنْ فَاتَهُ أَكْلَةٌ ... تَلافَى لأُخْرَى عَظِيمَ العُكَنْ

تَرى هَمَّهُ نَظَراً خَصْرَهُ ... وَهَمُّكَ في الغَزْوِ لا في السِّمَنْ

وفي كلِّ عامٍ لهُ غَزْوَةٌ ... تَحُتُّ الدَّوابِرَ حَتَّ السَّفَنْ (٢)

فقول الأعشى يدل على وجود فئة تحارب إذا ما أصابها الجوع .

والحقيقة أن الفقر كان دافعا من دوافع الحروب والاقتتال والغزو والإغارة في العصر الجاهلي . فالشخص الفرد يقاتل إذا افتقر ، وكذلك القبائل إذا أجدبت وافتقرت تغزو وتغير على قبائل أخرى ذات خصب أو مال .

فالجزيرة العربية قليلة الخيرات ، شحيحة الماء ، تضيق مراعيها بإبلها وأنعامها ... وقد أشاعت هذه العوامل الفقر بين سكانها ، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات ... ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هينة عليه أحيانا . فالفقر وقلة الخير كانا سببين من أسباب العداء الطويل بين القبائل العربية في العصر الجاهلي ، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع . والتسابق على منابت الكلأ والرغبة في الاستيلاء على جزء كبير منه خليقان أن يؤديا إلى تصادم واقتتال ، فإذا عرفنا قلة هذا الكلأ أدركنا عنف القتال (٣) .

---

(١) نقلا عن "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" ، يوسف خليف ، ص٢٩–٣٠ . وينظر في غارة كان سببها الجوع في الأغاني (بيروت) ، ٢٤٣/٢١ .

(٢) ديوانه ، ص٧٣ . والعكن : طيات البطن من الشبع والسمن . الدوابر : مآخير الحوافر . السفن : المبرد . تحتها : تقشرها وتبردها .

(٣) ينظر الشعر الجاهلي وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن ، ص٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان معظم من يشنون الغارات ، ويقومون بالحروب والغزوات يحرصون على استجلاب المال والغنائم وكذلك الأسرى والسبايا ويحرصون على الاغتناء والثراء ابتعادا عن شرور الفقر المادية والاجتماعية* .

ونجد الشعراء الجاهليين قد تمدحوا باستجلاب المال إذا قل أو ذهب ، وذلك عن طريق الغزو . يقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وَأَبْيَضَ كالسَّيْفِ يُعْطَى الجَزِيلَ ... يَجُودُ وَيغْزُو إذا ما عَدِمْ(١)

وإذا كان ممدوح الأعشى شريفا جوادا يقدر على استجلاب المال من الغزو ، فإن ثمة فقيرا أشعث ذا عيال فقراء ، همهم ما ينفقون في صيفهم وشتائهم ، أشاروا على أبيهم أن ينصرف ويغزو على رجليه "وسط الأراجل" حتى يكسب لهم نفقتهم من هذا الغزو ؛ وإنما طلبوا أن يكون غزوه وسط الأراجل لأنه ليس له ما يركبه لفقره . فذهب هذا الغازي وقد احتضن نعليه ولبس نصف فروة خروف واستقرب مكان الغزو راجيا الكسب لأولاده من غزو قوم أبي ذؤيب الهذلي الشاعر . فماذا كانت النتيجة ؟ ... لقد قتله أبو ذؤيب فأراحه من غيظه الذي يجده من الفقر وكثرة العيال بطعنة أخذ الدم يرش على قدميه . يقول من ذلك أبو ذؤيب الهذلي :

وَأَشْعَثَ بَوْشِيٍّ شَفَيْنَا أُحَاحَهُ ... غَداتئِـــذٍ ذِي جَـرْدَةٍ مُتَمَاحِـلِ
أَهَـمَّ بَنِيـهِ صَيْفُهُـمْ وَ شِتَاؤُهُمْ ... فَقَالوا : تَعَدَّ واغْزُ وَسْطَ الأَرَاجِلِ
تَأَبَّـطَ نَعْلَيْـهِ وَشِقَّ فَرِيـرِهُ ... وَقَـالَ : أَلَيْسَ النَّـاسُ دُونَ حَفَائِلِ(٢)

ونجد من لا يقصر عن الغزو ما دام ماله ينقص ويموت ولو كانت نهايته في هذا الغزو ، فإنه من ثقل إبله ويقصر عن الغزو يفتقر ويكون غبوقه ماء خالصا ، وسيكف عن الغزو إذا اتسع المراح وصار صاحب إبل كثيرة ، لذلك فهو جاد في الغزو ... يريد الغنى والثرا ، لأن الأغنياء يثنى عليهم بالرغم من قبح وجوههم ، فالمال يزينهم ويستر على الناس عيوبهم ، ترى الفقراء

---

(١) ديوانه ، ص٨٥ . والمعنى : ربما حل الأعشى برجل شريف كالسيف الصقيل يجود على سعة ، فإذا أعوزه المال استجلبه من وجهه بالغزو .

(٢) ديوان الهذليين ، ٨٣/١ . أحاحه : غيظه . ذي جردة أراد شملة صفراء خلقة . المتماحل : الطويل ما بين الطرفين . حفائل : موضع . تأبط شق فريره : حمل معه نصف خروفه أو لبس نصف فروه . والشاعر يريد السخرية بهذا الغازي في البيت الثالث .

* ولقد كان الصعاليك يحرصون كل الحرص على استجلاب المال من الغارات والغزوات ، ينظر مثلا ديوان عروة ، ص٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعظمون ويسجدون للأغنياء وإن لم ينالوا منهم شربة لبن مخلوط بالماء . (١) .

ومن الجاهليين من كان يغزو كل عام ، يتحمل المشاق والصعاب ، لأن في الغزو المال والمجد . يقول الأعشى في مدح هوذة بن علي :

وفي كُلّ عام أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزائكا

مورِّثَةٍ مالاً وفي الحَمْدِ رِفْعَةً لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِن قُرُوءِ نِسَائكا (٢)

ففي القتال والحروب استجلاب المال ، فالكل يذهب إلى هذه الحروب من كلا الفريقين يبحث عن مال يقتنيه أو مغنم يصيبه (٣) ومن أجل الإبل (٤) ومن أجل الحصول على المال والإبل معا (٥) ومن أجل الغنائم (٦) يقول قتادة بن مسلمة مختتما قصيدته الطويلة في الحروب والقتال ، معاهدا نفسه على الغزو :

فَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِي الغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ (٧)

والأعشى يمدح قيس بن معد يكرب الكندي بأنه رفيق حاذق لشئون الحرب مغامر قد ألف القتال وأحبه ، لا تنال يداه غنيمة حتى يشد الركاب لغنيمة أخرى يغتصبها من صاحب نعمة مترف ليصل بها رحمه وذوي قرباه ، يقول :

ثَقِفٌ إذا نَالَتْ يَداهُ غَنِيمَةً شَدَّ الرِّكَابَ لِمِثْلِهَا لِيَنَالَها (٨)

---

(١) ينظر شعر لمالك بن الحارث أخو بني كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هديل في ديوان الهذليين ، ٣/٨١-٨٢ .

(٢) ديوانه ، ص١٤١ . جشم الشيء وتجشمه تكلفه وتحمل متاعبه . العزيم : العزم والجد والعدو الشديد . العزاء : الصبر . القراء : الحيض أو هو ما بين الحيضتين : يعني عندما تعود بالمال والمجد من غزوك يعوضك عما عانيت من البعد عن نسائك اللاتي يترقبن عودتك .

(٣) ينظر شعر للأعشى في ديوانه ، ص٣٥٩ . وينظر ص٨٥ : دخول الحروب والغزو من أجل المال .

(٤) ينظر مثلا : ديوان سلمة بن جندل ، ص٢٠٠-٢٠١ يخاطب ابنته التي تخاف عليه أن يذهب وحده للغزو ، فيجيبها أنه يريد هجمة من الإبل أو يتلف نفسه ، ديوانه ، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان الهذليين ، ٣/٨٢-٨٣ . وديوان تأبط شرا ، ص١٥٧،١٨٦ . وديوان عنترة ، ص٧٩ .

(٦) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص١٨٣ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ص٣٠١،٣٢٢ .

(٧) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١/٣٢٢ .

(٨) ديوانه ، ص٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقاتلـون أيضا لجلب الأســـرى والسبايا لأن فيهم المنفعـــة المادية ، لأن الأسير يفدى بمال (١) ، خصوصا إذا كان هذا الأسير من الأغنياء . "فكان الفارس منهم يحرص على اختيار الأسير الغني ليحقق لنفسه المكسب الوفير ، ولا يقتلون الأسير إلا إذا كان مطلوبا بثأر ، ليأخذوا فديته" (٢) يقول عوف بن عطية بن الخرع التيمي ، من تيم الرباب وهو من فرسان الجاهلية يخاطب قوما غزاهم في فتيان من عشيرته ويصف ما أصاب نساء هؤلاء القوم من ذهول واضطراب لما فجعن ورزئن ، ثم يصور حال الرجال بين سابح في الرمح ... ، وأسير وممنون عليه بالفداء . يقول :

فَهُمَ ثَلاثَـةُ أَفْرِقَـاءَ فَسَابِـحٌ ... في الرُّمْحِ يَعْثُرُ في النَّجِيعِ الأَحْمَرِ
وَمُكَبَّـلٌ يُفْـدَى بِوَافِـرِ مَالِـهِ ... إِنْ كَانَ صَاحِبَ هَجْمَـةٍ أو أَيْصَرِ
أَوْ بَيْـنَ مَمْنُونٍ عَلَيْـهِ وقَوْمِـهِ ... إِنْ كَـانَ شَاكِرَهَـا وإِنْ لَـمْ يَشْكُـرِ (٣)

وعلى كل الأحوال كان معظم الجاهليين يدخلون في حـروب ونزاعـات ويقومـون بـالغزوات والغارات ، فالفقير يقاتل طلبا للغنيمة والغني يقاتل دفاعا عن ماله وعزه . يشير طرفة بن العبد إلى ذلك – مخاطبا بني تغلب – وكأنـه يقول : يقاتلكم غنينا دفاعا عن مالـــه، وفقيرنا طلبا للغنيمـة ، يقول :

تَذْكُـــرُونَ إِذْ نُقَاتِلُكُـــمْ ... لا يَضُـرُّ مُعْدِمًـا عَدَمُـهْ
أَنتُـمُ نَخْـلٌ نَطِيفُ بِـهِ ... فَإِذا مَـا جُـزَّ نَصْطَرِمُـهْ (٤)

وكثيرا ما ذكر الشعراء الجاهليون وقت الصباح خير وقت للغزو والغارات والحروب (٥)

---

(١) ينظر مثلا : ديوان سلامة ، ص١٧٦ . والمفضليات ، ص٣٢٨ . وديوان النابغـة الذبيـاني ، ص١٦٤ .

(٢) الشعر وأيام العرب ... ، عفيف عبد الرحمن ، ص٨٥ .

(٣) المفضليات ، ص٣٢٨ . من مقطوعة شعرية من سبعة أبيات . أفرقاء : جمع فريـق ، سـابح في الرمح : يريد أنه طعنه ثم أجره الرمح . المكبـل : المقيد . الهجمـة : القطعـة مـن الإبـل مـن ثلاثين إلى مائة . الأيصر : الكساء يحمل فيه الحشيش .

(٤) ديوانه ، ص١١٦ . نصطرمه : نقطعه . جز : حان جزه .

(٥) ينظر مثلا ديوان الأعشى ، ص٦٠ . وديوان قيس بـن الخطيم ، ص٩١ . وديـوان الأسـود بن يعفر ، ص٥٤ . وديـوان عمـرو بـن قميئـة ، ص١٧٩ . والأصمعيـات ، ص١٦٤ . وديـوان عنـترة ، ص٧٩ . وديـوان عـامر بـن الطفيـل ، ص٣٢،٣٧،٤٩،٦٧،٩٤،٢١٦،٢١٧،٢٢١ . وديوان امرئ القيس ، ص٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تكون الحرب من الغدوة إلى أول الليل (١) .

وقد حرص الجاهليون على أسلحة الحروب والغارات ، فحرصوا على اقتناء رمح مدبب وسيف صقيل ودرع سابغة وفرس جرداء ، واعتمدوا على القوة الجسدية والصفات المعنوية كالإرادة القوية والصبر والتحمل . وإن تقديس العرب للسلاح كان ينبثق من الحاجة الحقيقية التي كان يؤمن بها من الإحساس العميق بما كانت تؤديه له كل عناصره .. ولأنها وسائلهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن العزة وتطمين الرغبات . ولعزة مواقع الأسلحة المادية في نفوسهم وقيمتها في حياتهم كانوا يرهنونها إذا أصابهم أمر عظيم أو حلت بهم كارثة أو تعرضوا لمسألة قاهرة . ولأن هذه العناصر مجتمعة تمنح القوة النفسية التي يتمكن بها من تجاوز مصاعب الحياة ومقاومة أسباب الصراع وإيقاف كل المطامع ... ولأن هذه الوسائل تمثل الطريق الذي يمكن من خلالها الوصول إلى السعادة والسيادة والعزة والمجد (٢) .

ولعل أهم وسائل الحرب والغزو هي الخيل ، فهي أفضل الأسلحة والوسائل لدى الجاهليين في غاراتهم وغزوهم (٣) . وكثيرا ما افتخر الشعراء بالخيل المضمرة العتاق واقتنائها (٤) . وكانت حاجة الجاهلي للخيل كبيرة . يقول بشر بن أبي خازم في خيله :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا فَقْرِي إِلَيْهِ ... إِذَا مَا القَوْمُ كَرُّوا أَوْ أَغَارُوا (٥)

وكانت الخيل مكرمة لدى الجاهليين لفضلها وأهميتها وخيرها . فهي تأتي بالنهاب بعد النهاب في الغزو والغارات والحروب (٦) فتشهد غنما وتدافع عن القبيلة أيضا فهي مقربة معززة . يشير إلى ذلك مالك بن حريم – مفتخرا بخيله – في قوله :

مُقَرَّبَةً أَدْنَيْتُهَا وافْتَلَيْتُهَا ... لِتَشْهَدَ غُنْماً أَوْ لِتَدْفَعَ مَدْفَعَا (٧)

---

(١) ينظر ديوان بشر ، ص٥٢ .

(٢) ينظر "شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري" ، نوري حمودي القيسي ، ص٧٤–٧٥ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان النابغة الذبياني ، ص١١١ . وديو ان الأسود بن يعفر ، ص٢٢ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص٢١ . وديوان عنترة ، ص١١٩ .

(٤) ينظر ديوان عامر بن الطفيل ، ص٤٥ . وديوان عنترة ، ص١٢٨ .

(٥) ديوانه ، ص٧٩ . وينسب البيت للسليك بن السلكة في لسان العرب مادة "ركب" .

(٦) ينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص٤٣ .

(٧) الأصمعيات ، ص٦١ . المقربة : المؤثرة بالمكرمة . افتليتها : اتخذتها أو نتجتها ، يعني أنها ولدت عنده فهو عارف بكرمها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعود الخيل بالإبل والأنفال والأسلاب آخر النهار (١) وبالأسارى والسلب (٢) ، وكان من يرجو أن تأتي له الخيل بالغنائم لأن هناك من ينتظره من أبنائه (٣) . والخيل تغني الصعلوك ، لذلك فهي عز ظاهر ، يقول الأسعر الجعفي :

إنّي رأيتُ الخيْلَ عِزّاً ظاهراً ... تُنْجِي مِنَ الغُمّى وَيَكْشِفْنَ الدُّجَى

وَيَبِتْنَ بالثَّغْرِ المَخُوفِ طَلائعاً ... وَيُثِبْنَ للصُّعْلُوكِ جَمَّةَ ذِي الغِنَى (٤)

والخيل تغني الفقير ، وفي الوقت ذاته لا تبقي في غاراتها – أحيانا – لا أهل ولا مال (٥) ، فكم من فقير أغنته هذه الخيل بالغنائم ، وغني أغارت عليه فأفقرته . يقول سلامة بن جندل في الخيل :

كَمْ مِنْ فَقِيرٍ بِإِذْنِ اللّهِ قَدْ جَبَرَتْ ... وذِي غِنَى بَوَّأَتْهُ دَارَ مَحْرُوبِ (٦)

فالخيل مفداة مكرمة لا تباع (٧) تشبع ويجاع لها العيال (٨) ، وهي تشرب حليب النوق وتسقى اللبن كما يقول خُزَزُ بن لوذان – ويعرف بالمرقم الذهلي – يخاطب زوجته بأنه سوف يهجرها ذاكرا إطعامه فرسه .. لأنها غالية عليه ، فهي تحمي الديار وتحمي الزوجة ، يقول زاجرا زوجته :

إن الغَبُوقَ لَهُ وأَنْتِ مَسُوءَةٌ ... فَتَأَوَّهِي ما شِئْتِ ثُمَّ تَحَوَّبِي (٩)

وتستخدم الإبل – أحيانا – مع الخيل في غاراتهم البعيدة ، فيركبون الإبل ويسوقون أمامها الخيل فلا يركبونها إلا إذا قاربوا موقع الغارة حتى لا تتعب وتجهد ، لينزلوا إلى القتال

---

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص٧٣ ، ٢١٩ .

(٢) ينظر مثلا : الحماسة البصرية ، ٣٣/١ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص٢٩ .

(٤) الأصمعيات ، ص١٥٨ . يثبن : يعطين من الإثابة . الجمة أصلها معظم الماء .

(٥) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص١٨٣ .

(٦) ديوانه ، ص١٠٩ . بوأته : أنزلته . جبرت : أغنته ولمت شعثه . محروم : مسلوب ، والمحروم هو هذا الغني نفسه .

(٧) ينظر ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٦٧/١ .

(٨) ينظر الحماسة البصرية ، ٢٥٥/١ .

(٩) الحماسة البصرية ، ٥٧/١ . الغبوق : اللبن يشرب بالعشي . التحوب : الشكوى والتفجع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موفـورة القوة والنشاط (١) . وذكر الشعراء الغارات البعيدة (٢) وكان المغيرون يتسابقون على القتـال كما يتسابق الظماء على الماء (٣) وقد أهريـق ما بقي من المـاء ليقـاتل المقاتلـون على مـاء العدو (٤) .

وقد قرن بعض الشعراء الحـرب برياح الدبـور (٥) والشمال (٦) ، والنكبـاء التـي ذكرهـا رجل من خثعم في رثاء قومـه الذيـن اقتتلوا فـي داخـل حديقـة وأغلقوا بابهـا حتـى تفـانوا (٧) . والمعروف أن هذه الرياح يتشاءم منها العرب لأنها تشيع القحط والجدب والفقر .

وللحروب والغارات آثار ونتائج سلبية سيئة على الخاسر أو المنهزم ، وثمـة نتـائج إيجابيـة لصالح الفائز أو المنتصر . وقد تسبب الدمار والخراب لكلا الفريقيـن ، خصوصـا إذا كـانت هذه النزاعات طويلة .

فالحـروب تغيـر الأحـوال (٨) ، فهي تغنـي وتفقـر (٩) . يقـول الأعشـى ميمـون ابـن قيـس في مـدح الأسـود بـن المنـذر اللخمـي وهـو من إخـوة النعمـان بـن المنذر ملك الحيـرة :

رُبَّ رَفْـدٍ هَرَقْتَـهُ ذلكَ اليَـوْ ... مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَالِ
وَشُيُـوخٍ حَرْبَى بِشَطَّيْ أَرِيكٍ ... وَنِسَـاءٍ كَأَنَّهُـنَّ السَّعَالِي
وَشَرِيكَيْنِ فِي كَثِيـرٍ مِنَ المَـا ... لِ وَكَانَـا مُخَالِفَـيْ إِقْـلَالِ

---

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٠١ .
(٢) ينظر مثلا المفضليات ، ص٣٥١ .
(٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٢٩ .
(٤) ينظر السابق ، ص٨٠١ .
(٥) ينظر السابق ، ص١٤٩ .
(٦) ينظر الأصمعيات ، ص١٥٩ .
(٧) ينظر ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٣٤/١ .
(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص٦٣ .
(٩) ينظر مثلا : ديوان سلامة بن جندل ، ص١٠٩ . وديوان الأعشى ، ص٨٣ ، ٢٧٣ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص١٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَسَمَا الطَّارِفَ التَّلِيدَ مِنَ الغنـ ـمِ فآبا كِلاهُمَا ذُو مَالِ (١)

فكان من نتائج غارة الأسود هذا : الموت والأسرى وذل النساء ، وشيوخ أخرجوا عما يملكون من مال فأصبحوا فقراء ، ورجلان من جند الأسود كانا معدمين حليفي فقر وإقلال قسما ما اجتمع لهما من الغنائم بين طارف وتليد فآبا كلاهما ذا مال : أي أنهما أصبحا من الأغنياء .

فهذه هي الحروب والغارات في الجاهلية بين عائد بالغنائم والنهاب ومنهزم يخسر ماله وحياته .

ومن نتائج الغزو الفقروالإعدام وإزالة النعم عن أصحابها . وتحدث الشعراء عن ويلات الحروب وأنها تفقر الناس ، وتستلب المال وتسبب الجوع والفقر .

يقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب في غاراته :

وَلَقَدْ جَرَرْتَ إلى الغِنى ذَا فَاقَةٍ وأَصَابَ غَزْوُكَ إِمَّةً فَأَزالها (٢)

ويقول بشر بن أبي خازم في الفخر بالأيام والحروب ، ونتائجها على أعدائهم :

فَأَصْبَحُوا بَعْدَ نُعْمَاهُمْ بِمَبْأَسَةٍ والدَّهْرُ يَخْدَعُ أَحْيَانا وَيَنْصَرِفُ (٣)

فليس النجاح والنصر في الحروب والغزوات كالخيبة والهزيمة فيها . وشتان بين الحالتين . فليس الخائب في غزوة كالغانم ، فالأول شبيه بالمرأة العاقر والثاني شبيه بالمرأة الولود . يقول عبيد بن الأبرص من معلقته :

أَعَاقِرٌ مِثْلَ ذَاتِ رِحْمٍ أَمْ غَانِمٌ مِثْلُ مَنْ يَخِيبُ (٤)

فقد يغزو أحدهم فيغنم وقد يخيب ، كما يقول الشنفرى الأزدي الصعلوك في تائيته :

---

(١) ديوان الأعشى ، ص٦٣ . يكني بإراقة الرفد عن الموت . وأصل الرفد : القدح الضخم . أقتال : أصحاب ترات جمع قتل بكسر فسكون وهو العدد . حربى جمع حريب : وهو من حرب ماله أي سلبه . السعالي : الغيلان . "... الطارف التليد : يعني : رجلين من جنده غنما هذا المال وكان تليدا قديما موروثا عند أصحابه فأصبح طارفا أي جديدا مستحدثا عندهما" . وكان في هذا اليوم غارة الأسود على الحليفتين : أسد وذبيان .

(٢) ديوانه ، ص٨٣ . الإمة : النعمة .

(٣) ديوانه ، ص١٣٩ . ينصرف أي ينقلب وينصرف عن الوجه الذي كان فيه . المبأسة : البؤس : الشدة والفقر . وجاء أيضا في لسان العرب مادة "بأس" أن البأساء إسم للحرب والمشقة ، والبأس والعذاب والشدة في الحرب ، والخوف .

(٤) ديوانه ، ص٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بَعَثْتُها وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً وَيُشَمَّتِ (١)

وقد يجدون في حروبهم الخسران والبوار .(٢)

ولا تخلف الحروب والنزاعات والغارات الآثار المذهلة والمدمرة فحسب بل وتزهق الأرواح وتيتم وترمل النساء وتثكل الأمهات وتنتشر الجوع والأمراض . وهذا ما يصوره لنا الشعراء الجاهليون .

فتكون آثار الحرب مدمرة على طرفي النزاع والشقاق (٣) وفيها تهديم للدور والبيوت والضياع (٤) . وتنتشر جثث القتلى ويكثر الجرحى (٥) وتتناثر الجماجم (٦) وتفرح الضباع لتلك الجثث كما جاء في شعر بعض الجاهليين (٧) ، وتجد النساء الحبالى مفجعات يبلن دما من شدة الخوف (٨) وتجد السبايا الجائعات الهزلى (٩) تمتهن الخدمة كالإماء المبتذلة المهانة الحقيرة (١٠) وترى الأسرى (١١) يشكون من ذلهم وهوانهم . لذلك تجد المفاخرة

---

(١) المفضليات ، ص١١٠ . الباضعة القاطعة ، يعني قوما غزاة . حمر القسي يعني احمرت قسيهم للشمس والمطر لكثرة غزوهم . يشمت : يخيب .

(٢) ينظر ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٩٧/١ . وديوان الأعشى ، ص٣٤١ .

(٣) ينظر مثلا الحماسة البصرية ، ١٧٥/١ ، والمنصفات أو القصائد رقم "١١٦" "١١٧" "١١٨". وديوان سلامة ، ص١٦٥-١٦٩ . وديوان عنترة ، ص٤٠ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص٩٣ .

(٥) ينظر السابق ، ص١١١ . وديوان امرئ القيس ، ص١٥٧ .

(٦) ينظر ديوان عنترة ، ص١٣٥ .

(٧) ينظر ديوان بشر ، ص٩٣ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص١٤٤ . والأصمعيات ، ص١١٩ .

(٨) ينظر ديوان عامر ، ص١١٨،١٢٩ .

(٩) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١٥٧ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٣١،٣١١ . والأصمعيات ، ص١٧٦ .

(١١) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص١٦٧-١٧٠ . وديوان الأفوه الأودي ، ص٨ . وديوان عنترة ، ص٣٧ . وديوان عامر ، ص٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتمدح بمن يفك أسيرا أو يفتدي عانيا (١) ، ونجد في شعر الرثاء بكاء الأسرى والسبايا على المرثي (٢) .

وفي الحروب أيضا تنتهك الحرمات وتسلب الأموال (٣) وتنهب الإبل والأنعام (٤) .

ولا تخلف الحروب والغارات إلا المعاناة والفقر والفقراء . فتخلف الأيتام والأرامل والأيامى (٥) ، يقول جَحْدَر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة في يوم التحاليق ، وكان هذا اليوم لبكر على تغلب من أيام حرب البسوس التي دامت أربعين عاما :

قَدْ يَتَمَتْ بِنْتِي وَآمَتْ كَنَّتِي وَشَعِثَتْ بَعْدَ الرِّهَانِ جُمَّتِي (٦)

وتخلف الأسرى والسبايا (٧) ، والرقيق (٨) من الإماء (٩) والعبيد (١٠) . وإن بعضهم كان يعيش الأسير الرئيس في بؤس وشقاء إذا لم يفتد ، وكانوا يطلقون سراح الفقير ، وهذا مدعاة

---

(١) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص١٧٢ . وشرح ديوان لبيد ، ص٢٥١ . وديوان سلامة بن جندل ، ص٢٠٢ . وديوان الأعشى ، ص٥٩ . وديوان الخنساء ، ص١٤،٧٥ . وديوان زهير ، ص١٦٨ . وديوان بشر ، ص١٠٨ . وديوان امرئ القيس ، ص١٧٣ .

(٢) ينظر شاعرات العرب .. ، ص٧٣،٩٣ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص١٨ . وديوان عنترة ، ص٤٣،٦١ . وديوان شعر المثقب العبدي ، ص٢٥٤ . وشرح المعلقات السبع ، ص١٤٢ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٩٩،٣٥١ . وديوان الأفوه الأودي ، ص١٧ . وديوان عنترة ، ص١٧٥ . وديوان الشنفرى ، ص٣٢ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٩٩ . وديوان عنترة ، ص١٨٧ . والمفضليات ، ص٤١٧ . والأصمعيات ، ص٧٦ .

(٦) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١/١٩٥ . آمت من الأيمة : بقيت بلا زوج . والكنة : امرأة الأخ أو الابن . الشعث : اغبرار الرأس . والجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٧) ينظر المفضليات ، ص٣٣٢ . وديوان عنترة ، ص٧٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص١١٢ .

(٨) ينظر المفضليات ، ص٣٣٢ .

(٩) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص١٣٧ .

(١٠) ينظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص١٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للفخر والتمدح عندهم (١) ، وكان الأسير يجوع ويعرى (٢) ، لذلك نرى بعض الشعراء قد هجا من يمنع الأسير عن الطعام ويسلب ثيابه (٣) .

وتخلف وراءها كذلك المحروب والمسلوب (٤) وهما كانا غنيين وأصبحا فقيرين بعد الحرب وغارات الخيل عليهما .

يقول بشر في الحريب و المسلوب وهو يفخر في الحروب بأخذ جميع الأموال من الخصوم وإذلالهم :

لَحَوْنَاهُمُ لَحْوَ العِصِيِّ فَأَصْبَحُوا عَلى آلةٍ يِشْكُو الهَوانَ حَرِيبُها (٥)

وقد ينتج عن الحروب إذا ما كفت وانتهت بصلح مثلا : تحمل الحقوق والديات . ولا يستهان بأمر الديات في العصر الجاهلي ، فقد كان يكلف الكثير ، فبعضهم كان يدفع الطارف والتليد في الديات (٦) والبعض يدفع ثلث الأموال كما يقول عمرو بن كلثوم في أمواله وأموال قومه :

ثَلاثَـةُ أَثْلاثٍ فَأَثْمَـانُ خَيْلِنَـا وَأَقْوَاتُنَا وَمَا نَسُـوقَ إِلى القَتْلِ (٧)

فبحسبة بسيطة كانت حروب عمرو بن كلثوم وقومه تكلفهم ثلثي أموالهم . ويتمدح الشعراء بمن يدفع الديات عن الخصوم المتصارعة (٨) .

وللحروب والغارات والنزاعات الفردية والقبلية آثار نفسية لا تخفى على أحد . فكان الهلع والخوف والقلق الشديد يصيب الأطراف المتحاربة وغير المتحاربة . فمن قسوة البيئة الصحراوية إلى قسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

---

(١) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص١٤٦ .

(٢) ينظر ديوان الهذليين ، ١٣/٣ .

(٣) ينظر الحماسة البصرية ، ٢٠٥/١ .

(٤) ينظر المفضليات ، ص٥٧ . وديوان بشر ، ص٤٦ . وديوان طرفة ، ص٩٩ . وديوان عبيد بن الأبرص ، ص٢٤ . وديوان سلامة ، ص١٠٩ . وديوان الأعشى ، ص٦٣ . وشرح المعلقات السبع ، ص١٤١ .

(٥) ديوانه ، ص١٨ . اللحو : قشر العود . الآلة : الحالة . والحريب الذي سلب ماله .

(٦) ينظر المفضليات ، ص٣٥٨ .

(٧) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٨٤/١ .

(٨) ينظر شرح شعر زهير ، ص٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد أن الغارات والحروب قد أثارت الفزع لدى الأغنياء . ونجد من أخذ من القبائل بالرعي في ديارها غير مبتعدة .. خوفا من الغارات عليها ، كما يشير عامر بن الطفيل إلى ذلك :

تَرْعَى فَزَارَةُ في مَقَرِّ بِلادِها وَتَهِيمُ بَيْنَ شَقَائِقٍ وَرِمَالِ (١)

فنجد من يحذر القوم من الأعداء لأن الحروب تودي بالأموال وكذلك الأنفس ، كما يشير إلى ذلك لقيط بن حارثة بن معبد الإيادي يحذر قومه من غزو كسرى لهم في قوله :

لا تُثْمِرُوا المَالَ للأَعْدَاءِ إِنَّهُمُ إِنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوُوكُمْ والتِّلادُ مَعَا (٢)

ونجد بالمقابل التهديد بالحرب وشن الغارات لبث الرعب في قلوب الأعداء (٣) والتغني بالبطولات وبالقوة والشجاعة . فلأمر ما يقول عمرو بن كلثوم مختتما معلقته مفتخرا :

إِذا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا (٤)

ولا نعدم من كان يسعى للصلح في العصر الجاهلي ، ويحلم بالسلم والسلام بعيدا عن الحروب والغارات (٥) فالجميع كان إلى الصلح أفقر (٦) في الجزيرة العربية القاسية .

ونتيجة لمراجعة الشعر الجاهلي نستطيع حصر فلسفة الجاهليين في الحروب والغارات في ثلاثة أشياء : المرء ليس له مهرب من الموت ولو كان في فراشه ، فهو غير مخلد (٧) . وعزة وأنفة الإنسان الجاهلي وحبه للحرية وتقديسه لها فهو لا يقبل الذل على نفسه (٨) ولو كلفه حياته . ولبناء الأمجاد والتفاخر والذكر الحسن (٩) . وأشك في أن الفقير على فقره يستطيع أن يبني هذه الأمجاد والذكر الحسن ؛ فليتملص من الفقر وسياطه أولا .

---

(١) ديوانه ، ص٨٩ . الشقائق : جمع شقيقة من الرمل قطع غلاظ بين جبلي رمل . وينظر ديوان الأعشى ، ص١٢٥ ، يحبس أصحاب الإبل إبلهم خوفا من غارات الممدوح .

(٢) الحماسة البصرية ، ٢٨٨/١ .

(٣) ينظر مثلا : المفضليات ، ص٢٧٤ . وديوان الشنفرى ، ص٣٦ .

(٤) شرح المعلقات السبع ، ص١١٥ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان الأفوه الأودي ، ص١٢ .

(٦) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٥٨ .

(٧) ينظر مثلا ديوان قيس بن الخطيم ، ص١٥٦ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص٥٦ . وشرح شعر زهير ، ص٧٥،٢٠٧ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان عنترة ، ص١٦١،١٨١ . وديوان الحماسة ، ١٧٨/١ .

(٩) ينظر مثلا ديوان طرفة ، ص٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن حكم زهير بن أبي سلمى في الموت والمنايا والفناء :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ (١)

ويقول أيضا :

بَدَا لِيَ أَنَّ النَّاسَ تَفْنَى نُفُوسُهُمْ وَأَمْوالُهُمْ ولا أَرى الدَّهْرَ فَانِيَا (٢)

-٣-

الكـــــــــرم

١- التغني بالكرم

تغنى العرب منذ العصور القديمة بالكرم والجود ، ومدحوا الكرماء الأجواد ، وكان الجاهليون يقدسون الجود في مجتمعهم القبلي ، ونجد هذا التغني بالكرم في شعر شعرائهم فمدحوا الكريم وذموا البخيل .

والكرم من المروءة عند العرب ، وقد أشار فيليب حتي إلى ذلك عندما تحدث عما يكشفه الشعر الجاهلي من مكنونات الطبع البدوي ، فهو يقول : "يكشف هذا الشعر من المثل الأعلى لفضيلة العربي التي تعبر عنها لفظة المروءة ، وللمروءة عناصر تتكون منها هي : الشجاعة والوفاء والكرم ... ويظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعداده لنحر ناقته وتقديمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء والمساكين" (٣)

ولا تخلو قصيدة تمدح الكرم إلا وتذم البخل والبخلاء (٤) ، فثمة شعر جاهلي يتحدث عن الكرم ، ومنه ما تحدث عن البخل . وكان في العصر الجاهلي الكريم والبخيل كما صورهما الشعر الجاهلي . ولا نعدم كذلك أشعارا لبخلاء يعتذرون عن بخلهم ، وأشعارا يتخوف أصحابها من الفقر ؛ ويتجلى هذا البخل والحرص على المال في اللوم والعتاب من قبل النساء لأزواجهن على الجود والإسراف في المال . ولكن الكرم كان مثلا رفيعا لأسباب مادية واجتماعية ، فنجد

---

(١) شرح المعلقات السبع ، ٧٥ .

(٣) شرح شعر زهير ، ص٢٠٧ .

(٤) تاريخ العرب مطول ، ١٣١،١ .

(٥) قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص٣٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكثير من الشعراء ينفرون من البخل والبخلاء ، وما التمدح بالكرم والكرماء إلا دليل على وجود البخل والبخلاء (١) .

وغالبا ما نجد التفاخر والتمدح بالكرم والكرماء في قصائد المدح والفخر الفردي والقبلي والرثاء ؛ بينما نجد التعيير بالبخل والبخلاء في قصيدة الهجاء ، فكان من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية – مثلا – إطفاء النار عندما تستنبح الأضياف الكلاب .

وكان العربي في أوقات السلم سخيا يبالغ في كرمه ويستهين بالمال ، فهو يعتبر الكرم إحدى مظاهر التسيد (٢) وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

يقولونَ لِي أَهْلَكْتَ مَالَكَ فاقْتَصِدْ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا تَقُولُونَ سَيِّدا (٣)

فعلى رئيس القبيلة أن يتحلى بصفات تؤهله لقيادة القبيلة في سلمها وحربها وفي جدبها وخصبها ، وعلى رأس هذه الصفات الشجاعة ورجاحة العقل والرأي .. والكرم والثراء والغنى ؛ لأن أفراد القبيلة تلتجئ إليه أيام الجدب والفقر (٤) . "فالسيادة لا يتولاها الضعيف البخيل . ولا بد أن يكون السيد ثريا ثراء عريضا" (٥) .

والكرم ألزم بصفات السيادة من الشجاعة ، لشدة الحاجة في بيئة كان الفقر وقلة الزاد طابعها العام (٦) . فكان بعض الشعراء الجاهليين يفتخرون بالكرم والجود والعطاء أولا ، ثم يفخرون بالشجاعة والقوة (٧) .

---

(١) ينظر في الشعر الجاهلي منهجه في دراسته وتقويمه ، محمد النويهي ، ٢٣٣/١ . والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص٣٢٨ .

(٢) ينظر "تاريخ العرب قبل الإسلام" ، الأصمعي ، ص٢١ . والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الحوفي ، ٣٠٨ . وتاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز سالم ، ص٣٨٩ .

(٣) ديوانه ، ص٧٥ .

(٤) ينظر الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن ، ص٢٠ .

(٥) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص٣٥ . وينظر شعر لحاتم الطائي ديوانه ، ص٧٥ . وشعر في ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٥٣/٢ .

(٦) ينظر قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص٣٥٩ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص٥٣ . وديوان الأسود بن يعفر النهشلي ، ص٥٤ . والحماسة البصرية ٤٢٩/١ شعر لحسان بن ثابت في مدح آل جفنة ملوك الشام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَخَوَتْ جِرْبَةُ النُّجُومِ فَمَا تَشْـ ... ـرَبُ أُرْوِيَّةٌ بِمَـرْيِ الجَنُوبِ (١)

فهم يبذلون الطعام حتى إذا انقطع المطر ، وهبت ريح الشمال بالثلج والصقيع ومحلت نجوم (المجرة) حتى ما تدر ريح الجنوب ما يسقي وعلا ظمآن .

وكما يقول أبو دواد الإيادي في الرثاء :

وَسَمَـاحٌ لَـدَى السِّنِيـنَ إذا ما ... قَحطَ القَطْرُ واسْتَقَلَّ الرِّهَامُ (٢)

ويقول بشر بن أبي خازم الأسدي في رثاء أخيه "سمير" بعد نعيه بالشجاعة والقوة :

يا سميـرَ مـنْ للنِّسَـاءِ إذا ما ... قَحَـطَ القَطْـرُ أُمَّهَـاتِ العِيَـالِ

كُنْتَ غَيْثاً لَهُنَّ في السَّنَةِ الشَّهْـ ... ـبَـاءِ ذَاتِ الغُبَـارِ والإمْحَـالِ

المُهِيـنُ الكُـومَ الجِـلَادَ إذا ما ... هَبَّتِ الرِّيـحُ كُلَّ يَـوْمٍ شَمَـالِ

والمفيـدُ المَـالَ التِّلادَ لِمَنْ يَعْـ ... ـفُوهُ والواهِبُ الحِسَانَ الغَوالي (٣)

فسمير كان غيثا للأرامل أمهات الأيتام في السنة الشهباء المجدبة قليلة المطر ، كريما معطاء إذا هبت ريح الشمال الباردة .

ويتمدحون بالكرم إذا هبت رياح الصبا (٤) ، وقد حلف لبيد ألا تهب الصبا إلا أطعم (٥) وكما يتفاخرون بالجود إذا ما هبت رياح الشمال الباردة (٦) والنكباء الحرجف (٧) .

---

(١) ديوانه ، ص٣٨٣-٣٨٥ . خوت النجوم : أمحلت فلم تمطر ، وكانت العرب تنسب المطر للنجوم . والجربة : المزرعة والبقعة الحسنة النبات ويقال للمجرة جربة النجوم ، والمجرة نجوم كثيرة . مري الجنوب : استدرارها الغيث وأصله مري الناقة وهو مسح ضرعها لتدر .

(٢) الأصمعيات ، ص٢١٦ . قحط القطر : احتبس المطر وانقطع . استقل : ارتحل . الرهم : الأمطار الضعيفة الواحدة رهمة بكسر الراء .

(٣) ديوانه ، ص١٧٤ . الكوم جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام . الجلاد من الإبل : الغزيرات اللبن ، وقيل التي لا لبن لها ولا نتاج ويكون أقوى لها .

(٤) ينظر مثلا : الأصمعيات ، ص١٩٥ .

(٥) شرح ديوانه ، ص٣٥٧ . وينظر المعلقات العشر ... ، الشنقيطي ، ص٣٠ .

(٦) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص١٢٥،١٧٤ . وديوان أوس بن حجر ، ص٥٤ . والمفضليات ، ص١٢٤،١٩٤،٣٧٦،٤٣١ . والأصمعيات ، ص٢٦١ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ١٥٢/٢ . وديوان الهذليين ، ١٤١/٢،١٤٩ و ١٢٦/٣ . وشرح ديوان لبيد ، ص٢٥٠ . وديوان الخنساء ، ص١٣٩،١٤٠ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص١٠١ . والحماسة الشجرية ، ٥٢/١-٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتمدحون بالكرم والعطاء عند وجود البخلاء وكثرتهم وحرصهم على أموالهم (١) .

٢- مظاهر الكرم وصوره في الشعر الجاهلي

ومن مظاهر الكرم في الشعر الجاهلي إشعال النار يهتدي بها الضيف والغريب وضال الطريق (٢) إلى مكان الكرم والجود والضيافة . ونراهم يهجون البخيل بعدم إيقادها لنفوره من الضيوف (٣) .

وإبراز القدور والجفان من مظاهر الكرم أيضا (٤) . وصورة الكلاب التي لا تنبح الضيف ، لتعودها عليه لهي صورة أخرى من صور الكرم (٥) . فتراهم يهجون البخيل بأن كلابه تنبح في وجه الضيوف (٦) . ومن صور الكرم الإحتفاء بالضيف والترحيب به وإكرامه (٧) وإطعامه وتقديم القرى له (٨) كما يشير إلى ذلك حاتم الطائي مصورا مدى احتفائه بالضيف واكرامه له في قوله :

وإنّي لعبدُ الضَّيفِ ما دامَ ثاويا وما فِيَّ إلّا تِلكَ مِنْ شِيمَةِ العَبْدِ (٩)

---

(١) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٧٠ . وديوان الأعشى الكبير ، ص٥٩،١٥٩ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٧٠،٩٤ . وديوان الأفوه الأودي ، ص٢٠ . وشرح شعر زهير ، ص٨٠ . والمفضليات ، ص١٧٦ .

(٣) ينظر مثلا المفضليات ، ص١٧٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٠/١ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٩٤،١٠٣ . وديوان طرفة ، ص٩١ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص٥٢ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٣٦ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٩٣،١٠٣ .

(٦) ينظر مثلا : السابق ، ص٩٣ .

(٧) ينظر مثلا : السابق ، ص٦٨،٧٧،١٠١،١٢٢ . وديوان عنترة ، ص٨٣،١٢١ . وديوان بشر ، ص٢١ . والمفضليات ، ص١٢٦-١٢٧،٣٢٦ . والأصمعيات ، ص٦٢،٢٦٨ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٧٥/١ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٧٤،٧٧،٨٢،١٢٠ . وشرح شعر زهير ، ص٢٣١ . وديوان الأفوه الأودي ، ص٢٠ . والمفضليات ، ص٣٦٨ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٨٥/١،٤٠٢ . و ٣٢٧/٢،٣٣٢ . والحماسة الشجرية ، ٤٦٩/١ .

(٩) ديوانه ، ص٧٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٥/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول أيضا :

قُـدوري بصَحْـراءَ مَنْصُوبَةٌ ... وما يَنْبَـحُ الكَلْبُ أَضْيَافِيَـهْ

وَإِنْ لَمْ أَجِـدْ لِنَزِيلِـي قِـرًى ... قَطَعْتُ لَـهُ بَعْضَ أَطْرَافِيَـهْ (١)

ومن صور الكرم ما نجده في شعر الجاهليين أيضا من استضافتهم للذئب (٢) .

ومن مظاهر كرمهم وجودهم مساعدتهم الفقير المحتاج (٣) والسائل المقرور . فالأعشى الكبير يقول في مدح هوذة بن علي :

طويـلِ النِّجـادِ رفيـعِ العمـا ... دِ يحمي المُضَافَ ويُعْطِي الفقيرا (٤)

ويقول أيضا مفتخرا :

إذا احْمَرَّ آفاقُ السَّماءِ وَأَعْصَفَتْ ... رِياحُ الشِّتاءِ واسْتَهَلَّتْ شُهُورُها

تَرَيْ أَنَّ قِـدْرِي لا تَـزالُ كأَنَّها ... لِذِي الفَرْوَةِ المَقْرُورِ أُمٌّ يَزُورُها (٥)

فالأعشى في هذين البيتين من قصيدة يوجه الخطاب فيها لصاحبته "مي" التي نهضت للرحلة مبكرة ، وقبل هذين البيتين يستنكر فعلها هذا ، فيطلب منها ألا تصرمه فلتسأل عن صنيعه حين يشتد الجدب ، وحين يحرص القوم على المرق في القدر فيردون عنها المستعير ، وحين يجتمعون من حولها يرقبون نضجها ، وقد قامت فتاة الحي الكريمة تمدها بالحطب والوقود . فإذا احمرت آفاق السماء ، وهبت رياح الشتاء الباردة عاصفة هوجاء ، واشتد ظلام الليل في مستهل الشهور ، ضمنت قدر الأعشى للسائل المقرور الدفء والطعام يغدو إليها ويروح كأنها أمه

---

(١) ديوانه ، ص١٠٣ .

(٢) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص٤٤ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٩٢،٩٨ . وشرح شعر زهير ، ص٧٩،١٥٤ . وديوان النابغة الذبياني ، ص١٣٢،١٩٠،٢٠٩ . وديوان الحارث بن حلزة ، ص١٩ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص١٩١،٢٣٧ . والمفضليات ، ص١٢٢،١٨٦ . والأصمعيات ، ص٣٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢/٣٠،٣٢ . وشرح ديوان لبيد ، ص٧١ . وديوان الخنساء ، ص٨،١٣،٦٤ .

(٤) ديوانه ، ص١٤٧ .

(٥) ديوانه ، ص٤٢١ . احمر أي اغبر وذلك في القحط . آفاق السماء : جوانبها . والعرب تسمي السنة الشديدة حمراء . المقرور : البردان . الفروة : الكيس الذي يتجمع فيه ما يجمعه هذا المقرور من الناس من صدقات ؛ هذا السائل اعتاد أن يزور هذه القدر كأنها أم رؤوم له .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرؤوم . وفي بيت تال أن هذه القدر قد برزت للعفاة ، لا تجعل من دونها الستور ، ولاحت نارها حين تخمد النيران .

وهذا الحادرة في مفضليته يخاطب سمية التي بكرت في الرحيل ، فطلب منها أن تراجع جدها في هذا الرحيل ؟! فهو يطعم الجياع فيطبخ لهم اللحم في القدور بنفسه ويعجل في الطبخ وكان من بين هؤلاء الجوع أشعث يحلف من جهده وضره أن اللحم قد نضج ، ولما ينضج بعد ، يقول الحادرة مفتخرا بنفسه :

ومعرّضٍ تَغْلي المَراجِلُ تَحْتَهُ ... عَجِلْتُ طبْخَتَهُ لِرَهْطٍ جُوَّعِ
ولَدِيَّ أَشْعَثُ باسِطٌ لِيَمِينِهِ ... قَسَمَا لقَدْ أَنْضَجْتَ لَمْ يَتَوَرَّعِ (١)

والعطف على الفقراء كان من دواعي الفخر والتمدح لدى الشعراء الجاهليين .

يقول سلامة بن جندل في الفخر :

قَوْمٌ إذا صَرَّحَتْ كَحْلٌ بُيُوتَهُمُ ... عِزَّ الذَّليلِ وَمَأْوَى كُلِّ قُرْضُوبِ (٢)

وكما قال عبيد بن الأبرص من قصيدة يبكي فيها على قومه الماضين :

أَيَّامَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ سُوقَةٍ ... لِمُعَصَّبٍ وَلِبَائِسٍ وَلِعَانِي (٣)

ويقول الأعشى الكبير في مدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وَأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا ... وَأَسَى وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا وَسَعَى لَهَا (٤)

---

(١) المفضليات ، ص٤٦ . المعرض : بتشديد الراء المفتوحة : اللحم الذي لم يبلغ نضجه . المراجل : جمع مرجل : ما يطبخ فيه . الأشعث : المضرور المحتاج وأصله من شعث الرأس .

(٢) ديوانه ، ص١١٧ . صرحت : بينت ، لم يكن فيها غيم ولا مطر . الكحل : السنة الشديدة . يقول : إذا اشتد الزمان وعم الناس القحط ففناؤهم رفعة للضعفاء المعوزين وملجأ للصعاليك المشردين أو الفقراء المحتاجين .

(٣) ديوانه ، ص١٤٨ . سوقة : كل الناس سوقة إلا من كان في يديه سلطان . معصب : الذي يعصب بطنه الحجر من الجوع .

(٤) ديوانه ، ص٧٩ ، وأسى جراحهم وأصلح بينهم وسعى لخيرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن صور كرم الجاهليين عطفهم على الأرامل واليتامى والعناية بهم (١) ونجد هذه الصورة في شعر المدح والفخر وخاصة في شعر الرثاء وبالأخص في مراثي النساء .

يقول لبيد بن ربيعة في أبيه :

وجدتُ أَبي رَبِيعًا لِلْيَتَامى وَلِلأَضْيَافِ إِذْ حُبَّ الفَئِيدُ (٢)

ومن مراثي النساء ، تقول ناجية بنت ضمضم في رثاء أبيها الذي قتله عنترة :

ألفيتُـــه مأْوى الأَرامِـلِ والمدفَّعَـــةِ اليتيمـــةْ (٣)

ويشيع في شعر الرثاء صورة بكاء الأرامل والأيتام والأسرى على المرثي لأنه كان في حياته يعطف عليهم ويفرج كربهم . تقول أم بسطام بن قيس الشيباني في رثاء ولدها بسطام بن قيس الذي قتل "يوم القلاب" :

وتبكِيكَ أَسْرى طالما قَدْ فَكَكْتَهمْ وأَرمَلَةٌ ضَاعَتْ وَضَاعَ عِيَالُها (٤) .

لذلك كان من لا يعطف على الأرملة واليتيمة مهجوا معيرا (٥) .

ومن مظاهر وصور الكرم عند العرب ، العطاء قبل السؤال (٦) ، وصلة الأرحام ، وإكرام

---

(١) ينظر مثلا : ديوان امرئ القيس ، ص١٣٢ . وديوان حاتم ، ص٦٧ . وديوان طرفة ، ص١١٩ . وشرح شعر زهير ، ص١٦٩،٢١٦ . وديوان الأعشى الكبير ، ص١٤١،١٥٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٨/٢ . والمفضليات ، ص٣٦٨ . والحماسة للبحتري ، ص٢٧٤ . وديوان السموأل ، ص٧٨ . وديوان الخنساء ، ص٢٦،٥٦،٦٤،١٣٨ . وديوان النابغة الذبياني ، ص٢١٧ .

(٢) شرح ديوانه ، ص٤٠ . الفئيد : الخبز المليل أو هو الملة ويقال هو الشواء . والفئيد النار نفسها .

(٣) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص٤٨ . وانظر قريبا من هذا المعنى ، ص٦٨،١٠١،١٠٤،١٣٣ .

(٤) السابق ، ص٩٣ .

(٥) ينظر مثلا السابق ، ص٢٢ .

(٦) ينظر مثلا : الحماسة للبحتري ، ص١٤٩ . والمفضليات ، ص١٢٠ . وشرح شعر زهير ، ص١٢٠ . وديوان حاتم ، ص٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجار (١) ، والهبات والعطايا (٢) خصوصا إذا كثر البخال وكثرت اعتذاراتهم (٣) ، ودفع الديات (٤) والمغارم والديون (٥) ، وشراء الموؤودة (٦) ، وإيثار الفقراء على النفس (٧) والمساواة بينهم وبين أغنيائهم بالعطف عليهم وخلطهم بأصحاب الغنى والثراء (٨) وفك أزمتهم النفسية والمادية من الفقر وتعقيداته . وفي خلط الفقراء بالأغنياء تقول الخرنق بنت بدر في رثاء قومها الذين قتلوا يوم قلاب:

الخالطونَ نَحِيتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ ... وذوي الغِنى منهُمْ بِذِي الفَقْرِ (٩)

ويقول حسان بن ثابت الأنصاري في مدح آل جفنة ملوك الشام :

المُلحِقِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ ... والمُشْفِقِينَ عَلى الضَّعِيفِ المُرْمِلِ (١٠)

والكرم من الوسائل التي تخفف من حدة الفقر والجوع والألم ، وهذا لا شك فيه . ويمكن أن يمسح الفقر عن وجه البسيطة في يوم من الأيام ، كما يشير إلى ذلك حجية بن المضرب في مدح يعفر بن زرعة أحد الملوك :

وَلَوْ لَامَسَ الصَّخْرَ الأَصَمَّ أَكُفُّهُمْ ... أَفَاضَ يَنَابِيعَ النَّدى ذَلِكَ الصَّخْرُ

وَلَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ البَسِيطَةِ مِثْلُهُمْ ... لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَا عُرِفَ الفَقْرُ

---

(١) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص١٣٥ . وديوان علقمة الفحل ، ص١٢٦ . وديوان السموأل ، ص٨٠ . وديوان حاتم ، ص٩٤ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص٥٩،٧١،٨٩،١٠٠،١٤٩،٢٩٥،٣٤٧،٣٨٩،٣٩٧ . وديوان أوس بن حجر ، ص٢٥ . وديوان النابغة الذبياني ، ص١٤٣ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص٥٩ . والحماسة البصرية ، ١٢٧/١ .

(٤) ينظر مثلا في ديوان الأعشى الكبير ، ص٢٥٣ .

(٥) ينظر مثلا في ديوان النابغة الذبياني ، ص١٥٢ .

(٦) الأغاني (بيروت) ، ٣٠٢/٢١ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان عامر بن الطفيل ، ص٧٨ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص٥٩ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٤٤٢/١ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان حسان بن ثابت ، ص٨٩ . والحماسة البصرية ، ٥٤٣/١ .

(٩) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموث ، ص٨١ . والبيت لحاتم الطائي في ديوانه ، ص٨٧ .

(١٠) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ . المرمل : الفقير ، ومن معاني المرمل قليل الزاد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شَكَـرْتُ لَكُـمْ آلاءَكُـمْ وَبَلاءَكُـمْ وَمَا ضَاعَ مَعْـرُوفٌ يُكَافِئُهُ شُكْرُ (١)

وإذا كان الكـرم والجود يخفف جزءا بسيطا من الفقر في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، فإنه – في نفس الوقت قد يفقر صاحبه :

يقول لبيد بن ربيعة :

وَلكِـنَّ مالـي غَالَـهُ كُـلُّ جَفْنَـةٍ إذا حَـانَ وِرْدٌ أَسْبَلَتْ بِدُمُـوعِ

وإعطائيَ المَوْلى عَلى حِين فقرِهِ إذا قَال أبصِرْ خَلَّتي وخُشُوعِي (٢)

ومن مظاهر وصور كرم الجاهلي الميسر (٣) ، وشرب الخمر ، فإذا ما شربوا الخمر وانتعشوا ، أخذوا يكرمون ويجودون بما في اليد . يقول طرفة بن العبد مفتخرا بقومه :

فإذا مـا شَرِبُوها وانْتَعَشُـوا وهبُـوا كُلَّ أَمُـونٍ وَطِمِـرْ (٤)

وهو نفسه الذي يقول في إنفاقه ماله طريفه ومتلده على لذاته وشرب الخمر :

وما زال تشرابي الخُمُورَ وَلَذَّتي وبَيْعي وإنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتْلَدِي

إلى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيـرَةُ كُلُّهـا وَأَفْرِدْتُ إفْـرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ (٥)

ونجد الأعشى الكبير ميمون بن قيس – أيضا – قد شرب الخمر "غنيا وصعلوكا" (٦) وأنفق ماله على ثلاثة أشياء : الخمر والنساء وفاخر الطعام (٧) ، وفي موضع آخر يشير الأعشى إلى

---

(١) السابق ، ٤٥٧/١ . وحجية .. شاعر جاهلي نصراني أدرك الإسلام ولم يسلم عاش لزمن

(٢) شرح ديوانه ، ص٧٠-٧١ . غاله : ذهب به . إذا حان ورد : إذا حان ورد الناس إياها – للقدر – سالت بدموع من الدسم . الخلة : الحاجة . المولى : ابن العم . خلتي وخشوعي : الاستكانة وسوء الحال .

(٣) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٨٨،٩١ . وشرح شعر زهير ، ص١٢٤،١٥٩ . وديوان بشر ، ص٧٣ . وديوان النابغة الذبياني ، ص١٢٧ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص٢٠٣ . والمفضليات ، ص٢٣٣،٣٥٠،٤٠٣ . والأصمعيات ، ص٥٣،٨٤-،٩٩،١٠٧ . وللميسر حديث آخر ليس هنا موضعه .

(٤) ديوانه ، ص١٣٥ . أمون : ناقة موثقة الخلق . طمر : فرس طويل .

(٥) السابق ، ص٤٥ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص٥٠-٥١ .

(٦) ديوانه ، ص١٣٥ .

(٧) شعراء النصرانية ، ص٣٨٩ . ونرى كذلك أن بشر بن أبي خازم ينفق ماله على الخمر والقمار والنساء ، ديوانه ، ص١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إتلاف المال في الخمر واللعب والغناء واللذة وسماع الألحان (١) ونجد في العصر الجاهلي "أعبد ستهلك في الخمر أثمانها" (٢) .

وهذه عبلة بنت خالد التميمية كانت عند رجل من جشم اسمه محجن بعثها لتبيع له سمنا في عكاظ ، فباعت السمن والراحلتين وشربت بثمنها الخمر ، فلما نفد المال رهنت ابن أخيه وهربت وقالت في ذلك :

شَرِبْتَ بِرَاحِلَتَيْ مِحْجَنٍ ... فَيَا وَيْلَتِي مِحْجَنٌ قَاتِلِي

وبابْنِ أَخِيهِ عَلى لَذَّةٍ ... وَلَم أَحْتَفِلْ عَذَلَةَ العَاذِلِ (٣)

فشرب الخمر قد يكون سببا أو دافعا للإكرام . وقد يكون سببا في اتلاف المال لغلاء ثمنها وإذا ما أدمن شاربها عليها . والبخيل الذي يحرص كل الحرص على أمواله تراه يهين ماله في شربها . يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَّتْ ... عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا (٤)

فلا نعدم من البخلاء من كان يهين ماله من أجل نفسه ، ولكن لا ينتفع الفقراء والمحتاجون من أمواله شيئا .

ولعل أجود الكرم عند الجاهليين أن يجود الشخص وهو محتاج فقير ، وتمدح الشعراء بذلك ، فهذا دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله يشير إلى ذلك بقوله :

وإنْ مَسَّهُ الإقْوَاءُ والجُهْدُ زَادَهُ ... سَمَاحَاً وإتْلافاً لِمَا كَانَ فِي اليَدِ (٥)

ويقول ذو الإصبع العدواني :

أُكْرِمُ الضَّيْفَ والنَّزِيلَ وَإِنْ بِتُّ ... خَمِيصَاً يَضُمُّ بَعْضِيَ بَعْضِي (٦)

---

(١) ديوانه ، ص٤٠٩ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص٧٣ .

(٣) شاعرات العرب ... ، بشير يموت ، ص٩٥ .

(٤) شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص١٠٢ ، اللحز : الضيق الصدر . الشحيح : البخيل الحريص والجمع الأشحة والأشحاء والشحاح والفعل شح يشح والمصدر الشح وهو البخل معه حرص .

(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٥٤/٢ . الاقواء : الفقر ، أي إذا افتقر زاده الفقر سماحا وبذلا لما في اليد .

(٦) ديوانه ، ص٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر الكرم والبخل ما نقرأه في شعر الجاهليين من قصص لوم وعتاب النساء أو الزوجات لأزواجهن على الجود والكرم والإسراف (١) ، لأن النساء أكثر حرصا على المال وأبخل من الرجال على ما يبدو ، وأكثر نفورا من الفقر والحاجة من الرجال .

فزوجة لبيد بن ربيعة – على سبيل المثال – تلومه على فقره وسوء حاله ، وكثيرا ما كانت تلومه .. ولكنه لم يكن مطيعا ..؟ وكأنه يهدد في عزة وعنفوان الشباب .. أن تدع اللوم أو تفارقه .. كما يفارق أحد نصفي الثوب النصف الآخر – عند تمزقه أو إذا أراد هو أن يفرق بين الشقين – ، ثم يهون من الأمر مانحا الخيار لزوجته في الفراق عنه إذا أحبت ذلك ، ثم يعطي رأيه فحسب بأنها ستكون راضية مرضية لو أنه أمسك عليه ماله – كما يفعل البخلاء – ثم يبرر ذهاب ماله وفقره وسوء أحواله بأنه كان كريما جوادا سخيا معطاء . يقول لبيد :

دَعِي اللّومَ أو بِيني كَشِقَّ صَدِيعِ ... فَقَدْ لُمْتِ قبلَ اليومِ غَيْرَ مُطِيعِ
وإنْ كنتِ تَهْوينَ الفِرَاقَ فَفَارِقِي ... لأَمْرِ شَتَاتٍ أو لأَمْرِ جَمِيعِ
فَلَوْ أَنَّنِي ثَمَّرْتَ مَالِي وَنَسْلَهُ ... وأَمْسَكْتُ إِمْسَاكاً كَبُخْلِ مَنِيعِ
رَضِيتِ بِأَدْنَى عَيْشِنَا وَحَمَدْتِنَا ... إِذَا صَدَرَتْ عَنْ قَارِصٍ وَنَقِيعِ
ولكنَّ مَالِي غَالَهُ كُلُّ جَفْنَةٍ ... إذا حَانَ وِرْدَ أَسْبَلَتْ بِدُمُوعِ
وإعطائيَ المَوْلَى على حين فَقْرِه ... إذا قال أَبْصِرْ خَلّتي وخُشُوعِي (٢)

وكأنني بالشاعر كبعض الأزواج يرد على لوم وعتاب زوجته له وزجرها ووعيدها وتعييرها له على فقره وسوء حاله ... حتى يطفح الكيل والميزان من شدة اللوم ... فيهددها بالفراق ... فترمقه بنظراتها الحادة ... فيتراجع عن رأيه المتصلب ... حتى تهدأ العاصفة في نفسه خاضعا لواقعه وحقيقة أمره فيبدأ بتقديم المبررات لسوء حاله .

---

(١) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص١٠،١٠٤،١١٠ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص٤٧ . والمفضليات ، ص٣٠،٣٥٦ . والأصمعيات ، ص١٢٧،١٣٤،٢٤٦،٢٤٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١٢/١ ، ٣٥/٢ . والحماسة الشجرية ، ٤٧٧/١– . وديوان الأسود بن يعفر ، ص٢٤ تلومه ابنته على الإنفاق .

(٢) شرح ديوانه ، ص٧٠–٧١ . صديع : ثوب مشقوق بنصفين . صدرت : يعني الإبل . قارص من اللبن ؛ والقارص الذي قد أخذ الطعم . وحذى : وحذي اللبن يحذيه إذا قرصه . النقيع : الحليب المبرد . غاله : ذهب به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا ما نجد صورة المرأة اللائمة في الشعر الجاهلي ، وموقف الشاعر من هذا اللوم وهو لا يبتعد كثيرا عن موقف لبيد .

قلنا فيما سبق أن النساء أبخل من الرجال عادة . ولكن هذه القاعدة لا تشمل كل نساء الجاهلية . فنجد من كن أكرم وأجود . فهذه غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي كانت فياضة اليد ، فلا تبقي شيئا ، فبددت ثروتها على السائلين والضيوف ، فحجر إخوتها عليها مالها ، حتى إذا وجدت ألم الفقر أعطوها طائفة من إبلها ، فجاءتها امرأة تسألها فقالت لها :
دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضني الجوع ما لا أضيع معه سائلا وقالت في ذلك شعرا ، من هذا الشعر :

لَعَمْرُكَ قِدْمَاً عَضَّنِي الجُوعُ عَضَّةً ... فَآليْتُ أَنْ لا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعَا
فَقُولا لِهَذا اللّائمي اليومَ أَعْفِنِي ... وإِنْ أَنْتَ لمْ تَفْعَلْ فَعُضَّ الأَصَابِعَا (١)

فلسفة الجاهليين في الكرم

نقرأ في الشعر الجاهلي دوافع الكرم والبذل والعطاء ، ونجد من يعلل سبب كرمه وعطائه وسخائه .

فهم يكرمون ويجودون لحماية العرض والحسب (٢) ، ويبذلون الغالي والنفيس من أموالهم صونا لأعراضهم وأحسابهم . يقول حاتم الطائي :

ذَرِينِي يَكُنْ مَالي لِعِرْضِي جُنَّةً ... يَقِي المالُ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا (٣)

ويقول المثقب العبدي :

أَجْعَلُ المالَ لِعِرْضِي جُنَّةً ... إِنَّ خَيْرَ المَالِ مَا أَدَّى الذِّمَمْ(٤)

---

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموث ، ص٩١ .
(٢) ينظر مثلا ديوان حاتم ، ص١٠٢،١٠٦ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص٢٠٠ . والمفضليات ، ص٢٩٥ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٥٩/٢ .
(٣) ديوانه ، ص٧٤ .
(٤) ديوانه ، ص٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكرمون لا بتناء المجد والسؤدد (١) ، ومن أجل الشهرة والذكر الحسن (٢) والخوف من مذمات الناس (٣) ، فالبخيل يتبعه سوء الثناء وبخله يزري به وبأهله (٤) . يقول حاتم مثلا :

أماوِيَّ إنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ ... وَيُبْقَى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ (٥)

وحاتم يكرم أيضا لأنه يخاف مذمات الأحاديث من بعده (٦) :

ولأن الثناء هو الخلود وفيه السعادة والسرور لذلك يبرر الحادرة الإحسان بقوله :

فَأَثْنُوا علينا لا أبا لأبيكُمُ ... بإحساننا إنَّ الثَّناءَ هُوَ الخُلْدُ (٧)

ويجودون كذلك بأموالهم لأن المال زائل (٨) وإلا فإنه سيسعد به الوارث ولا يستفيد منه صاحبه (٩) .

ويكرمون لأن الكل ستتخرمه المنية يوما ما ؛ ولأن المال لا ينفع صاحبه إذا جاءت منيته ، ولأن البخيل غير مخلد (١٠) . فالنفوس تفنى وكذلك الأموال ، يقول زهير بن أبي سلمى :

بدا ليَ أنَّ الناس تفنى نفوسُهمْ ... وأموالُهُمْ ولا أَرى الدَّهرَ فَانِيا (١١)

فالجواد لا يموت من الهزال كما يرى حطائط بن يعفر متحديا أمه "رهم" أن تريه جوادا مات هزلا . يقول مخاطبا "أمه وقد لامته على جوده وعاتبته :

---

(١) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص٦٨ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص٨٤ . وديوان طرفة ، ص٩٢ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص٣٥ . وشرح شعر زهير ، ص١٨٠ . والمفضليات ، ص٣٧١، ٤٠١، ١٢٧، ٢٤٠ . والأصمعيات ، ص٢٥٨ .

(٣) مثلا : ديوان حاتم ، ص٩٩، ١٠٤ . وشرح شعر زهير ، ص١١٩ .

(٤) مثلا : ديوان عدي بن زيد العبادي ، ص١٠٧-١٠٨ . وديوان حاتم ، ص١٠٤ . والحماسة الشجرية ، ٤٧٧/١ .

(٥) ديوانه ، ص٨٣ .

(٦) ينظر ديوانه ، ص٧٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢٤٥/٢ .

(٧) ديوان شعر الحادرة ، ص٣٣١ .

(٨) ينظر مثلا ديوان حاتم ، ص٧٢، ١٢٢ .

(٩) ينظر مثلا السابق ، ص١٠١ . وديوان عدي بن زيد ، ص١٠٣ .

(١٠) ينظر مثلا ديوان حاتم ، ص٧٤، ٧٩، ٨٣ . وديوان علقمة الفحل ، ص٦٤ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٣/٢ .

(١١) شرح شعره ، ص٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَرِيني جَواداً ماتَ هَزْلاً لَعَلّني أَرى ما تَرَيْنَ أو بَخِيلاً مُخَلَّدا (١)

يتبين لنا مما سبق من فلسفة الجاهليين للكرم ودوافعهم للجود ، أنهم يكرمون ويجودون حفاظا على أعراضهم وأحسابهم وأنسابهم ، ولبناء أمجادهم ومفاخرهم ، ومن أجل الشهرة والذكر الحسن والخوف من مذمات الناس ، ولأن المال زائل وكذلك النفوس ، والبخيل غير مخلد ، كما رأينا ذلك في بعض أشعارهم التي اقتبسنا منها القليل .

وإذا كانت هذه أكثر دوافعهم للكرم والجود والعطاء ، فأين الإنسانية البحتة في كرمهم ؟ ألم يجودوا بمالهم على الفقراء والمحتاجين والمعوزين من أجل المساعدة والعون وشفقة عليهم من قسوة الظروف ؟ أم أن ثمة دوافع أقوى تكمن خلف هذا الكرم ؟ ولماذا هذا الحرص على الشهرة والذكر الحسن والثناء في الأشعار ؟ .

كان البعض – بلا شك – ممن يجودون ويكرمون بدافع الإنسانية ، وبدافع الواجب كصلة القرابة مثلا أو الواجب القبلي أو الاجتماعي . ولكن الكثرة الكاثرة تحرص كل الحرص على أن تتسامع القبائل عن كرمهم ، فهم يتفاخرون ويتمدحون .

فلماذا هذا الحرص على الذكر الجميل والشهرة بين الناس ؟ .

يقول بعض الباحثين : إن مبدأ الضيافة عند العرب كان يخفف إلى حد ما شر الغزو الذي خيم على الجزيرة العربية وجفاف الصحراء وقسوتها . وإن الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة أنشأ فيهم الإحساس بحاجة ماسة مقدسة إلى الضيافة (٢) .

ويشير بعضهم إلى أن صفة الكرم "مبعثها حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال" (٣) . ويقول آخر إن العرب في الجاهلية "يكرمون لأنهم يحيون في بادية شحيحة بالزاد . وحياتهم ترحال وتجوال ، فهم سوف يضطرون إلى أن يضافوا في يوم من الأيام" (٤) .

ويلخص آخر رأيه بقوله : "فالبدوي في تلك البيئة التي لا تستقر على حال فترة طويلة ، جعلته كريما يوقد النار ليلا للضيف ليراها فيقبل نحوها ، وهو الذي يبيح كل ما هو ملك لغيره .

---

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٣/٢ . والبيت منسوب لحاتم الطائي في ديوانه ، ص٧٤ . يرد حاتم على عاذلته التي قالت له أن عليه أن يمسك ماله فالمال عند صاحبه معبد .

(٢) تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣٢/١ .

(٣) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٦٨ .

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ما جعل هذا التصرف يبدو متناقضا مع تصرفه الثاني ، ولكنه في الحقيقة عندما يكرم وهو حر لا يجبره أحد على ذلك ، "ولأنه يعتقد أنه لا بد يوما أن تقوده رحلته إلى مكان قفر فيجد من يكرمه ، ولأنه عندما يكرم يجعله مشهورا في المجتمع القبلي ، تتسامع به القبائل ، ويتغنى به الشعراء" (١) .

ويرى محمد النويهي أن السبب الاقتصادي هو السبب الأساسي في إيجاد الكرم الجاهلي وإجلاله . فالحياة البدوية المتنقلة والاعتماد على المطر ، وثمة ثراء يقوم على إرشاد القوافل التجارية التي تتحول مرارا عن الطرق فيفتقرون في أية لحظة . فالكرم وسيلة للاحتياط من هذا التقلب .. أو هو نوع من ضمان المستقبل (٢) .

فالكرم كان فضيلة أو قيمة اجتماعية ولم يكن فضيلة نفسية أي أنه لم يكن نابعا من نفس خالصة لأجل الكرم ، ولكن كان من أجل الفخر والحسب والنسب إلا عند البعض كزهير مثلا .

والكرم الجاهلي في معظمه من منظور الفائدة المادية على النفس ، والإحسان والتفضل للشهرة والذي نهى عنه فيما بعد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . (٣)

فمهما يكن ، فالكرم مبعثه البيئة المتقلبة بين الخصب والجدب والغنى والفقر . والجاهلي يكرم في أكثر الأحوال مندفعا من خوفه من ظاهرة الفقر الشخصي والبيئي .

---

(١) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن ، ص٥١ .

(٢) الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، ٢٣٥/١ .

(٣) السابق ، ٢٣٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الرابـــــع

صـورة الفقـراء فـي الشعـر الجاهلـي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

صورة الفقراء في الشعر الجاهلي

-١-

ثمة الفقير الأشعث المتغير اللون والهيئة من الجوع والهزال يلبس الأثواب البالية . فهو "ذي طمرين طملال" (١) ، "وَمُهَتِّكٌ بَالِي الدَّرِيسَيْنِ عَائِلُ" (٢) .

وجاء في لسان العرب في معنى الطِّمِلال والطِّمْل والطِّمليل والطملول : الفقير السيء الحال القشف القبيح الهيئة الأغبر ، وقيل هو العاري من الثياب ، وأكثر من يوصف به القانص (٣) .

وجاء في معنى العائل وكذلك العيل : الفقير ، والعالة : الفقراء . وعال : افتقر واحتاج ، والاسم العيلة ، والعيلة والعالة : الفاقة ، يقال : عال يعيل عيلة وعيولا إذا افتقر ... قال أحيحة ابن الجلاح :

وما يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وما يدْرِي الغَنِيُّ متَى يَعِيلُ (٤)

ونرى المرأة الفقيرة سملة الهدم بالية الثياب ضعيفة ، بدت وتعرت عروق ساعديها ، وهي تصمت ابنها السيء الغذاء بالماء ، لأنه ليس لديها لبن من شدة الضر . يقول بشر بن أبي خازم :

وذاتُ هِـدْم بادٍ نَواشِـرُها تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلَباً جَدِعَاً (٥)

والمرأة الفقيرة والمسكينة الضعيفة تلبس الثياب القصيرة البالية لشدة فقرها ، فهي تشبه البلية في قلة تصريفها وعجزها عن الكسب وامتناع الرزق منها . وهي تشبه الناقة التي تخلف في السفر لفرط هزالها ، فترى هذه الفقيرة تأوي إلى أطناب البيت . يقول لبيد بن ربيعة العامري في معلقته :

---

(١) ديوان أوس بن حجر ، ص١٠٣ . الطمر : الثوب البالي .

(٢) ديوان الهذليين ، ١٤٩/٢ . الدريسان : الثوبان الخلقان .

(٣) مادة "طمل" .

(٤) مادة "عيل" .

(٥) ديوانه ، ص١٢٧ . والبيت أيضا لأوس بن حجر في ديوانه ، ص٥٥ مع تغيير في لفظة "باد" فهي عند أوس "عار" . والتولب في الأصل ولد الحمار ، واستعاره لولد هذه المرأة . جدع : سيء الغذاء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَأوي إلى الأطنابِ كُلَّ رَذِيَّةٍ مِثْلِ البليَّةِ قالصٍ أهْدَامُهَا (١)

ويقولُ الجُمَيْحُ الأسدي في الرثاء :

أَوْ مَنْ لِأَشْعَثَ بَعْلِ أَرْمَلَةٍ مِثْلِ البَلِيَّةِ سَمْلَةِ الهِدْمِ (٢)

ونجد المرأة سوداء المعاصم من الجهد والجدب والهزال ، فلم تلبس قفازين على يديها ، ولم تصن نفسها من شدة البرد والجوع وحضور النيران إذا حضرتها تصطلي . يقول عروة بن الورد في مخاطبة عاذلة :

أبى الخفضَ منْ يَغْشَاكِ مِنْ ذِي قَرَابةٍ ومِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ المعاصمِ تَعْتَرِي (٣)

والفقراء لشدة فقرهم وحاجتهم الشديدة لمعونة غيرهم وصفهم أوس بن حجر بالأموات ، يقول أوس في الرثاء :

المُطْعِمُ الحَيَّ والأمواتَ إنْ نَزَلُوا شَحْمَ السَّنَامِ مِنَ الكُومِ المَقَاحِيدِ (٤)

فمن الفقراء في الشعر الجاهلي :

١- الضريك

الضريك : الفقير اليابس الهالك سوء حال ، والأنثى ضريكة . قال الأصمعي : الضريك الضرير ، وهو أيضا الفقير الجائع ... . والضرائك جمع ضريك وهو الفقير السيء الحال . وقيل الهزيل (٥) .

فالضريك فقير محتاج هزيل لسوء حاله وظروفه . يقول الأعشى :

فَيُفْجَعْنَ ذا المَالِ الكثيرِ بِمَالِهِ وَطَوْرَاً يُقَنِّينَ الضَّرِيكَ فَيَلْحَقُ (٦)

---

(١) شرح ديوانه ، ص٣١٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص٩٨ .

(٢) المفضليات ، ص٣٦٨ .

(٣) ديوانه ، ص٦٩ . وفي الأصمعيات ، ص٣٨ . والمعنى : أبى هذا الذي تريدين من خفض العيش ، والدعة من يطرقك من ذي قرابة يأتونني فيسألونني . وأبى أيضا من يعتريك من الفقراء فإن قعدت عن الطلب لم يكن عندك ما تقرين به ضيفا ولا تصلين به قرابة .

(٤) ديوانه ، ص٢٥ . الكوم جمع كوماء وهي الناقة السمينة . المقاحيد جمع مقحاد وهي الناقة العظيمة السنام . ووسمهم شاعر آخر بـ "الهلاك" في ديوان الحماسة ، ١٥٤/٢ .

(٥) من لسان العرب لابن منظور مادة "ضرك" .

(٦) ديوانه ، ص٢٧٣ . يقنين : يغنين ، من قنا . يلحق أي يلحق بذي الغنى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون للضريك شيء من مال أو إبل (١) ولكنه يظل من زمرة المحتاجين والفقراء .

وثمة صورة لهذا الضريك الفقير من شعر ساعدة بن جؤية الهذلي ، عندما شبه حبه لـ"نعم" مثل حب الضريك لتلاد المال ؛ هذا الضريك فقره قطع عنه الخير قطعا ، فلم يجد له ملجأ عند الناس ، وهو خال من مبارك الإبل ، ذو خلقين ، مهزول ، إذا نظرت إليه قلت : قد فتح فاه للموت ، وهو أنفر من حمار الوحش ، في قوائمه اتساع ، ما يزال يحيي ليلته يسير . يقول ساعدة :

إنِّي لأَهْـوَاكِ حَقًّا غَيْـرَ ما كَذِبٍ ... وَلَوْ نَأَيْتِ سِوَانَا في النَّوى حِجَجَا
حُبَّ الضَّرِيـكِ تِلَادَ المَالِ زَرَّفَـهُ ... فَقْـرٌ وَلَمْ يَتَّخِذْ في النَّاسِ مُلْتَحَجَا
صِفْرِ المَبَاءَةِ ذِي هِرْسَيْنِ مُنْعَجِفٍ ... إذا نَظَـرتَ إليهِ قُلتَ قَـدْ فَرَجَا
أَنَـدَّ مِـنْ قَـارِبٍ رُوحٍ قَوائمُـهَ ... صُـمٌّ حوافِـرُه ما يفتـأُ الدَّلَجَـا (٢)

ولفقر هذا الضريك وحاجته ، نجد التمدح والتفاخر في الشعر الجاهلي بمن يساعده ويعينه على قضاء حاجته ، ويجد له مأوى ، كما يقول قيس بن الخطيم في جواد كريم :

مأوى الضَّرِيكِ إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ ... ضَخْمِ الدَّسِيعةِ مُخْلِفٍ مِتْلافِ (٣)

ويقول ربيعة بن مقروم في الفخر :

وَيَسْعَدُ بي الضَّرِيكُ إذا اعْتَرانِي ... وَيِكْرَهُ جَانِبِي البَطَلُ الشُّجَاعُ (٤)

وكان قتادة بن مسلمة أحد أجواد العرب وقد لقب بغيث الضريك ، وضرب به المثل فقيل "أقرى من غيث الضريك" ، وقد مدحه طرفة بن العبد في إحدى قصائده ، وكان قد أصاب قومه سنة ، فأتوه ، فبذل لهم (٥) .

ونجد في شعر الرثاء أن المرثي يكون مأوى للضريك الفقير المحتاج ، ويمنحه عطاياه دائما (٦) .

---

(١) ينظر ديوان الهذليين ، ٦١/٢ .

(٢) ديوان الهذليين ، ٢٠٨/٢-٢٠٩ . نأيت سوانا : أي عند غيرنا . النوى : النية وهو الوجه الذي تريده .

(٣) ديوانه ، ص٢٣٧ . الدسيعة : العطية .

(٤) المفضليات ، ص١٨٦ .

(٥) ينظر ديوان طرفة بن العبد ، ص١١٨-١١٩ . ومقدمة ديوان حاتم الطائي ، ص٣٧ .

(٦) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص١٦٤ . ديوان الخنساء ، ص٨،٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- القرضوب

جاء في لسان العرب من مادة "قرضب" : القرضبة : شدة القطع . قرضب الشيء ، ولهذمه : قطعه ، وبه سمي اللصوص لهاذمة وقراضبة ... وسيف قُرْضُوب وقِرضاب ومُقَرْضِب ، قطاع . والقُرضوب والقِرضاب : اللص والجمع القراضبة . والقُرضوب والقِرْضاب أيضا : الفقير . والقراضبة : الصعاليك ، واحدهم قرضوب . والقُرضوب والقِرضاب والقِرْضَابة والقُرَاضِب والمُقَرْضِب : الذي لا يدع شيئا إلا أكله ... وقرضَبَ الرجل إذا أكل شيئا يابسا فهو قِرْضَاب .

فالقرضوب الفقير واللص والصعلوك ، من الفقراء جميعا .

يقول المرقش الأكبر ، ينعت جيش ملك من آل جفنة وفتكه ببعض القبائل العربية :

حَارَبَ واسْتَعْوى قَراضِبَةً ... لَيْسَ لَهُمْ مِمَّا يُحَازُ نَعَمْ (١)

كما يشير الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته إلى القراضبة كالعقبان عندما تجمعت في الحروب والغارات لرجل وصفه الشاعر بالقوة والشجاعة :

فَتَأَوَّتْ لَهُ قَرَاضِبَةً مِنْ ... كُلِّ حَيٍّ كَأَنَّهُمْ أَلْقَاءُ (٢)

ونجد من يتمدح ويفتخر بإيواء القرضوب لفقره وحاجته . يقول سلامة بن جندل :

قَوْمٌ إذا صَرَّحَتْ كَحْلٌ بُيُوتُهُمُ ... عِزَّ الذَّلِيلِ ومأْوَى كُلِّ قُرْضُوبِ (٣)

ونجد من يكون حدبا على المولى الضريك المحتاج ويساعد القرضوب الفقير والمحتاجين (٤) .

٣- المعصب

المعصّب ، يقال للرجل الجائع ، يشتد عليه سخفة الجوع ، فيعصب بطنه بحجر . والمعصب : الذي عصبته السنون أي أكلت ماله . وعصبتهم السنون : أجاعتهم . وعَصَبَ الدهر ماله : أهلكه . ورجل معصب : فقير . من يوم عصيب شديد : وقيل هو الشديد الحر . وليلة عصيب . وعصب القوم أمر يعصبهم عصبا إذا ضمهم واشتد عليهم .. (٥)

---

(١) المفضليات ، ص٢٣٩ . استعوى : استدعى واستنصر . النعم : الإبل .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص١٣٨ . وجاء في شرح القراضبة : القرضوب والقرضاب اللص الخبيث .

(٣) ديوانه ، ص١١٧ .

(٤) ينظر شرح شعر زهير ، ص٧٩ . والمفضليات ، ص٣٤١ .

(٥) لسان العرب مادة "عصب" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمعصب هو نفسه الفقير المحتاج يعصب بطنه بحجر أو بالخرق إذا اشتد عليه الجوع . يقول بشر بن أبي خازم في المدح :

بحرٍ يفيضُ لِمَنْ أَنَاخَ بِبَابِهِ مِنْ سَائِلٍ وَثِمالِ كُلِّ مُعَصَّبِ (١)

والمعصب الفقير المحتاج يعصب رأسه (٢) ورجليه بالخرق للجهد ، عليه ثياب مشدودة بعضها إلى بعض كما جاء في شرح الطوسي لبيت من قصيدة للبيد بن ربيعة العامري في الرثاء ، يتحدث لبيد فيها عن النوق والإبل :

وقَدْ كَانَ المعصَّبُ يَعْتَفِيهَا وَتُحْبَسُ عِنْدَ غَايَاتِ الذِّمامِ (٣)

لذلك نرى من يرثي قومه متمدحا بأنهم كانوا خير قوم لهذا الفقير الذي يعصب بطنه بالحجر من الجوع . يقول عبيد بن الأبرص يبكي على قومه الماضين :

أيامَ قَوْمِي خيرَ قَوْمٍ سُوَقَةٍ لِمُعَصَّبٍ وَلِبَائِسٍ وَلِعَانِي (٤)

٤- المُجَرَّف

جاء في لسان العرب ، الجرف : الأخذ الكثير .... الجارف : شؤم أو بلية تجترف مال القوم . والجارف الموت العام يجرف مال القوم . ورجل مجرِّفٌ ومتجرِّف مهزول . وكبش متجرف : ذهب عامة سمنه . وجرف النبات : أكل عن آخره . وجُرِفَ في ماله جَرْفَةً إذا ذهب منه شيء . والمُجرَّفَ والمَجَارَفُ : الفقير .... ورجل مُجَرَّفٌ : قد جرّفه الدهر أي اجتاح ماله وأفقره (٥) .

فالمجرَّف بهذا المعنى كان ذا مال ذهبت به الخطوب والأحداث المهلكة للأموال المهزلة لأصحابها .

---

(١) ديوانه ، ص٣٨ . الثمال : الملجأ والغياث والمطعم في الشدة .

(٢) ينظر ديوان الحارث بن حلزة ، ص١٩ .

(٣) شرح ديوانه ، ص٢٠٣ . يعتفيها : يأتيها يطلب خيرها . غايات الذمام : يريد ما يلزمه من الحياء والتكرم .

(٤) ديوانه ، ص١٤٨ .

(٥) مادة "جرف" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا زهير بن أبي سلمى – إذا ما ذهبت بأمواله الجوارف مرة – تكفل بحاجته ابن سنان ، فيقول مادحا :

إذا جَرَّفَتْ مَالي الجوارِفُ مَرَّةً تَضَمَّنَ رِسْلا حَاجَتِي ابنُ سِنَانِ (١)

ونرى أن هذا الفقير كان كريما ولكن أصابته خطوب جرفت ماله وأهزلته ، لذلك نرى عروة بن الورد يعطف ويجود عليه ويكرمه أشد الكرم حتى يفتقر عروة نفسه من جوده على هذا المجرف الفقير الأعجف أبي العيال الصغار (٢) .

والأشعث المتجرف الذي جرفت السنون ماله يأوي إلى القوم زمن الشدة والبرد . يصرح بذلك طرفة بن العبد مفتخرا بأن هذا الأشعث يأوي إلى قومه :

تبيتُ إمَاءُ الحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا ويأوِي إلينا الأشعثُ المُتَجَرِّفُ (٣)

وهذا عمرو بن الأهتم يوصي ابنه بالأشعث الذي أذهبت ماله مصيبة نزلت به مرة بعد مرة (٤) .

٥ ـ المخذول

الخذل ترك الإعانة والنصرة . والخاذل : ضد الناصر . خذله وخذل عنه يَخْذُلُهُ خَذْلا وخِذلانا : ترك نصرته وعونه ... والمخذول الذي تركه قومه ولم ينصروه ... وتخاذَلت رجلا الشيخ : ضعفتا ... ورجل خذول الرجل : تخذُلُه رجله من ضعف أو عاهة أو سكر (٥) .

فالخذل يكون لسبب ما كالضعف مثلا أو للفقر والحاجة . لذا نجد من يفتخر بمساعدة المخذول الفقير الذليل الذي غاب عنه الأقربون . يقول في ذلك طرفة بن العبد مفتخرا :

والمَجْدُ تَنْمِيهِ وَتَنْتِدُهُ والحَمْدُ في الأكْفَاءِ نَدَّخِرُهْ
نَعْفُو كَمَا تَعْفُو الجِيَادُ عَلى العِلَّاتِ والمخذُولُ لا نَذَرُهْ
إنْ غَابَ عنْهُ الأقربونَ ولمْ يُصْبَحْ بِرَيِّقِ مَائه شَجَرُهْ
إنَّ التَّبَالِيَ في الحَيَاةِ ولا يُغْنِي نَوَائبَ مَاجِدٍ عُذَرُهْ

---

(١) شرح شعر زهير ، ص٢٦٩ . رسلا : على هينته .

(٢) ينظر في ذلك شعر لعروة بن الورد في ديوانه ، ص١٠٧-١٠٨ .

(٣) ديوانه ، ص٩٨ .

(٤) ينظر في ذلك شعره في المفضليات ، ص٤١٠ .

(٥) لسان العرب مادة "خذل" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل امرئ فيما ألَمَّ بهِ يَوْماً يُبِينُ مِنَ الغِنَى فُقُرُهْ (١)

٦- المدفع

جاء في لسان العرب : الدفع : الإزالة بقوة . وَدَفَعَهُ يَدْفَعُه دَفْعاً وَدِفاعًا وَدافَعَه ودفَّعه فاندفع ووتدفَّع وَتَدافع وتدافعوا الشيء دَفَعه كلُّ واحد منهم عن صاحبه ... . والمُدَفَّع والمتدافَع : المحقور الذي لا يُضَيَّف إن استضاف ولا يُجدى إن استجدى ، وقيل : هو الضيف الذي يتدافعه الحي ، وقيل : هو الفقير الذليل لأن كلا يدفعه عن نفسه ..(٢) .

وفي الشعر الجاهلي نعثر على صورة للمدفع الفقير الذي برته السنون وأهزلته الخطوب (٣) لذلك فهم يفتخرون ويتمدحون بالعطف عليه ومساعدته والأخذ بيده . وثمة من يفتخر باستضافة المدفع عندما لا يضيفه أحد لشدة حال الناس وما هم فيه من الجهد . وذلك في فصل الشتاء . يقول لبيد بن ربيعة مفتخرا :

وإذا شَتَوْا عَادَتْ عَلى جِيرَانِهِمْ رُجَحٌ تُوَفِّيها مَرَابِعُ كُومُ
لا يَجْتَوِيهَا ضَيْفُهُمْ وَفَقِيرُهُمْ وَمُدَفَّعٌ طَرَقَ النُّبُوحَ يَتِيمُ (٤)

٧- الضعفاء

كأن المجتمع الجاهلي – لاعتماده على القوة في الغالب – لم يكن لضعيف البنية هزيل الجسم حظ في الرزق كما ينبغي . ونستدل على ذلك من الشعر الجاهلي ، وكيف أن الضعفاء كانت تحل عليهم الشفقة والحنية والمساعدة ، فكان العطف على الضعفاء مدعاة للتفاخر

---

(١) ديوانه ، ص٩٢ . ننميه : نرفعه . نتلده : نجعله تالدا ونورثه أولادنا . نعفو : نعطي دون مسألة . تعفو الجياد : تسرع الخيل دون زجر ولا ركض بالأرجل . على العلات : أراد مهما كنا في ضيق وفقر . ريق كل شيء : أوله . وقوله لم يصبح شجره بريق مائه : أي إذا افتقر وذل . التبالي : المبالاة والإهتمام . العذر الواحدة عذرة : ما يعتذر به .

(٢) مادة "دفع" .

(٣) ينظر في ذلك ديوان الأسود بن يعفر ، ص٥٤ .

(٤) شرح ديوانه ، ص١٣٦ . رجح : جفان عظام ثقال . توفيها : تملؤها . مرابع : اللواتي نتجن في الربيع . كوم عظام الأسنمة مفردها كوماء . يجتويها : يكرهها . النبوح : الأحياء قال الأصمعي هي ضجة الناس والحي وأصواتهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتمدح (١) . ونجد من يفخر بأنه لا يرهب الهزال والضعف لعلو همته قويا وضعيفا (٢) . مع أننا نجد من يشكو من الهزال والضعف بسبب الخطوب والمصائب (٣) .

ولهوان الضعيف وقلة حيلته وعجزه وفقره نجد من يوصي امرأة بأن لا تقترن بضعيف عاجز (٤) .

ونجد في جانب من الشعر الجاهلي التمدح بالعطف والشفقة على الضعيف الفقير . يقول حسان بن ثابت في مدح آل جفنة ملوك الشام :

المُلْحِقِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ والمُشْفِقِينَ عَلَى الضَّعِيفِ المُرْمِلِ (٥)

ويقول امرؤ القيس في بيتين من الشعر يرثي فيهما الحارث بن حبيب السلمي وكان خرج معه إلى الشام بأنه كان أبا رحيما يعطف على الأيتام والضعاف الهزلى .. ويحل مشاكل الضعفاء :

ثَوى عِنْدَ الوَدِيَّةِ جَوْفَ بُصرى أبو الأيتام والكَلِّ العِجافِ

فمنْ يحمي المُضافَ إذا دَعَاهُ ويحمِلُ خُطَّةَ الأَنَسِ الضِّعَافِ (٦)

ويقول الحادرة مفتخرا ومخاطبا سمية :

إذ لا يُدَنِّسُنَا الشَّتَاءُ ولا نَطَأُ الضَّعِيفَ إرادَةَ الأَكْلِ (٧)

ونجد صورة مغايرة بعض الشيء في شعر السموأل بن عادياء للضعيف الدقيق عند دعوة الشاعر إلى القناعة والرضا . فالأرزاق لا تجري على القوة والاجتهاد وإنما يصرفها الخالق بقضائه وإرادته . يقول السموأل من ذلك :

ليسَ يُعْطَى القَوِيَّ فَضْلًا مِنَ الرِّزْ قِ ولا يُحْرَمُ الضَّعِيفُ الشَّخِيتُ

---

(١) ينظر مثلا ديوان حاتم الطائي ، ص٩٣ .

(٢) ينظر مثلا الحماسة البصرية ، ٥٨٨/١ .

(٣) ينظر مثلا شرح ديوان لبيد ، ص١٠٠ .

(٤) ينظر في ديوان الحماسة ، ١٣١/١ .

(٥) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ .

(٦) ديوانه ، ص١٣٢ . ثوى : مات . الودية وجوف بصرى موضعان في الشام . الخطة : الأمر المشكل . الأنس : الناس ، الجماعة الكثيرة .

(٧) ديوان شعره ، ص٣٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلْ لِكُلِّ مِـنْ رِزْقِهِ مـا قَضَى اللـ ـهُ وإنْ حَـزَّ أَنْفَـهُ المُسْتَمِيتُ (١)

٨- كبير السن

إذا لازم الفقر بعض الضعفاء فإنه قد لازم بعض كبار السن أيضا . لأنه في الكبر والتقدم في العمر عجز جسمي ونحول وهزال وانحناء في الظهر ، فيصعب من هي حاله هكذا أن يطلب الرزق كما لو كان شابا . فيشتد فقر كبير السن إذا لم يجد معينا من صلبه أو من ذوي قرباه .

فنجد من يشكو - من كبار السن - من ابتعاد ابنه عنه وجفوته له وخيانته لأبيه في وقت كبره وهو أحوج إلى معين في هذا الوقت (٢) خصوصا إذا كان كبيرا محني الظهر ذا عيال (٣) .

ونجد من الشعراء الجاهليين من يذم الشيب ويشكو الكبر والشيخوخة (٤) . فالشيب عار (٥) وهم وشقاء (٦) . والنساء لا يحببن الكبير ذا الشيب (٧) بل يرغبن الغني الشاب (٨) ويبتعدن عنه إذا ما كبر وشاخ (٩) .

يقول عبيد بن الأبرص يخاطب عرسه التي تلومه على كبره وقلة ماله :

زَعَمَتْ أَنَّنِي كَبِرْتَ وأَنِّي قَلَّ مَالِي وضَنَّ عَنِّي المَوالي (١٠)

---

(١) ديوانه ، ص٨٢ . وينظر البيتان في الأصمعيات ، ص٨٦ ، مع اختلاف في الرواية . "وإن حز ...." أي لو استمات في سبيل طلبه .

(٢) ينظر شعر في ذلك ديوان الحماسة ، ٣٨٩/٢ .

(٣) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص١٥٦ .

(٤) ينظر السابق ، ص٣٤ .

(٥) ينظر ديوان عبيد ، ص٢٤ .

(٦) ينظر ديوان عدي بن زيد ، ص١١٣،١٢٣ .

(٧) ينظر ديوان علقمة الفحل ، ص٣٦ . وديوان الحطيئة ، ص١٧٣ .

(٨) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص١٤ .

(٩) ينظر ديوان الأسود بن يعفر ، ص٥٩ .

(١٠) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص١١٤ . الموالي : أبناء الأعمام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعروة بن الورد يصور الكبير في السن : أنه يدب على العصا فيشمت به الأعداء ويسأمه أهله ، وهو رهينة قعر البيت لايبرحه ، منحن كأنه فرخ النعامة يطيف به الولدان ، وهو ضعيف الخطو ، يقول عروة في ذلك من قصيدة له يذكر فيها الغزو ، والطواف أفضل من الجوع والهزال والقعود في البيت كهذا الشيخ :

أليسَ وَرائي أَنْ أَدِبَّ عَلى العَصَا ... فَيَشْمَتَ أَعْدائي وَيَسْأَمَنِي أَهْلي
رَهِينَةَ قَعْرِ البَيْتِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... يُطِيفُ بِيَ الوِلْدَانُ أَهْدَجَ كالرَّأْلِ (١)

٩- الضرير

قال ابن منظور في لسانه من مادة "ضرر" ... "والضُّر ، بالضم ، الهزال وسوء الحال .. وكل ماكان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضر ، وما كان ضدا للنفع فهو ضر . والضّرّاء : السنة . والضاروراء : القحط والشدة . والضُّرّ : سوء الحال وجمعه أَضُرّ . والضّرّاء نقيض السراء . اختبرنا بالضراء : بالفقر والشدة والعذاب فصبرنا ... والضُّر أيضا هو حال الضرير ، وهو الزمن . والضراء : الزمانة . ورجل ضَرِير ذاهب بصره . والرجل ضرير : من الضَّر سوء الحال . والضَّرير : المريض المهزول ، والجمع كالجمع ، والأنثى ضَرِيرة" .

لذلك نجد حاتما الطائي وقومه يهينون الأموال في سني القحط والشدة ، ويكفون حاجة الضرير فلا يشكو هما . يقول حاتم مفتخرا :

وإنّا نُهينُ المَالَ في غَيْرِ ظِنَّةٍ ... وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السِّنِينَ ضَرِيرُهَا (٢)

وكان الضرير يشكو ويلح إلحاحا بحاجته . وقد شبه بعض الشعراء إلحاح الذئب إلحاحا بحاجته - يريد طعاما يأكله - بشكوى الضرير (٣) .

ونجد هذا الضرير المحتاج هزيلا مريضا قد جفاه بنو عمه وأقاربه ، فهو كالكساء أو الشيء المطروح لا فائدة مرجوة منه . وليس له همة ولا عزم في الأمور ، وتفاخر ربيعة بن مقروم وقومه بإعطائه والتوسعة له في عيشه . يقول ربيعة :

---

(١) ديوانه ، ص١١٤ .

(٢) ديوانه ، ص٩٣ .

(٣) ينظر شعر في ذلك ، الأصمعيات ، ص٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشعثَ قد جَفا عنْه الموالي ... لَقيَ كَالجِلْسِ لَيْسَ بهِ زَمَاعُ
ضريرٍ قَدْ هَنَأْنَاهُ فَأَمْسَى ... عليْهِ فِي مَعِيشَتِهِ اتِّسَاعُ (١)

١٠- الغارم

جاء في لسان العرب : غَرِمَ يَغْرَمُ غُرْمَاً وغَرَامةً ، وأغْرَمَهُ وغَرَّمَهُ ، والغُرْمُ : الدَّين . ورجل غارم : عليه دين . وفي الحديث : لا تحل المسألة إلا لذي غُرْمٍ مفظع أي ذي حاجة لازمة من غرامة مثقلة . والغريم الذي له الدين والذي عليه الدين جميعا والجمع غرماء . والغريمان سواء المغرم والغارم (٢) .

والدين شديد الوطأة على الغارم لأنه يظل مطلوبا لتسديد ما عليه من دين ، فيقع في حزن وهم كبيرين ، خصوصا إذا لم يكن له من يعينه على تسديد هذا الدين لأصحابه ، وكان الدائن كثير الإلحاح على المدين ، كثير الترداد عليه .

وكان بعض الشعراء الجاهليين يشبهون طيف المحبوبة بكثرة معاودته في خيال المحب كما يلح الدائن على المدين لكثرة ترداده عليه . كما يشير إلى ذلك سَلَمة بن الخُرشب الأنماري في بداية قصيدته :

تَأَوَّبَهُ خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى ... كَمَا يَعْتَادَ ذا الدَّيْنِ الغَرِيمُ (٣)

وكما يقول زهير بن أبي سلمى :

تُطَالِعُنَا خَيَالاتٌ لِسُلْمَى ... كَمَا يَتَطَلَّعُ الدَّيْنَ الغَرِيمُ (٤)

لذلك نرى التفاخر بإعطاء القروض وتأجيل أخذها (٥) ، وعدم الإلحاح على الغارم برد الدين (٦) .

---

(١) المفضليات ، ص١٨٧ .

(٢) لسان العرب مادة "غرم" .

(٣) المفضليات ، ص٣٩ . تأوبه : راجعه . ذو الدين : الذي عليه الدين . الغريم : الذي له الدين .

(٤) شرح شعره ، ص١٥٣ .

(٥) ينظر مثلا : شعر لأوس بن حجر في ديوانه ، ص٢٧ .

(٦) ينظر مثلا : شعر لطرفة بن العبد في ديوانه ، ص٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتمدح الشعراء بمن يعين الغارم (١) وبمن يدفع المغارم والديون عن المحتاجين الذين يثقل عليهم الدين . كما ينوه إلى ذلك بشر بن أبي خازم في مدح أوس بن حارثة قائلا :

إلى ماجدٍ أعطى على الحمْدِ مالَهُ جَميـلِ المُحَيَّا لِلْمَغَـارِمِ دَافِـعُ (٢)

ونراهم أيضا يفخرون بحمل الغرامات والديات وبأداء الحقوق عن غيرهم ، فيدفعون الديـات عن المعسر (٣) وينوبون عن قومهم في الحقوق ودفع الغرامات والديات (٤) .

ونجد في شعر الرثاء صورة المرثي الذي يكرم الضيف ويرعى الجار ويتحمل الحقوق ويعطف على الفقير ويحمل الغرم . من ذلك يقول الجميح الأسدي في رثاء نضلة :

يا نَضْلَ للضَيفِ الغَرِيبِ وللـ ـجَارِ المُضِيمِ وحامِلِ الغُرْمِ (٥)

١١- المولى الفقير

للمولى معان متعددة . ويأتي المولى بمعنى الحليف ، وابن العم أو القريب ، والموالي بنوالعم . وقيل للمعتفين الموالي .. (٦) .

فثمة من يعطف على الموالي ويصبرعلى مصائبهم إذا ضن عليهم ذوو القربى (٧) . ورب قريب خذله أقاربه وجفوا عنه وتحاموه كما يتحامى الناس البعير الأجرب الذي طلي بالقار لما بـه من الجرب يعطف عليه أحدهم حين لا تعطف الوالدة على ولدها لشدة الزمان وعموم المحل وقلة الدر ، يقول أحدهم في هذا المعنى :

وَمَوْلَىً جَفَتْ عَنْهُ المَوالِي كَأَنَّهُ مِنَ البُؤسِ مَطْلِيٌّ بِهِ القَارُ أَجْرَبُ

رَثَمْتُ إِذا لَمْ تَرْأَمِ البَازِلُ ابنَهَا وَلَـمْ يَكُ فِيهـا لِلْمُبِسِّيـنَ مَحْلَبُ (٨)

---

(١) ينظر مثلا ديوان أوس بن حجر ، ص١٢٥ .

(٢) ديوانه ، ص١١٤ .

(٣) ينظر مثلا ديوان الأعشى ، ص٢٥٣ . والمفضليات ، ص٣٥٦ .

(٤) ينظر المفضليات ، ص٣٥٨ .

(٥) المفضليات ، ص٣٦٨ ، والبيت في الأصمعيات ، ص٢٥٥ . المضيم : المظلوم .

(٦) لسان العرب مادة "ولي" .

(٧) ينظر في ذلك شعر لعمرو بن قميئة في ديوانه ، ص١٢ .

(٨) ديوان الحماسة ، ٣٠/٢ . والبازل : الناقة التي لها تسع سنين . المبسون الحالبون المصوتون عند الحلب : بس بس ، لتدر الناقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان المولى فقيرا محتاجا ذليلا سيء الحال ، يفتخر البعض بإعطائه وسد حاجته ، وهذا ما فعله لبيد بن ربيعة ، حتى أنه افتقر لكثرة كرمه وجوده على الضيوف والمحتاجين والموالي الفقراء ، يقول لبيد يرد على اللائمة التي تلومه على سوء حاله ، بأن ماله قد زال لكرمه وجوده ومساعدته القريب الفقير :

ولكنَّ مَالِي غَالَهُ كُلَّ جَفْنَةٍ إذا حانَ وِردَ اسْبلَتْ بدُمُوعِ
وَإِعْطَائِيَ المَوْلَى عَلى حِينَ فَقْرِهِ إذا قَالَ أَبْصِرْ خَلَّتي وخُشُوعِي (١)

وهذا الأعشى يفتخر بقومه بإهانتهم الأموال زمن السوء ، يعطفون على القريب إذا ضن الموسرون وطووا مالهم عن الصديق والقريب ، وكشفت الشدة عن مخبوء الطبائع وعن حقائق الأخلاق ، يكون قومه كذلك إذا :

وإذا ذُو الفَضُولِ ضَنَّ عَلى المَوْ لى وَصَارَتْ لِخِيمِهَا الأَخْلَاقُ (٢)

لذلك نجد التمدح بصلة الرحم والعطف على الأقرباء وعدم قطعهم (٣) .

١٢- الجار الفقير

عني الجاهليون بمساعدة الجار المحتاج ، وتمدح الشعراء وتفاخروا بعونه وسد حاجاته زمن الجدب والشدة . وهجوا من كان يبيت شبعانا وجاره جائع ، ولو كان هذا الهجاء مخالفا للواقع ، فهذا الأعشى يهجو عَلقمة بن عُلاثة وقومه بقوله :

تَبِيتُونَ في المشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا
يُرَاقِبْنَ مِنْ جُوعٍ خِلالَ مَخَافَةٍ نُجُومَ السَّمَاءِ الطَّالِعَاتِ الشَّوَاخِصَا (٤)

وقد وجد في المجتمع الجاهلي الغني المتخم بالمال والطعام وجاره الفقير الجائع (٥) . فمن هنا افتخر الشعراء وتمدحوا بأن الجيران يألفونهم في الشتاء (٦) ، ويحمدونهم ويثنون

---

(١) شرح ديوانه ، ص٧٠-٧١ .

(٢) ديوانه ، ص٢٦٣ .

(٣) ينظر السابق ، ص٢٨٥ . وديوان عروة ، ص٦٨ . وديوان حاتم ، ص١٠٤،١١٢ .

(٤) ديوانه ، ص١٩٩ . وفي البيت الثاني وصف للجارات ، فلا يزلن في جوعهن يترقبن غفلة الحي في الليل وطلوع النجوم ليخرجن فيلتقطن ما يقوتهن .

(٥) ينظر في ذلك ديوان الحماسة ، ١٨/٢ .

(٦) ينظر في ذلك ديوان عبيد ، ص١٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهم (١) . وتفاخروا بأنهم عون للجار القريب والغريب والبعيد وهم غيث للجيران يعطونهم ويقربونهم ويؤمنونهم من المصائب (٢) . ويكرمون الجار عند القحط وشدة الزمان وإذا ما هبت الريح الباردة (٣) . وهم نعم مناخ الجار عند الشدة والجوع ، يقول لبيد بن ربيعة من ذلك :

وَنِعْمَ مُنَاخُ الجَارِ حلَّ بِبَيْتِهِ ... إذا ما الكَعَابُ أَصْبَحَتْ لَمْ تَسَتَّرِ (٤)

فيدفعون هذا الجوع عن جارهم حتى يقوى ويشتد ويصير كالغصن المورق النضير يقول الأعشى متمدحا :

والشّافعُونَ الجُوعَ عَنْ جَارِهِمْ ... حتَّى يُرى كالغُصْنِ النَّاضِرِ (٥)

ويفتخرون بإطعام ابن جارهم إذا جاع (٦) ، وأن جارتهم لا تجوع (٧) ، فيقومون مقام الأهل والعشيرة للجارة ، لا يطمعون في مالها فيسعون لنكاحها إن كانت ذا ثراء ولا يضيقون بها فيسلمونها إن كانت فقيرة معدمة ، يشير الأعشى إلى ذلك في مدح سلامة ذا فائش بن يزيد بن مرة الحميري وهو أحد أمراء اليمن بقوله :

وقومُكَ إنْ يَضْمَنُوا جَارَةً ... يَكُونُوا بِمَوْضِعِ أَنْضَادِهَا

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِلْغِنَى ... وَلَنْ يُسْلِمُوهَا لإزْهَادِهَا (٨)

ويخزى أحدهم ـ كذلك – إذا بات شبعانا وجاراته جوعى (٩) ، يشير إلى مثل هذا المعنى عدي ابن زيد :

---

(١) ينظر في ذلك المفضليات ، ص١٢٠ . وشاعرات العرب .. ، ص٦٩ .

(٢) ينظر في ذلك شرح ديوان لبيد ، ص٣١٨ . وديوان سلامة ، ص٢٢٦ . وديوان الأسود ، ص٥٤ .

(٣) ينظر في ذلك ديوان الأعشى ، ص٣٥٩ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٠٣– . وديوان شعر المثقب العبدي ، ص٢٢٩ . والمفضليات ، ص٢٩ . وديوان الحماسة ، ١٠٨/١ .

(٤) شرح ديوانه ، ص٥٠ .

(٥) ديوانه ، ص١٩٥ .

(٦) ينظر ديوان علقمة ، ص١٢٦ .

(٧) ينظر ديوان حاتم ، ص٩٣ .

(٨) ديوانه ، ص١٢٥ .

(٩) ينظر ديوان حاتم ، ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَبَسْلٌ أَنْ أَرَى جاراتِ بَيْتي يَجُعْنَ وَأَنْ أَرَى أَهْلِي شِبَاعَاً (١)

وفي شعر الرثاء يكون المرثي للجار المظلوم والمحتاج عونا وغيثا ، فمن لهذا الجار بعد موت المرثي (٢) .

١٣- الضيف والمستنبح وابن السبيل

لكثرة التنقل والارتحال في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ثمة من يضل الطريق ، فيسير على غير هدى في صحراء واسعة يكثر فيها الآل والسراب ، فيبتغي الاهتداء لأي شخص أو حي يستضيفه ، أو يهديه السبيل . وأثناء هذه الرحلة قد يتعرض هذا الضال ، الذي يمشي ليله ونهاره ، لأخطار ومشاكل قد تودي بماله وزاده ؛ فتراه هزيلا ضعيفا فقيرا مضيعا رث الثياب في بيئة قاسية لاترحم .

يقول عمرو بن الأهتم في هذا الضيف الأشعث وقد جرفت المصائب ماله :

يَؤُوبَ إِلِيكَ أشعثَ جَرَّفَتْهُ عَوَانٌ لَا يَنَهْنِهُهَا الفُتُورَ (٣)

لذلك نجد عمرو بن الأهتم يوصي ابنه بإكرام هذا الضيف إذا نزل بأدبار البيوت في الوقت الذي لا يحفظ فيه جار ولا يقرى ضيف لشدة الزمان فيرمى بأكوارهم وراء البيت .

وهذا حسان بن ثابت يصور ضيفا مقبلا قام بنحر الكوماء له ، يقول :

وإذا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرْبِلٍ أَثْوابَ مَحْلٍ مُقْفِرِ

أَوْمَى إِلى الكَوْمَاءِ هَذا طَارِقٌ نَحَرَتْنِيَ الأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تَنْحَرِي (٤)

والضيف قريبا كان أم بعيدا غريب الدار ، من داخل القبيلة أو من خارجها ، قد يجد من يضيفه ويحسن مثواه ويكرمه . فيسعد القوم أو المضيف به إذا اشتد الزمان وعم الجدب في برد الشتاء (٥) . وكان "الإكرام في العام المسنت" (٦) .

---

(١) ذيل ديوانه ، ص١٤٧ . بسل : حرام .

(٢) ينظر المفضليات ، ص٣٦٨ .

(٣) المفضليات ، ص٤١٠ . العوان : التي ليست بأول : يعني مصيبة نزلت مرة بعد مرة . لا ينهنهها : لا يردها . الفتور : السكون .

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت ، ص٥٦ .

(٥) ينظر في ذلك مثلا : ديوان سلامة ، ص٢٢٦ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٠٣ . وديوان الحماسة ، ١/١٩٩، ٢/٢٥٦، ٢٤٩ .

(٦) البخلاء للجاحظ ، ص٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان بعض الجاهليين يعطفون ويأخذون بيد الضيف الضعيف (١) الهزيل الفقير (٢) الجائع المحروم (٣) ، وكان البعض يقدمون الضيف على العيال (٤) ، خصوصا عند هبوب رياح الشمال وضن البخلاء على ضيوفهم فلم يوقدوا النار خوفا من اهتداء الضالين طريقهم إليهم (٥) .

وتفاخر الجاهليون بإكرام الضيف الغريب (٦) البعيد الدار (٧) وتقديم النوق عظيمة السنام لهم إذا نزل بأحدهم (٨) . ونجد من يوصي بإكرام الضيف لأن للضيف حقوقا (٩) . وتراهم يذمون من يبيت عندهم الضيف جائعا محروما من الحليب أو اللبن (١٠) .

ونجد في المجتمع الجاهلي صورة للفقراء الذين يطرقون الأبواب طلبا للمعروف والإحسان (١١) . ويقوم البعض بمساعدة طارق الليل ، فيرحب به ويستقبل استقبالا حسنا (١٢) .

وثمة من يضل طريقه ليلا فينبح أو يعوي للكلاب كي تسمعه فترد عليه . فيستدل بصوتها على أناس يستضيفهم ، وكان الأعرابي ينبح إذا أراد القرى "وينبح وهو على راحلته" (١٣) وفي الشعر الجاهلي صورة لهذا الأعرابي (١٤) .

---

(١) ينظر ديوان حاتم ، ٩٣ .

(٢) ينظر ذو الإصبع ، ٩٣ .

(٣) ينظر بشر ، ٢١ . الأسود ، ٥٨ .

(٤) ينظر عامر ، ٧٨ .

(٥) ينظر الحماسة البصرية ، ١/١٢٧،٣٦٥ . وشاعرات العرب ، ٤٤ .

(٦) ينظر الأعشى ، ١٣٦،٢٥٣ . والمفضليات ،٣٦٨ .

(٧) ينظر سلامة ، ٢٢٦ .

(٨) ينظر السموأل ، ٨٨،٩١ .

(٩) ينظر الأعشى ، ٣٥٩ . وشرح ديوان أمية ، ٢٥ .

(١٠) ينظر الأسود ، ٥٨ .

(١١) ينظر عروة ، ١٨ .

(١٢) ينظر المفضليات ، ٣٢٦ .

(١٣) البخلاء للجاحظ ، ص٢٣٨ .

(١٤) ينظر ديوان شعر المتلمس الضبعي ، ص٣١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الشعر الجاهلي صورة لهذا المستنبح أو طارق الليل ، جاء يريد المبيت (١) يخشى من الهلاك في الأرض الخالية (٢) وخوفا من البرد الشديد .

يقول عمرو بن الأهتم بن سُمَيّ السَعدي المنقري في المستنبح :

وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الهُدُوءِ دَعَوْتُهُ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشِّتَاءِ خُفُوقُ

يُعَالِجُ عِرْنِيناً مِنَ الليلِ بارِدا ... تَلُفُّ رِياحٌ ثَوْبَهُ وَبُرُوقُ (٣)

فقام عمرو بالترحيب به واستضافته في أبيات شعر له بلغت عشرة أبيات .

ونجد في جانب من الشعر صورة أخرى للمستنبح أو طارق الليل ، فهو يجيء ليلا وكانت تضربه ريح باردة نكباء من جمادى صرصر ، يكاد رأسه يسقط من مكانه لكثرة تلفته وشدة حيرته وتسمعه للصوت ، أي صوت ، كي يلتجئ لأي شخص يؤويه لأنه ضل الطريق ، وقد وردت صورة هذا المستنبح في ديوان الحماسة لأبي تمام . يقول أحد الشعراء في ذلك :

ومستنبحٍ تهوي مَسَاقِطُ رأسِهِ ... إلى كُلِّ شَخْصٍ فَهْوَ لِلسَّمْعِ أَصْوَرُ

يُصَفِّقُهُ أَنْفٌ مِنَ الرِّيحِ بَارِدٌ ... وَنَكْبَاءُ ليلٍ مِنْ جُمَادَى وصَرْصَرُ (٤)

ونجد كذلك في جانب من الشعر الجاهلي صورة المسافر آخر الليل أو ابن السبيل فقيرا بائسا ، تمدح بعضهم بتقديم العون له ومساعدته . وكانوا يشعلون النار ويرفعونها لعلها "تضيء لسار آخر الليل مقتر" (٥)

وفي شعر الرثاء كان المرثي يقري ابن السبيل ، وكان للمسافر ليلا خير معين وللغادين بالنهار خير مقيل (٦) .

---

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٢٩/٢ .

(٢) ينظر المفضليات ، ص١٧٦ .

(٣) ينظر السابق ، ص١٢٦ . والنجم هنا الثريا ، وذلك أنها تخفق للغروب جوف الليل في الشتاء . العرنين : الأنف ، والمراد به هنا أول الليل . بروق : إنما اللف للرياح خاصة ، فأتبع البروق الرياح على مجاز الكلام ، كأنه قال : وتلمع له بروق .

(٤) ٢٩٦/٢ . الأصور : المائل . يصفقه أي يضربه . الأنف من الريح أوله . النكباء كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الأربع . جمادى : شهر من شهور الشتاء . الصرصر الريح الباردة . والمراد من البيت الثاني وصف الضيف بما لاقاه من أذى الريح وشدة البرد والمطر ليكون له عذر في استنباحه الكلاب وطلبه من ينزل عنده .

(٥) ديوان الحماسة ، ٣٣٧/٢ .

(٦) ينظر السابق ، ٤٤٠/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤- الجادي

جاء في لسان العرب في مادة "جدى" : والجادي : السائل العافي .

والعافية والعفاة والعفى : الأضياف وطلاب المعروف ، والعافية : طلاب الرزق من الإنسان والدواب والطير .. والعوافي . والعافي : السائل من عفا يعفو (١) .

يقول حجية بن المضرب في مدح يعفر بن زرعة :

وَلَوْ كَانَ في الأَرْضِ البَسِيطَةِ مِثْلُهُمْ ... لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَا عُـرِفَ الفَقْرُ (٢)

فالعافي فقير ، وإلا لما عرف الفقر على رأي حجية .

وكان العفاة أو السائلون كثيري العدد في العصر الجاهلي ، لا يستهان بهم ، نجد لهم صورة عند الأعشى عندما مدح قيس بن معد يكرب الكندي ، فهم يطوفون بأبواب الممدوح كما يطوف النصارى ببيت الوثن :

يَطُـوفُ العُفَـاةُ بِأَبْوابِـهِ ... كَطَوْفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الوَثَنْ (٣)

ولا يخفى أمر المتعبد في عبادته كيف يكون متخشعا متضرعا في شيء من الذل والمسكنة .

ويكثر طلاب المعروف والسائلون في الزمن المحل . يقول الحطيئة مادحا :

وَمَنَاخَ العافينَ في الزّمنِ المَحْـ ... ـلِ إذا أَجْحَرَتْ حَنِيـنُ الشَّمَـالِ (٤)

وسائل الحاجة لا يستهان به ، أيضا ، كونه ينقل أخبار القوم ويذيعها بين الناس ، فإن أكرم وأحسن مثواه ، ونال حاجته ، مدح القوم وأذاع صيتهم بالخير ، وإلا فسوف يشهر بمن يضن عليه ويمنعه حاجته بالسوء والبخل .

يشير إلى ما سبق عدي بن زيد بقوله :

عَسَى سائلٌ في حَاجَةٍ إنْ مَنَعْتَه ... مِنَ اليَوْمِ سَوْلًا أَنْ يَسُوءَكَ فِي غَدِ (٥)

فنراهم يعطفون على المستهنئ طالب العطاء والمعتفين طلاب الأرزاق والمعروف (٦) ،

---

(١) لسان العرب مادة "عفا" .

(٢) الحماسة البصرية ، ٤٥٧/١ . المختبط : طالب المعروف .

(٣) ديوانه ، ص٧١ .

(٤) ديوانه ، ص٢٤٤ .

(٥) ديوانه ، ص١٠٧ .

(٦) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص٧٤ . وديوان عامر ، ص٧٦ . والمفضليات ، ص١٨٣، ٢٧٧ . وديوان الحماسة ، ٢٤٩/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتفاخرون بالميسر لرد جوع العفاة (١) ، وغيث المحوج الجادي* .

وكانوا يكرمون المعتفين وطلاب الفضل والرزق قبل العيال بالسود من الخيل والإبل . يقول عمرو بن قميئة مفتخرا بقومه :

وَهُمْ مَا هُمُ عِنْدَ تِلْكَ الهَنَاتِ ... إذا زَعْزَعَ الطَّلْحُ رِيحُ الشَّمَالِ

بِدُهْمٍ ضَوَامِنَ للمعتفيـ ... ـنَ أنْ يمنَحُوهُنَّ قَبْلَ العِيَالِ (٢)

ونرى العطف على المتسول ذي الكيس يجمع فيه الصدقات من الناس يقربه الأعشى ويعطف عليه ، فقد اعتاد هذا المتسول زيارة قدر الأعشى التي نصبها للمعتفين حتى أصبحت هذه القدر لهذا الشحات الفقير أما رؤوما ، وكان هذا زمن القحط والجدب في فصل الشتاء والبرد . يقول الأعشى في القدر مفتخرا بنفسه :

تَرى أنَّ قِدْرِي لَا تَزَالُ كَأنَّها ... لِذِي الفَرْوَةِ المَقْرُورِ أُمٌّ يَزُورُها (٣)

والفروة الكيس الذي ينجمع فيه ما يجمعه هذا المتسول من الناس من الصدقات .

وإذا كان هذا المتسول الذي عطف عليه الأعشى ذا فروة واحدة فثمة متسول مدفع قد أهزلته السنون صاحب فروتين ، عطف عليه الأسود بن يعفر (٤) .

فأي متسول وما قيمته هذا الذي يفتخر الشاعر – الأعشى مثلا – بإطعامه والشفقة عليه !؟ .

أظن أن الشاعر لا يقدم على هذا الفخر إلا إذا كان هذا المحتاج الفقير نفرا واحدا من مجموعة كبيرة من المحتاجين والعفاة والفقراء الذين يشكلون ظاهرة لا يستهان بها في المجتمع الجاهلي .

---

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ٢١٣/١ .

(٢) ديوانه ، ص٥٨–٥٩ . الهنات : الشرور والفساد والشدائد والأمور العظام . الطلح : أعظم العضاه شجر كثير الورق وأشده خضرة وله شوك . ضوامن : ضوامر . العيال : الذي يتكفل بهم الرجل ويعولهم .

(٣) ديوانه ، ص٤٢١ .

(٤) ينظر ديوانه ، ص٥٤ .

* ينظر شاعرات العرب ، ص٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

فقراء من أصحاب الحرف

١- الصائد

إذا تحدثنا عن الصائد في العصر الجاهلي كما يصوره لنا الشعر الجاهلي ، فإننا نرى غير صنف للصائدين ، باعتبار الغاية من الصيد ؛ فكان البعض يخرج للصيد باعتباره رياضة بدنية يروح عن نفسه كما يفعل الأغنياء ، فكانوا يلاحقون الطرائد بأنفسهم أو بواسطة الخدم والغلمان .. كما تحدث في ذلك امرؤ القيس وطرفة بن العبد .

ولكننا نجد من كانت مهنة الصيد عنده حرفة يعتاش منها ، ولا سبيل رزق له ولعياله غيرها (١) . فكان البعض يعتمدون في قوتهم على صيد الحيوانات البرية ، وكثيرا ما تندر وتقل هذه الحيوانات ، زمن القحط والمحل ، فمن لهذا الصائد يعوله ويعول عياله ؟ إذا كان يعتمد الاعتماد الأكبر على حيوانات الصحراء .

فصائد القوت يعد من الفقراء ، لاعتماده الأساسي على الصيد ، ولا حرفة له غيرها ، في تلك البيئة الفقيرة الصحراوية التي يقل عطاؤها ، خصوصا في أوقات الجفاف والمحل ، فيجوع الصائد إذا لم يجد ما يصيده (٢) ، ويجوع أولاده (٣) ، وتجوع زوجته (٤) ، فلا يجد هذا الصائد أمامه إلا الاستجداء وطلب المعونة من الآخرين .

وعدا عن ذلك ، فقد يكون الصائد حاذقا يحقق هدفه من الصيد فيرجع إلى أهله باللحم الطري فرحا بما اصطاد (٥) . وقد يخيب في رحلته الشاقة في مطاردة حيوانات الصحراء ، فيلهف أمه أسفا على سوء حظه (٦) . وكثيرا ما كان الصائد الذي يصوره الشعراء الجاهليون

---

(١) ينظر : ديوان امرئ القيس ، ص١٠٣ . والمفضليات ، ص١٠١-١٠٢ ، ١٨٩ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص١٥٤ . وديوان أوس بن حجر ، ص٧٠-٧١ . وديوان الأعشى ، ص٤١٣ .

(٢) ينظر ديوان الأسود بن يعفر ، ص٤١ .

(٣) ينظر المفضليات ، ص١٨٩ .

(٤) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص١٥٤ .

(٥) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١٠٣ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص٣٢٩،٤١٣ . وديوان أوس ، ص٧٢ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص١٥٣ . والمفضليات ، ص٥٠،١٨٣،١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في قصائدهم عند حديثهم عن الرحلة وتشبيه الناقة بثور الوحش وبقر الوحش وحمار الوحش وأتانه ، كثيرا ما كان يخيب .

فكان الشعراء الجاهليون يشيرون إلى الصيد في قصائدهم ، ويصفون الصائد غالبا عند حديثهم عن الرحلة على ناقة تشبه الحمار الوحشي أو الثور .. أو البقرة ، فيصفون هذه الحيوانات المشبه بها ، إذ تفاجأ بهذا الصائد المسكين الذي لاحيلة له إلا قوسه وسهامه وحيطته وتربصه بهذه الحيوانات ، ليصطاد منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلا (١) .

وصور الشعراء الصائد الفقير ذا الصبية الشعث والزوجة الفقيرة . وسموا الصائدين أحيانا بأسمائهم ، ووصفوا مطاردتهم لحيوانات الصحراء .

ونجد من الشعراء من خصص قصيدة كاملة في وصف صائد القوت الفقير الذي ليس له حرفة يعتاش منها سوى الصيد (٢) .

ومن الصيادين في العصر الجاهلي "قيس أبو عامر" (٣) و "صفوان" (٤) و "صائد من بني جلان" (٥) ، وآخر من "جديلة" أو "لحيان" (٦) ، وصائد من "ثعل" (٧) وآخر من بني صباح (٨) .

---

(١) لمن يريد الإطلاع على صورة الصائد في قصة الثور والبقرة والحمار الوحشية ينظر كتاب "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، وهب رومية ، ص١١٤- ،١١٨- ، ١٢٨- ، ١٤٥- ، ١٤٨-، ١٥٠- .

(٢) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١٠٣ .

(٣) المفضليات ، ص١٨٢-١٨٣ .

(٤) السابق ، ص٥٠ .

(٥) السابق ، ص١٨٩ .

(٦) ديوان الأعشى ، ص٢٦٣ .

(٧) السابق ، ص٤١٣ .

(٨) ينظر المفضليات ، ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان هذا الصائد "أخو قترات" (١) و "أخو قنص" وأخو قفرة (٢) وكان صاحب كلاب "مكلب" (٣) ، فلديه "أكلب جسر" (٤) يسعى بها . أو هو "كلاب" (٥) .

وهو "صياد أغبر نحيل" خفيف لحم الفخذين (٦) ، "أزل كسرحان القصيمة أغبر" (٧) ضامر البطن كالسرحان أو الذئب . ظمآن "غائر العينين" (٨) غليظ الأصابع أو "شثن البنان" (٩) ، قصير غليظ (١٠) ، مهزول جائع (١١) ، مشغول عن التزين ، كبير في السن (١٢) .

والصائد "أبو صبية شعث" (١٣) أو "ذو صبية" (١٤) . وهو شقي تعيس "طويل شقاؤه" (١٥) ، كان يبيت جائعا إذا ما خاب في صيده (١٦) ، وكان أولاده يصيبهم من هذا الشقاء الشيء الكثير .

---

(١) ديوان أوس ، ص٧٠ .
(٢) شرح ديوان لبيد ، ص٦٩ .
(٣) ديوان بشر ، ص٤٠ . شرح ديوان لبيد ، ص١٤٥ .
(٤) شرح ديوان لبيد ، ص٦٩ .
(٥) ديوان الأعشى ، ص٤١٣ .
(٦) نظر ديوان الأعشى ، ص٣٢٩ .
(٧) ديوان بشر ، ص٨٤ . وشرح ديوان لبيد ، ص١٤٥ .
(٨) ديوان أوس ، ص٧١ .
(٩) ديوان أوس ، ص٧١ . وشرح ديوان لبيد ، ص٦٩ .
(١٠) ينظر ديوان أوس ، ص٧٢ . وشرح شعر زهير ، ص٢٧٩ .
(١١) السابق ، ص٧١ .
(١٢) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص١٠٣ .
(١٣) ديوان بشر ، ص٨٤ .
(١٤) ديوان الأعشى ، ص٤١٣ .
(١٥) المفضليات ، ص١٠١ .
(١٦) ينظر ديوان الأسود ، ص٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان أولاد الصائد شعثا عوابس هزلى كاليعاسيب (١) قد حالفوا الفقر والضنك زمانا (٢) . وكانوا ينتظرون أباهم الصائد ليأتي لهم باللحم "إن صباحا أو مسيا" (٣) وكانت الزوجة تشارك أولادها في هذا الانتظار . وكثيرا ما كان أولاد هذا الصياد الصغار يجوعون إذا رجع أبوهم خائب الرجاء (٤) فتراهم من الهزال كالسهام (٥) . وقد نجد زوجة الصائد ضعيفة هزيلة ثرثارة ، أخذت تلطم على وجهها لأن زوجها عاد إليها دون صيد (٦) . وقد تجد هذه الزوجة حمقاء (٧) .

ونجد في الشعر الجاهلي عند حديثهم عن الصيد ذكرا للرائش صانع ريش السهام أو الذي يريشها ، وكذلك نجد ذكرا للناجش الذي يحوش الصيد أو يثيره ليمر على الصائد (٨) ، ونجد من يصف الصياد الرابئ ، لصق بالأرض استتارا من الصيد لئلا ينفر منه ، وترى هذا الربيئة لاصقا به التراب دائما (٩) .

ونلاحظ صورة الصائد الفقير وأولاده وزوجته الفقراء واضحة إلى حد ما في الشعر الجاهلي .

فأوس بن حجر وصف صائدا عند معرض حديثه عن حمار الوحش وأتنه ، حيث كانت ذاهبة لتشرب من مورد الماء ، وهناك وجدت الصائد وقد بنى له قترة أو مصيدة أو ناموسا ، مصنوعة من صخور رقيقة . وكان هذا الصائد أسود غائر العينين ، عطشان ، شقق لحمه شدة الحر ، وهو مشغول عن التزين ، فهو أشعث ، قصير غليظ ، خشن البنان ، مهزول وجائع إذا لم يصد صيدا ثمينا ، أخو قترات ، لا يبيت مع أهله كثيرا ، إنما يبيت مع الوحوش أكثر ... لأن

---

(١) ينظر ديوان بشر ، ص٨٤ .

(٢) ينظر ديوان الأعشى ، ص٤١٣ .

(٣) ديوان عمرو بن قميئة ، ص١٥٤ .

(٤) ينظر المفضليات ، ص١٨٩ .

(٥) ينظر المفضليات ، ص١٠٢ .

(٦) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص١٥٤ .

(٧) ينظر المفضليات ، ص١٠١ .

(٨) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص٢٠٤ .

(٩) ينظر مثلا ديوان امرئ القيس ، ص١٣٥ . والأصمعيات ، ص٢٠٠،٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصيد عنده كل شيء ، فهي حرفته ومهنته ، يعتاش منها ، ورزقه فيها . وكان هذا الصائد يعتني بأسهمه التي يصوبها نحو الفريسة ، قام بإطلاق السهم نحو الفريسة وهو مستيقن الظن أنه سيصيب جوف الوحش ، ولكن السهم مر بذراعه ونحره ولم يصبه . عندها أحس هذا الصائد بالندم الشديد ، فعض إبهام يمينه وكانت القوس في يساره :

فَعَضَّ بِإِبْهامِ اليَمِينِ نَدامَةً وَلَهَّفَ سِرّاً أُمَّهُ وَهْوَ لاهِفُ (١)

وهذا صائد آخر تقترب صورته من صورة الصائد عند أوس . صاحب أسهم له برأة أو قترة أقام فيها ليختل منها الصيد ، وكان يفرح إذا ما رأى لحما طريا ، قام بإطلاق سهمه على مقتل الفريسة ، وكانت فريسته الحمار الوحشي وأتانه ، ولكنه أخطأ سهمه الفريسة . فأخذ هذا الصائد ، بعدما خاب مسعاه كما يقول عمرو بن قميئة :

وَعَضَّ على أَنامِلِهِ لَهِيفاً ولَاقى يَوْمَهُ أَسَفا وغِيّا
وَراحَ بِحِسَّةٍ لَهِفاً مُصابا يُنَبِئُ عِرْسَهُ أَمْراً جَلِيّا
فَلَوْ لُطِمَتْ هُنَاكَ بِذَاتِ خَمْسٍ لَكَانَا عِنْدَهَا حِنْتَيْنِ سِيّا
وكانوا واثقينَ إذا أتاهمْ بِلَحْمٍ إِنْ صَباحاً أو مُسِيّا (٢)

وهذا صائد له صبية صغار قد حالفوا الفقر زمانا طويلا ، وكان كسبهم وقوتهم يعتمد على صيد الكلاب التي يستعين بها أبوهم في اقتناص الحيوانات . يقول الأعشى :

ذو صبيةٍ كَسْبُ تِلكَ الضَّارياتِ لهمْ قدْ حَالفوا الفَقْرَ واللأْواءَ أَحْقَابا (٣)

وكانت الكلاب للصائد وسيلة مهمة للصيد . فهذا صائد من بني صباح ، طويل شقاؤه ، يصيد بسهامه وقوسه ، وأكلبه ، وقد فقد هذا الصائد كلبين من كلابه ، كان يحتاج إليهما في

---

(١) من يريد الاطلاع على صورة هذا الصائد في شعر أوس يراجع ديوانه ، ص٧٠-٧٢ . ومن يريد الاستزادة في دراسة القصيدة التي فيها صورة هذا الصائد ، يراجع كتاب وهب رومية "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، ص٢٤٨-٢٥٠ .

(٢) ديوانه ، ص١٥٣-١٥٤ . الحرة والحرارة : العطش ، وقيل شدته . ذات خمس : اليد ، إشارة إلى أصابعها الخمس . حنتان : مثنى حنتن وهو المثل والقرن والمساوي . ويقال هما حنتان وحنتان أي سيان إذا تساويا في الرمي . وقد قام وهب رومية بدراسة القصيدة التي أخذت منها هذه الأبيات في كتابه "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، ص١٤٥ .

(٣) ديوانه ، ص ٣١٤ . اللأواء : الشدة والمحنة . أحقابا" : من حقبة المدة من الزمن .

- All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصيد ، ويعتمد عليهما في حياته المعيشية ، فساءت حاله بعد موتهما ، وأيقن بالجوع الشديد بعد خيبته في الصيد . فأخذ يستجدي الناس فلم يعطوه شيئا . فرجع إلى أولاده وزوجته الفقراء الضعفاء فارغ اليدين ، يذم الناس من الفقر وقلة الحيلة ، وطلب من زوجته أي طعام ليسد به جوعه أو جزءا منه ، لكن بيته كان خاليا من أي طعام ، لذلك أشارت عليه زوجته أن يستغني بالماء عن الطعام ... فلم يستطع النوم من شدة الجوع (١) .

وفي جوع الصائد يقول الأسود بن يعفر :

مُعَصَّباً مِنْ صَباحٍ لَا طَعَامَ لَهُ وَلا رَعِيَّةَ إلَّا الطَّوْفُ والعَسَسُ (٢)

وهذا صائد آخر من بني جلان من عنزة ليس له متاع غير قوسه وأسهمه ، حرفته الصيد ، حاذق في الرمي ، وكيف لا يكون حاذقا وهو يعيل أسرة تنتظر رجوعه حاملا لحما طريا من هوادي الوحش ، وإلا كابدوا عناء الجوع والحرمان ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي :

إذا لَمْ يَجْتَزِرْ لِبَنِيهِ لَحْماً غَرِيضاً مِنْ هَوادِي الوَحْشِ جَاعُوا (٣)

ويصف امرؤ القيس صائدا حاذقا ماهرا محترفا ، لا يخطئ سهمه ، أصاب فريسته ، فهو ليس له وسيلة يكتسب منها عيشه وطعامه غير الرماية والصيد على كبر سنه ، فهو كما يقول امرؤ القيس :

مُطْعَمٌ لِلصَّيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرَهَا كَسْبٌ عَلَى كِبَرِهْ (٤)

---

(١) ينظر في ذلك شعر لـ "مزرد بن ضرار" في المفضليات ، ص١٠١-١٠٢ .

(٢) ديوانه ،ص ٤١ .

(٣) المفضليات ص ١٨٩ .

(٤) ديوانه ، ص١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- المشتار

اشتهر الهذليون* باشتيار العسل (١) في العصر الجاهلي وجوز مخارم الجبال لأن طبيعة ديار هذيل جبلية ، ويكثر فيها النحل . "ويعتبر أبو ذؤيب الهذلي شاعر النحل في العصر الجاهلي" (٢) .

وتحدث الشعراء عن العسل في قصائدهم ومشتاره عند وصفهم الخمر الممزوجة بالعسل ليستساغ شرابها (٣) وعند تشبيه طيب فم المحبوبة (٤) الممزوجة بالخمر (٥) ورضابه إذا ذقته (٦) . بل ريق المحبوبة أطيب طعما من الخمر بطعم العسل (٧) ومذاقه بطعم الزنجبيل والتفاح قد مزجا بعسل النحل (٨) ، فالحديث للصاحبة مثل جنى النحل لحلاوته (٩) .

---

(١) ينظر الواقع والأسطورة في شعرأبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٦٩ . و العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٣٤٦ . ومقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، ص٤٤ .

(٢) الواقع والاسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي ، الجاهلي الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٦٩ .

(٣) ينظر ديوان الهذليين ٧٥/١ .

(٤) ينظر المصدر السابق ١٤٤/١، ٢١١ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص٣٢٧ . وينظر ما قاله شوقي ضيف في كتابه "العصر الجاهلي" عن قصيدة الأعشى رقم ٥٢ والتي يذكر فيها اشتيار العسل . وشك في صحة هذه القصيدة في نسبتها للأعشى ، وعلل ذلك بأنها تفتقر لموضوع محدد . وكذلك لم تشتهر قيس بن ثعلبة باشتيار العسل ولكن هذيل هي التي اشتهرت .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ١٧٦/١، ١٧٧ .

(٧) ينظر السابق ، ١٨٣/١ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص٣٢٧ .

(٩) ينظر ديوان الهذليين ١٤٠/١ .

* في قصة اشتيار العسل رجل من بني خالد أو هو الخالدي – كما سماه أبو ذؤيب الهذلي ، لما رأى جماعة النحل تستقل في الجبل ، أى ترتفع ثم تنزل عنه ، علم أن ثمة عسلا ، فاعتزم أن يدخل بيتها ويجنيه .... . وتدلنا ذلك على شهرة بني خالد من الهذليين في اشتيار العسل ينظر ديوان الهذليين ٧٧/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أسهب بعض الشعراء الهذليين ، كأبي ذؤيب وساعدة بن جؤية وغيرهم من الذين ذكروا العسل في قصائدهم في الحديث عن طريقة جنيه ، وهي تحتاج لجهد كبير يتكلفها الشائر الذي يتكبد العناء الشديد في تسلقه الجبال ، ليحصل على فضلات النحل . وهذا المشتار كما صوره الشعراء : أشعث قليل اللحم ضامر (١) ، مجرب خبير (٢) "أخو حزن" (٣) صبور على المشي "ذو رجلة" (٤) قصير "جَحْنَب" (٥) غليظ الأصابع "شَثْنُ البَراثن" (٦) "شَثْنُ البَنَان" (٧) . وجمع ساعدة بن جؤية الصفات الثلاث الأخيرة في عجز البيت :

حتَّى أُشِبَّ لَهَا وطَالَ إِيَابُها ذُو رُجْلَةٍ شَثْنُ البَرَاثِنِ جَحْنَبُ (٨)

والمشتار "مُكَدَّم" (٩) قد أكلت أظفاره الصخر . وبه آثار ونقر من كلوم الجراح .

وهو قليل المال كل ماله "فضلاتُ ثولٍ" (١٠) كما يقول أبو ذؤيب الهذلي :

وَأَشْعَثَ مالُه فَضَلاتُ ثَوْلٍ عَلَى أَرْكَانِ مَهْلَكَةٍ زَهُوقِ (١١)

ويقول ساعدة بن جُؤية :

قليلُ تِلادِ المَالِ إلَّا مَسَائبا وَأَخْرَاصُه يَغْدَو بِها وَيُقِيمُهَا (١٢)

وله أيضا من المال سهام طويلة يصيد بها وقوس لينة (١٣) .

---

(١) ينظر ديوان الهذليين ، ٨٧/١ .

(٢) ينظر السابق ، ١٤٢/١ .

(٣) السابق ٢٠٨/١ ، والحزن الأمكنة الغلاظ .

(٤) ، (٥) ، (٦)، السابق ١٨٠/١ ، والبراثن ، استعملها الشاعر مجازا" لأنها لاتكون للانسان ، وانما هي للكلب والنسر ونحوها .

(٧) السابق ،٢٠٨/١ .

(٨) السابق ، ١/ ١٨٠ ، وأشب لها : أتيح لها أي للنحل كان ذاهبا يجمع الشمع ، وهذا خطأ علمي فالمعروف أن النحل يصنع الشمع بنفسه . طال إيابها أي أبطأ رجوعها احتبست عن العسل فاستمكن من أخذها .

(٩) السابق ٢٠٨/١ .

(١٠) السابق ٨٧/١ والثول : النحل .

(١١) ديوان الهذليين ، ٨٧/١ ، مهلكة زهوق يقصد على صخرة ملساء .

(١٢) السابق ، ٢٠٨/١ ، والمسأب والسأب : سقاء العسل . يقيمها : يسوي عوجها . والأخراص : عيدان يؤخذ بها العسل .

(١٣) ينظر السابق ، ٩٠/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشعراء هذا المشتار يتسلق الجبال العالية ليصل قممها (١) وصخورها الملساء والتي يصعب الارتقاء إليها (٢) ولا تثبت على هذه الصخور مخالب العقاب (٣) بل ويزل عنها الغراب (٤) . وذلك أن النحل يأتي الجبل فيعسل في ملقة أو وقبة ، وهي كالكهف في الجبل عند صخرة ملساء (٥) ، فيأتي الشائر الذي يشتار العسل فيصعد من وراء الجبل حتى يصير في أعلاه ، فيضرب وتدا في أعلى الصخرة ثم يشد الحبل فيه ويتدلى عليها (٦) قد يصل طول هذه الحبال إلى "ثمانين قامة" "وسبعين باعا" (٧) حتى يصل الصخرة الملساء حيث خلية النحل . وهذا العسال قد تأبط خريطة فيها سقاء العسل ، وصار يتتبع الحبل المربوط بالشيق ، ومعه أعواد ليخرج بها العسل (٨) ، وهو يتذبذب على هذه الحبال (٩) في هذا الجبل الأسود الشاهق وقد أحاطت به الصحراء من كل نواحيه فهو فزع خائف (١٠) ، فأيقن أنه سيدخل بيت النحل أو ينقطع الحبل فيهوي إلى الأرض ليصير كالطحين (١١) .

فعندما يصل خلية النحل [يوقد نارا] ليطرد بدخانها النحل لئلا تلسعه (١٢) فينبعث من حوله النحل كأنه صغار البعوض يطن طنينا عاليا ، ويدفعه هو عن نفسه (١٣) وهو لا يخاف لسعها أحيانا (١٤) [فمن يطلب الشهد فلا من بد من إبر النحل] .

---

(١) ينظر السابق ، ١/٧٨،٨٧،٨٨،١٤٢،١٨١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص٣٢٧ .

(٢) ينظر السابق ، ١/١٤١ .

(٣) ينظر السبق ، ١/١٨١ .

(٤) ينظر السابق ، ١/٧٩ .

(٥) ينظر السابق ، ١/٧٩،٨٨،١٤٢،٢٠٩ .

(٦) ينظر السابق ، ١/٧٩،١٤٢،١٨١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص٣٢٧

(٧) السابق ، ١/١٤٢ .

(٨) ينظر ديوان الهذليين ، ١/٨٧،١٨٠ .

(٩) ينظر السابق ، ١/١٨١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص٣٢٧ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى الكبير ، ص٣٢٧ .

(١١) ينظر ديوان الهذليين ، ١/٧٨ .

(١٢) ينظر السابق ، ١/٧٩،٢٠٩ .

(١٣) ينظر ديوان الأعشى الكبير ، ص٣٢٧ .

(١٤) ينظر ديوان الهذليين ، ١/١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويأتي المشتار بهذه العسل – بعد كد وتعب – ولم يعلق به العسل السائل ولم يتلطخ به لخفته ونشاطه وقوته على استخراج العسل من الوقبة طيبة (١) سلافا صهباء (٢) ، تسبق الريق إلى الحلق لسهولة ابتلاعها ، جاء بها طيبة وقد خلطها بماء سحابة أصابتهم في شهر رجب في الشتاء ، وذلك أبرد لها ، ومزجها بماء ذلك الغدير البارد في شق الجبل حتى تقطع العسل (٣) .

وهذا المشتار ، وبعد جهد وتعب شديدين ، يبتغي العيش من وراء بيعه العسل ، ولكن كسبه من ذلك قليل لا يكفيه (٤) . فهو يبغي كسبا آخر – أحيانا – فنجده يجمع بين مهنتين ، اشتيار العسل في وقته ، والصيد في وقته ، فهو المشتار الصائد كما أطلق عليه الدكتور نصرت عبد الرحمن (٥) .

فانظر إلى صورة هذا المشتار الصائد في قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي من أحد عشر بيتا (٦) :

وأشْعَثَ ما لُه فَضَلاتُ ثُوْلٍ ... عَلى أَزْكَانِ مَهْلَكَةٍ زَهُوقِ (٧)
قليلٍ لَحْمُهُ إلّا بَقَايَا ... طَفَاطِفِ لَحْمٍ مَمْحُوصٍ مَشِيقِ (٨)
تَأَبَّطَ خَافَةً فيها مِسَابٌ ... فَأضحى يَقْتَرِي مَسَداً بِشِيقِ (٩)

---

(١) ينظر السابق ، ١/٨٠،١٨٢ .

(٢) ينظر السابق ، ١/٨٩،١٤٣ . وسلاف صهباء : سهلة الإبتلاع .

(٣) ينظر السابق ، ١/١٨٢،٢٠٩ .

(٤) ينظر "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي" ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص٩٣ .

(٥) في كتابه ، المرجع السابق ، ص١٠٨ وما بعدها .

(٦) ديوان الهذليين ، ١/٨٧ – ٩٠ .

(٧) الثول : جماعة النحل ، وفضلاتها المقصود "العسل" . مهلكة زهوق : على صخرة ملساء [هذه صفتها] ، وهذه الصخرة تكون أيضا جرداء مثل بساط الأديم يزل عنها الغراب كما يقول أبو ذؤيب في موضع آخر :

تَدَلّى عليها بَيْنَ سِبٍّ وَخَيْطَةٍ ... بِجَرْدَاءَ مِثْلِ الوَكْفِ يكْبُو غُرَابُها

(٨) طفاطف : مما استرخى من جانبي بطنه . ممحوص : انمحص وذهب . مشيق : ضامر .

(٩) تأبط : جعلها تحت إبطه . خافة : خريطة "للعسل" . المساب : سقاء العسل . يقتري : يتبع . مسدا : جبلا . شيق : أعلى الجبل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على فَتْخَاءَ يَعْلَمُ حَيْثُ تَنْجُو ... وَمَا فِي حَيْثُ تَنْجُو مِنْ طَرِيقِ (١)
وَكَانَتْ وَقْبَةً فِي رَأْسِ نِيقٍ ... دُوَيْنَ الشَّمس ذَاتَ جَنًى أَنِيقِ (٢)
فَيَمَّمَ وَقْبَةً أَعْيَا جَنَاهَا ... عَلى ذِي النِّيقَةِ اللَّبِقِ الرَّفِيقِ (٣)
فَجَاءَ بِهَا سُلَافاً لَيْسَ فِيها ... قَذًى صَهْبَاءَ تَسْبِقُ كُلَّ رِيقِ (٤)
فَذَاكَ تِلَادُهُ وَمُسَلْجَمَاتٌ ... نَظَائِرُ ، كُلُّ خَوَّارٍ بَرُوقِ (٥)
لَهُ مِنْ كَسْبِهِنَّ مُعَذْلَجَاتٌ ... قَعَائِدُ قَدْ مُلِئْنَ مِنَ الوَشِيقِ (٦)
وَبِكْرٌ كُلَّمَا مُسَّتْ أَصَاتَتْ ... تَرَنَّمَ نَغْمِ ذِي الشَّرَعِ العَتِيقِ (٧)
لها مِنْ غَيْرِها مَعَهَا قَرِينٌ ... يَرُدُّ مِرَاحَ عَاصِيَةٍ صَفُوقِ (٨)

٣- الحادي

كثرة الحداة (٩) في العصر الجاهلي يعود إلى اعتماد الكثيرين من السادة وغير السادة على الإبل في معيشتهم ، وكانوا يكثرون من التنقل والارتحال طلبا للكلأ والماء ، وهذه الإبل تحتاج إلى سائق يقودها ويهديها السبيل . وكان من الحداة من يسوق الظعائن ؛ فقد اقترن ذكر الحداة في

---

(١) على فتخاء : يريد يقتري على فتخاء ، وهي يده فيها فتخ ، أي لين ، يريد يد الذي يأخذ العسل .

(٢) الوقبة ، كالكهف في الجبل . جنى ، يعني العسل .

(٣) النيقة : الذكاء والحذق .

(٤) أي أراد بها سلافا صهباء .

(٥) مسلجمات : سهام طويلة يصيد بها . نظائر يشبه بعضها بعضا . خوار في صوته وبروق في صفائه . . يقول : فذلك العسل ماله مع سهام طوال تصوت عند نقرها وتبرق من صفائها" .

(٦) معذلجات : مملوءات . الوشيق : ما جف من اللحم . قعائد : يصفه بأنه كثير الصيد بتلك السهام التي ذكرها في البيت السابق ، فغرائره مملوءة باللحم المجفف .

(٧) بكر : يعني قوسا أول ما رمي بها . أصاتت : صوتت . ذي الشرع : يعني عودا عليه أوتار ، الواحد شرعة .

(٨) قوله عاصية : تعصي : تمتنع ، وهي قوس . صفوق : يقلبها كيف شاء . القرين : سهم .

(٩) ينظر كثرة عدد الحداة مثلا في شعر للحارث بن حلزة اليشكري في معلقته ، شرح المعلقات السبع ، ص١٤٢ . وشرح شعر زهير ، ص٤١، ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر الجاهلي بالحديث عن هذه الظعائن (١) وارتحال المحبوبة غالبا .

فنرى بعض الشعراء يبغضون الحداة تارة ويغبطونهم ويحسدونهم تارة أخرى ، لأنهم ساقوا المحبوبة بعيدا عن الديار ورافقوها في رحلتها . يقول عدي بن زيد أثناء حديثه عن رحلة الصواحب الناعمات وقد ساءه الحداة ، فحملهم الذنب في هذه الرحلة ، ودعا عليهم بالفرقة والحمى جزاء صنيعهم :

شَدَّ ما سَاءَنا حُداةٌ تولّوا ... حِينَ حثُّوا بِعَالَها بالسِّيَاطِ
فَرَّقَ اللهُ بينَهُمْ مِنْ حُدَاةٍ ... واسْتَفَادُوا حُمَّى مَكَانَ النَّشَاطِ
مِثْلَ مَا هَيَّجُوا فُؤَادِي فَأَمْسَى ... هَائماً بَعْدَ نِعْمَةِ الاغْتِبَاطِ (٢)

وهذا عبيد بن الأبرص يحزن لرؤيته الحاديين ذاهبين بالمرأة التي يهواها وهما مطمئنان ناعما البال ، يقول :

فلمّا رأيتُ الحَادِيَيْنِ تَكَمَّشَا ... نَدِمْتُ عَلى أَنْ يَذْهَبَا نَاعِمَيْ بَالِ (٣)

وكان الحداة يسوقون الإبل ، وهذه مهنتهم في العادة (٤) . ومن الحداة من كان ضعيفا هزيلا بالي الثياب أشعث أغبر ، ضعيف الرأي لا يخالط الناس . يصرح بذلك عبيد بن الأبرص في وصفه لحادي الإبل يجتاب صحراء مقفرة :

مُشَمِّرٌ خَلَقٌ سِرْبَالُهُ مَشِقٌ ... قَاذُورَةٌ فَائِلٌ مُغْذَمِرٌ قَطَطُ (٥)

وإذا كانت صورة الحادي هكذا ، فعلام يحسده بعض الشعراء ! أم ترى أن عبيدا هو الآخر يشمت بهذا الحادي فيصفه بأبشع الأوصاف ؟ .

لذلك ترى هؤلاء الحداة يحدون الإبل ، ويغنون الحداء ، يسلون عن أنفسهم وعناء وحدتهم .

---

(١) ينظر مثلا ديوان بشر ،ص٦٢ .
(٢) ذيل ديوانه ، ص١٣٨ .
(٣) ديوانه ، ص١١٨ . تكمشا : أسرعا .
(٤) ينظر مثلا شرح شعر زهير ، ص٤٣ .
(٥) ديوانه ، ص٩٣ . مشق : من يحتك أحد أصول فخذيه بالآخر فيصيبه تحرق . القاذورة : الذي لا يخالط الناس لسوء خلقه . الفائل : الضعيف الرأي . المغذمر : الغضوب . القطط : القصير الشعر الجعدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- الراعي

اعتمدت فئة كبيرة من المجتمع الجاهلي على الرعي ؛ وليس بالضرورة أن يقوم صاحب الإبل أو الغنم برعيها والقيام بأمرها ، وإنما يعهد بهذه المهمة لمن هم أدنى منه منزلة ، كالعبد ، والأمة والأجير .

وكان الجاهلي الأصيل من جانبه يعيب مهنة الرعي ؛ ويعير من كان راعي إبل أو غنم ، ويذم - كذلك - من كان ابن راعية ، فذو الإصبع العدواني يفتخر بأن أمه ليست براعية ترعى المخاض :

عنِّي إليكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ تَرْعَى المَخَاضَ ولا رَأْيِي بِمَغْبُونِ (١)

ويذكر تأبط شرا -تارة- ترفعه عن مهنة الرعي وأنه يأنف من القيام بها ، ويصرح - تارة أخرى - بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة (٢) .

فإذا كان الصعلوك يترفع عن مهنة الرعي ، فالسادة من الجاهليين أولى بهذا الترفع والأنفة ، لأن هذه المهنة من أعمال العبيد والإماء .

ويفتخر أحدهم بأنه ليس بالعبد ولا راعي إبل (٣) . وهذا رشيد بن رميض العنبري يقول في شريح بن ضبيعة عندما غزا اليمن ، مادحا إياه بأنه ليس راعي إبل ولا غنم وليس بجزار :

ليسَ بِرَاعِي إبلٍ ولا غَنمْ ولا بِجَزَّارٍ عَلى ظَهْرِ وَضَمّْ (٤)

ومنهم من يفتخر بأنه ليس راعي إبل ، لأنه شريف ، ليس شأنه شأن العبد الذليل تنقطع نعله من عدوه (٥) .

ومن هوان أمر الراعي وذله ، كان أشعث الرأس ملبد الشعر ليس له خبرة في الحرب (٦) ، تراه حين يعدو يصوت ، مشيته مشية الشيخ ، يحك رأسه لاتساخه وقلة

---

(١) ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص٩٣ .

(٢) ينظر في لسان العرب مادتي "رعى" و "رسل" .

(٣) ينظر ديوان الحماسة ، ٢٦١/١ .

(٤) ديوان الحماسة ، ١٣٣/١ . الوضم : شيء يوضع عليه اللحم ليقيه من الأرض . والبيت في "البيان والتبيين" للجاحظ ، أنشده الحجاج في خطبة له في الكوفة ، ٣٠٨/٢ .وفي الكامل للمبرد ، ٢٢٤/١ .

(٥) ينظر السابق ، ٢٦١/١ .

(٦) ينظر المفضليات ، ص٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استحمامه (١) ، وهو قليل التنعم هزيل (٢) . إذا تعب من الرعي ينام وسط السوام ، وإذا ما استيقظ عرف مواضعها لما يسمع من أنفاسها وزفيرها ، يقول الحطيئة في هذا الراعي :

إذا نَامَ طِلْحٌ أَشْعَثُ الرأسِ وَسْطَها هَدَاهُ لَهَا أَنْفَاسُهَا وَزَفِيرُهَا (٣)

وقد ينام الراعي عن غنمه ، حتى إذا وقعت فيها الذئاب هب من نومه مذعورا . قال سلامة ابن جندل مشبها فرسه لحدته وطموح بصره بهذا الراعي الحذر :

كَأَنَّهُ يَرْفَئِيٌّ نَامَ عَنْ غَنَمٍ مُسْتَنْفِرٌ في سَوَادِ اللَّيلِ مَذْؤوبُ (٤)

ونجد صورة للراعي الذي يعجل ويسرع إلى إبله ونوقه يؤويها خشية البرد (٥) ، ونجده أحيانا يميل عن إبله ويتركها إلى ناحية يتقي فيها شر هذا البرد (٦) . وقد يروح الراعي إبله لأنه لا يجد مرعى لها من المحل (٧) ، ولاستحكام الجدب فتسقط الإبل جوعا على الأرض من الإعياء حتى يمشي إليها الناس يضعون الأعمدة تحت بطونها ليعينوها على الوقوف (٨) .

ولكننا نجد من يصرح بأنه كان يرعى للقبيلة منذ فطامه كما يصرح عنترة العبسي بذلك لصاحبته عبلة ولكنه أتبع هذا التصريح بأنه أصبح يحمي حمى قبيلته (٩) . ويفصل عنترة عن صورته راعيا في قوله مخاطبا عبلة :

أنا العبدُ الذي خُبِّرتِ عنْهُ رَعَيْتُ جِمَالَ قَوْمِي مِنْ فِطَامي
أَرُوعُ مِنَ الصَّباحِ إلى مَغِيبٍ وَأَرْقُدُ بيْنَ أَطْنَابِ الخِيَامِ (١٠)

---

(١) ينظر شرح شعر زهير ، ص٢٢٠-٢٢٢ .
(٢) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص١٣٨ .
(٣) ديوانه ، ص٢١٥ .
(٤) ديوانه ، ص١٠٤ . وفي البيت إقواء . فروي القصيدة مكسور .
(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٣٧ .
(٦) ينظر ديوان طرفة ، ص٩٨ .
(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٧٥ . وديوان شعر الحادرة ، ص٣٤٠ .
(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٦٣ .
(٩) ينظر ديوانه ، ص٨٥ .
(١٠) السابق ، ص٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكون الراعي أحيانا حبشيا أسود عييا ، كما يشير إلى ذلك عنترة أثناء حديثه عن ناقته في رحلته ، وقد شبه سرعتها بسرعة الظليم ، هذا الظليم الأسود الذي لا نطق له عندما تأوي إليه صغائر النعام يشبه انضمام الإبل اليمانية – التي يغلب عليها السواد – إلى راع حبشي أسود عيي لا يفصح ، يقول عنترة في الظليم :

تَأْوِي لَهُ قُلُصَ النَّعَامِ كَمَا أَوَتْ حِزَقٌ يَمَانِيَةٌ لِأَعْجَمَ طِمْطَمِ (١)

وكان بعض الجاهليين يفتخرون بكثرة إبلهم حيث لا يستطيع الرعاء على جمعها لكثرتها ، فتبقى في البرية (٢) .

ونجد من يفتخر أيضا بأن إبله أصبحت قليلة لجوده وكرمه ، فلا يغلب الراعي معها (٣) ، فترى الراعي يحدو بها .

فالراعي يظل ملازما للإبل أو للغنم ، ماهر أحيانا بالحلب والصر ، ليس له شأن يذكر لانحطاط شأنه وذله وهوان أمره ، ولم يكن ذا قيمة تذكر في الأحداث الجسام في العصر الجاهلي .

٥- العضروط

العضروط هو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه ، والجمع عضاريط كما جاء في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي عند فخره بالحروب والأيام ، وقد تركوا نساء بني عامر سبايا في أيديهم وحملوهن على أقتاب غليظة ، وأسرعوا بهن في السير ، فدميت أعجازهن ، وقد قام العضاريط بحمل هؤلاء النساء البيض الأسيرات خلفهم على حقائب أرحلهم ، يقول بشر في ذلك :

بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ مِنَ الشَّلِّ والإيجافِ تَدْمَى عُجُوبُها

---

(١) شرح المعلقات السبع ، ص١٢١ . القلوص من الإبل والنعام بمنزلة الجارية من الناس والجمع قلص وقلائص . أوت : انضمت . حزق : جماعات واحدها حزقة . طمطم : عيي لايفصح .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص٢١٦ .

(٣) ينظر المفضليات ، ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَضَارِيطُنَا مُسْتَحْقِبُو البِيضِ كَالدُّمى مُضَرَّجَـةً بِالزَّعفـران جُيُوبُهـا (١)

٦- الحداد

الحداد هو البواب والسجان ، ويبدو أن الحدادة كانوا من الفقراء وذوي الحاجة ، وهم في ضيق عيش ، مما جعل الحارث بن وعلة الجرمي يتخوف من أن يكون من أسرته حدادة إنما همها قوت العيال ؛ فحتى لايكون ذلك كان أول منهزم في يوم الكلاب الثاني وكان صاحب لواء أهل اليمن ضد تميم وحلفائهم ، فأكثرت يومها تميم القتل في أهل اليمن ، فأخذ الحارث لا يألو عدوا وهربا مخافة أن يؤسر . يقول في شعره :

وَلَمَّا سَمِعْتُ الخَيْلَ تَدْعُو مُقَاعِساً تَطَالَعَنِي مِنْ ثُغْرَةِ النَّحْرِ جَائِرُ
فَإِنْ أَسْتَطِعْ لا تَلْتَبِسْ بِي مُقَاعِسٌ ولا يَرَنِي مَبْدَاهُمُ والمَحَاضِرُ
وَلَا تَكُ لِـي حَـدَّادَةٌ مُضَرِيَّـةٌ إذا ما غَدَتْ قُوتَ العِيَالِ تُبَادِرُ (٢)

-٣-

الرقيق من الإماء والعبيد

الرق , بكسر الراء : الملك والعبودية . وَرَقَّ : صار في رق . وعبد مرقوق وَمُرَقّ ورقيق ، وجمع الرقيق أرقّاء . وقيل : أمة رقيق ورقيقة من إماء رقائق فقط . وقيل : الرقيق اسم للجمع والرقيق المملوك واحد وجمع . الرق : العبودة والرقيق العبد . رق فلان صار عبدا . والرق الشيء الرقيق ..." (٣) .

والعبد : المملوك خلاف الحر .. الجمع أعبد وعبيد .. فقالوا هؤلاء عباد الله .. وهؤلاء

---

(١) ديوانه ، ص١٩ . الشل : السوق والطرد . الإيجاف : السير الشديد على الخيل والإبل جميعا . العجوب : يريد بها الأعجاز . مستقحبو البيض : أي هم يحملون النساء البيض على أرحلهم . الجيوب جمع الجيب وهو جيب القميص أي فتحته .

(٢) المفضليات ، ص١٦٦ . مقاعس أراد بني مقاعس ، وهم من تميم . تطالعني : طلع مني وارتفع يعني فزعا . ثغرة النحر : النقرة في أعلى الصدر . الجائر : حر يؤذي الجوف عند الجوع . التبس : اختلط ، والمراد لا يدركوني . مبداهم من بدا منهم في البادية . محاضرهم : من نزل الحاضرة . وأصلها مكان البدو والحضر .

(٣) لسان العرب مادة "رقق" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبيد مماليك .. (١) .

فترى أن الرّق هو العبودية للإنسان ، والرقيق هم من الإماء والعبيد المماليك .

فالأمة في عرف المجتمع الجاهلي هي المملوكة (٢) ، أو هي المملوكة ذات العبودة (٣) ، أو هي الجارية التي تمتهن الخدمة والقينة أو المغنية التي تمتهن الغناء (٤) ، وكانت القينة تمتهن الخدمة كالرعي (٥) .

وكانت الإماء تؤلف طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلي . وكذلك العبيد . "فكثرة الرقيق من العبيد والإماء كثرة بالغة جعلت الرقيق طبقة اجتماعية كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة" (٦) .

وكان تملك الرقيق من الإماء والعبيد يحصل في العصر الجاهلي بطرق أهمها : النهب والأسر والشراء (٧) . وكان الرقيق من أصل عربي خالص عن طريق الحروب والغارات ، تسبى النساء ويسترق الرجال . وهناك مورد آخر من موارد الرقيق لايقل عن الجزيرة العربية غزارة هو الرقيق الأجنبي الذي يجلب من خارج الجزيرة العربية من البلاد التي كانت الصلة محكمة بينها وبين بلاد العرب .. عن طريق التجارة (٨) .

فالنساء كن يجتلبن بطريق من هذه الطرق من البلاد المجاورة ، كما يؤخذن سبيات من القبائل العربيات نفسها فيمتلكن ، لذلك أصبحن يؤلفن طبقة مميزة – مع العبيد – في العصر الجاهلي لشيوع الحروب والغزو عندهم وكثرة النهب والسلب .

ومهما تكن أسباب الحروب التي ثارت في الجاهلية فإن غايتها كانت الإستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والأسرى . فإن كانت الحرب أخذا بالثأر ، قتل الأسرى في الغالب ، وإلا احتفظوا بهم طمعا في الفدية . وكان الرجال المشتركون في الإغارة يطمحون دائما إلى أن يأسروا نساء أعدائهم ، وكانت النساء اللاتي لا تفديهن قبائلهن أو لا يطلقهن الرجل الذي كن من نصيبه ،

---

(١) السابق مادة "عبد" .

(٢) القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، ٣٤٩/٤ .

(٣) لسان العرب مادة "عبد" و "رقق" .

(٤) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص٢٤٦ .

(٥) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٢٧ .

(٦) القيان والغناء في العصر الجاهلي ، الدكتور ناصر الدين الأسد ، ص٣٠ .

(٧) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص٢٤٦ .

(٨) ينظر القيان والغناء في العصر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، ص٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبقين في حوزته إماء لـه أو للقبيلة التي أسرتهن (١) ؛ فيقمن بأعمال سادتهن ويتوفرن على خدمتهم (٢) .

وكثرة الرقيق في الجاهلية تطالعنا عند قراءة أيام العرب وحروبهم فنجد كثرة السبايا اللواتي يصبحن في كثير من الأحيان إماء . وكما يشير شعر الشعراء إلى ذلك .

يقول امرؤ القيس – مثلا – في الحروب مفتخرا :

إنّا تَرَكْنَا مِنْكُمُ قَتْلى وَجَرّ حَـى وَسَبَايَـا كَالسَّعَالـي

يَمْشِينَ بَيْنَ أَرْحُلِنَا مُعْتَرِفًا تٍ مَـا بِجُـوعٍ وَهُزَالِ (٣)

والحارث بـن حلزة اليشكري يشيـر في معلقتـه إلى الغارات والغـزوات مع قومـه وسيرهـم من مكان إلى آخر ، وكيف طووا ما بين البحرين إلـى الحساء سيرا وإغارة على القبائل حتى انتهوا إلىالحساء ، وقد دخلواالشهر الحرام ، ومعهم سبايا القبائل ، استخدموهن إماء لهم ، يقول مفتخرا :

ثمّ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمـ ـنَا وَفِينَـا بَنَـاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ (٤)

ويقول عامر بـن الطفيل مفتخرا بالغارات ، وقد سبوا النساء اللواتي دمين خدودهن بأظافرهن ذعرا وولها :

وأَرْدَفْنَـا نِسَاءَهُـمُ وَجِئْنَـا وَقَدْ دَمِيَتْ مِنَ الخَمْشِ الخُدُودُ (٥)

ويقول أيضا مفتخرا بالإياب بالغنائم والسبايا اللائي يصرخن ويولولن بعد أسرهن لأنهن أصبحن غريبات :

فَأُبْنَـا غَانِمِينَ بِمَـا اسْتَفَأْنَا نَسُوقُ البِيضَ دَعْوَاهَا الأَلِيلُ (٦)

لذلك نرى خوف النساء من السبي واضحا في شعر الجاهليين (٧) .

---

(١) ينظر مثلا شعر في ذلك في ديوان الأعشى ، ص٣١،٣١١ .

(٢) ينظر قبل السابق ، ص٣٦ .

(٣) ديوانه ، ص١٥٧ .

(٤) شرح المعلقات السبع ، ص١٣٧ .

(٥) ديوانه ، ص٥١ .

(٦) السابق ، ص٩٧ .

(٧) ينظر مثلا ديوان عنترة ، ص٤٢،١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان لانتشار أسواق النخاسة والرقيق في المدن الكبرى خاصة في مكة .. ، وسوق عكاظ وسوق دومة الجندل .. وغيرها من الأسواق (١) أثر في انتشار الرقيق في شتى أرجاء الجزيرة العربية ؛ فكان الناس يتجرون في هذه الأسواق بالإماء والعبيد الذين كانوا يعتبرون سلعة ، ومن أهم السلع (٢) .

وكان الأسر والسبي – كما قلنا – من أوضح الموارد للإماء والعبيد (٣) ، كان البعض يعرض هؤلاء الأسرى والسبايا في الأسواق لبيعها .

وكان من الإماء السوداوات من إفريقية وغيرها ، ومنهن الروميات والفارسيات والهنديات . فكان منهن الكادحات المجهودات ، ومن الإماء اللاهيات المغنيات العابثات (٤) .

منزلة الإماء والعبيد الإجتماعية وصورتهم في الشعر الجاهلي :

والإماء والعبيد من الفقراء عموما ، فيكفي كونهم مملوكين لغيرهم كأي سلعة من السلع ليستدل على فقرهم .

وكان الشعراء الجاهليون يتمدحون بمن يهب القينات (٥) والجواري من المغنيات (٦) والعبيد والرعاة .

فالإماء طبقة مهانة محتقرة ، تلقى على عاتقها الأعمال المرهقة التي تحتاج إلى مجهود مادي وبدني كبير . وهذه الإهانة وهذا الإحتقار ينتقلان إلى الأبناء بالوراثة .

يقول السليك بن السلكة ، وكانت أمه حبشية ، وهو منسوب إليها :

---

(١) ينظر في أسواق العرب "تاريخ اليعقوبي" ، ج١/٢٧٠ – ٢٨٠ . والمحبر لابن حبيب ، ص٢٦٤ – .

(٢) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص٢٤٦،٢٤٩،٢٦١ . والقيان والغناء في العصر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، ص٣٥ .

(٣) ينظر أيضا ديوان الأعشى ، ص٣٥١ . وديوان عامر ، ص١١١ .

(٤) ينظر القيان والغناء ... ص٣٣،٣٥،٤١ . والمرأة في الشعر الجاهلي ... ، ص٢٤٩ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص٧١ .

(٦) ينظر السابق ، ص٣٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَشَابَ الرَّأس أنّي كُلَّ يَوْمٍ أَرى لِي خَالَة وَسْطَ الرِّحالِ
يَشُقُّ عَليَّ أَنْ يَلْقَيْنَ ضَيْمَاً ويعجزُ عَنْ تَخَلّصهنّ مَالِي (١)

وأبناء الإماء محتقرون ، وبيوتهم لم تكن مصونة مكرمة ، فيلج الناس على بيت ابن الأمة يزورون زوجته دون أن يحسبوا له حسابا ، وهو إن أراد أن يزور بيتا للناس لا يسمح له إلا إذا شاء أهل البيت وبالطريقة التي يرونها . يقول السليك بن السلكة وقد وجد قوما يتحدثون إلى زوجته وهم من بني عمها :

يَزُورُونَها ولا أَزُورُ نِسَاءَهم أَلَهْفِي لِأَوْلَادِ الإِمَاءِ الحَواطِبِ (٢)

فكانت نظرة الجاهليين للأمة وللعبد هي نظرة ازدراء واحتقار ، فشاع في بعض الشعر الجاهلي الهجاء والتعيير بالإماء والعبيد .

يقول أوس بن حجر يهجو بني لبينى :

أَبَنِي لُبَيْنَى إِنَّ أُمَّكُمُ أَمَةٌ وَإِنَّ أَبَاكُمَ عَبْدُ (٣)

وللأسود بن يعفر هجاء لبني نجيح ، إذ يقول :

أَبَنِي نُجَيْحٍ إِنَّ أُمَّكُمُ أَمَةٌ وإِنَّ أَبَاكُمَ وَقْبُ (٤)

وهذا الأعشى الكبير في قصيدة له يهجو فيها علقمة بن علاثة قائلا :

فَهَلْ كُنْتُمُ إلا عَبِيدا وإِنّما تُعَدُّونَ خُوصَاً فِي الصَّدِيقِ لَوامِصَا (٥)

وهذا عميرة بن جعل يهجو رجلين بأن قومهما كانوا عبيد قومه في شدة الزمان وأن جديهما عبدان وأميهما أمتان . يقول :

فَمَنْ مُبْلِغٌ عني إِياساً وَجَنْدَلا أَخا طَارِقٍ والقَوْلُ ذُو نَفَيَانِ
- لِيالِيَ إِذْ أَنْتُمْ لِرَهْطِيَ أَعْبُدٌ بِزَمَّانَ لَمَّا أَجْدَبَ الحَرَمَانِ

---

(١) الكامل ، للمبرد ، ٢٢٩/١ .

(٢) الأغاني (بيروت) ، ٣٥٤/٢٠ . ولهذا البيت مع بيت آخر للسليك قصة أوردها الأصفهاني في الأغاني .

(٣) ديوانه ، ص٢١ .

(٤) لسان العرب مادة "وقب" .

(٥) ديوانه ، ص٢٠١ . خوص : جمع أخوص وهو الذي ينظر بشق عينيه بغضا أو عداوة . لوامص : جمع لموص وهو الكذاب الخداع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذْ لَهُمْ ذَوْدٌ عِجَافٌ وصِبْيَةٌ ... وإذْ أنتُمُ لَيْسَتْ لَكُمْ غَنَمَانِ
وَجَدَاكُمَا عَبْدَا عُمَيْرِ بنِ عَامِرٍ ... وَأُمَّاكُمَا مِنْ قَيْنَةٍ أَمَتَانِ (١)

ويقول عامر بن الطفيل في هجاء رجل ، وقد عيره بأنه ملصق ليس من قلب قومه ، بل من نسل الإماء الطوامث ، يقول في أبيات ثلاثة :

وَأَنْتَ لِسَوْدَاءِ المَعَاصِمِ جَعْدَةٍ ... وَأَقْعَسَ مِنْ نَسْلِ الإِمَاءِ العَوَارِكِ
تَبِيعٍ لِقَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ صَمِيمِهِمْ ... ولكنَّهُ مِنْ نَسْلِ آخَرَ هَالِكِ
أبوكَ أَبُو سَوْءٍ وَخَالُكَ مِثْلُهُ ... وَهَلْ تُشْبِهَنْ إِلَّا أَبَاكَ وَخَالَكْ (٢)

وكان الشاعر الجاهلي يفتخر بأنه ليس بالعبد ولا راعي إبل ، فكثيرا ما كان هذا العبد تتقطع به السبل ويتمزق نعله (٣) .

وكان العبيد يزجرون من قبل أسيادهم ، وكانو يسيرون غالبا على أرجلهم فتتقطع نعالهم ، وتتمزق ثيابهم (٤) .

وكان من يعلم عبيده على الصبر في قيادة الإبل ، فكانوا يخلعون نعالهم ليسلكوا بالإبل أو بالخيل السهولة . وكان العبد يوعد بالركوب بعد أن يسير نوبته فلم يدرك ذلك إلا مع الصباح ، وقد أخذ هذا العبد يتقاطر الدم من عقبيه كما يتقاطر الرعاف من الأنف والدمع من العين لكثرة سيره ومرافقته للخيل والإبل . يقول مالك بن حريم من قصيدة له في الفخر :

ونخلعُ نَعْلَ العَبْدِ مِنْ سُوءِ قَوْدِهِ ... لِكَيْمَا يَكُونَ العبدُ لِلسَّهْلِ أَضْرَعَا
وَقَدْ وَعَدُوهُ عُقْبَةً فَمَشَى لها ... فَمَا نَالَهَا حَتَّى رَأَى الصُّبْحَ أَدْرَعَا
وَأَوْسَعْنَ عَقْبَيْهِ دِمَاءً فَأَصْبَحَتْ ... أَصَابِعُ رِجْلَيْهِ رَوَاعِفَ دُمَّعَا (٥)

وكان الإماء والعبيد يقومون بالأعمال المهينة المحتقرة التي يأنف الأحرار وأبناء السادة من القيام بها .

---

(١) المفضليات ، ص٢٥٩ – ٢٦٠ . ذو نفيان : يتفرق ههنا وههنا . رمان : اسم بلد . الذود : الثلاث من الإبل إلى العشر . غنمان أراد قطعتي غنم .

(٢) ديوانه ، ص٨٧ – ٨٨ . الأقعس : الذي في ظهره انحناء .

(٣) ينظر ديوان الحماسة ، ١/٢٦١ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٤٣ .

(٥) الأصمعيات ، ص٦٠ – ٦١ . أضرع : أدنى أو أميل . الأدرع : ما فيه من بياض وسواد ، والأصل أن يوصف الليل بالأدرع الذي تفجر فيه الصبح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكانت الأمة تقوم بالطبخ ولوازمه ، وتقوم بالطحن والخبز ، وتقوم بالخدمة في المنازل . وكانت تقوم بإعداد الطعام ، وحمل الأثقال للترحال ، وتقوم بالتحطيب وقطع الأخشاب ، ومنهن من تبيع الأحطاب والثمار (١) .

يقول طرفة بن العبد مثلا :

تبيتُ إِمَاءُ الحَيّ تطهى قُدورَنا وَيأْوِي إلينا الأشعثُ المُتَجزِّفُ (٢)

ويقول طرفة أيضا مشبها النعام تسير في الأطلال رافعة أجنحتها بالإماء اللائي كن يحملن حزم الحطب بجامع دقة الرجلين ، وسوادهما وسعة القسم العلوي .

لا أَرَى إلّا النَّعـــام بـــهِ كالإمـاءِ أَشْرَفَتْ حُزَمُـهْ (٣)

ومثل قول طرفة بن العبد قول الأخنس بن شهاب في حديثه عن الأطلال ومنازل الأحبة التي خلت من أهلها فصارت مساكن للنعام ترعى فيها غير خائفة من أحد ، وهي في مشيها تشبه الجواري التي تمشي على مهل بالعشي لما علىرؤوسهن من الحطب ؛ يقول الأخنس :

تُمَشِّي بِهَا حُولُ النَّعامِ كَأَنَّهَا إماءٌ تُزَجَّى بالعَشِيّ حَوَاطِبُ (٤)

وفي الحروب يفتخرون بقتل سراة القوم ، لأنهم أقرانهم ، ويعفون عن "أولاد الإماء الحواطب" (٥) لأن هؤلاء لا يليق بسراة القوم أن ينازلوهم ويقاتلوهم ، لضعفهم وذلهم .

وقد ذكر النابغة الذبياني الإماء اللائي يبعن الأحطاب والثمار بقوله:

لِيْسَتْ مِنَ السُّودِ أَعْقابا إذا انْصَرَفَتْ ولا تَبِيـعُ بِجَنْبَيْ نَخْلَـةَ البُرَمَا (٦)

وكان الإماء والعبيد يقومون بالرعي , فكانت الإماء ترعى الإبل (٧) .

---

(١) ولمن يريد الإطلاع على وظائف الأمة يراجع كتاب "المرأة في الشعر الجاهلي" ، علي الهاشمي ، ص٢٦٢ وما بعدها .

(٢) ديوانه ، ص٩٨ .

(٣) ديوانه ، ص١١٦ .

(٤) ديوان الحماسة ، ٢٩٩/١ . حول : جمع حائل وهي التي لم تحمل . تزجى : تساق .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص٩١ .

(٦) ديوان , ص٦١ . نخلة اسم سوق . البرما : جمع برمة : ثمر الآراك قبل أن يسود .

(٧) ينظر ديوان علقمة الفحل ، ص٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت القيان ترد جمال الحي إذا ارتحلوا (١) . وكانت مهنة الرعي محتقرة في العصر الجاهلي خصوصا للنساء ، كما يقول ذو الإصبع العدواني :

عنِّي إليكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ ... تَرْعَى المَخَاضَ ولارأْيِي بِمَغْبُونِ (٢)

وكان أولاد الإماء من العبيد ، وكانوا كثيرا يقومون بالرعي والاهتمام بالسوام . فعنترة العبسي الذي اصبح مثالا للشجاعة كان راعيا يحسن الحلب والصر لأنه ابن أمة ؛ وكان يرعى جمال قومه منذ فطامه ، يرعى طول النهار من الصباح إلى المغيب ، ويرقد بين أطناب الخيام آخر النهار ، يقول عنترة في ذلك :

أَنَا العَبْدُ الذي خُبِّرْتِ عنه ... رَعَيْتُ جِمَالَ قَوْمِي مِنْ فِطَامِي

أَرُوحُ مِنَ الصَّباحِ إلى مَغِيبٍ ... وَأَرْقُدُ بَيْنَ أَطْنَابِ الخِيَامِ (٣)

وثمة عبيد مقيمون لايبرحون المكان مستمسكون بالأصنام (٤) .

وأما سقي الخمر والغناء والرقص وإلى غير ذلك من متطلبات الشاربين واللاهين فالإماء تقوم بها كافة . قال عدي بن زيد :

ثم نادَوا على الصَّبُوحِ فَجَاءَتْ ... قَيْنَةٌ فِي يَمِينِها ابْرِيقُ (٥)

كما كانت بعضهن يضربن على الدف .. وعلى آلات الطرب .. وكانت بعضهن من المغنيات.

وكان بعض الجاهليين يكرهون إماءهم على البغاء من أجل المال . مع أن الزنا عند العرب كان عارا في الغالب . ولكن قد يلجأ إليه فقراؤهم لأنهم لا يجدون زواجا (٦) .

وثمة صورة للإماء من الفقراء زمن الشدة والبرد في فصل الشتاء . فهن كالأشجار البالية المقطعة الأغصان في الشتاء ، مقيمات على ما بقي في القدر ، أو ما لصق بأسفلها من مرق أو حطام طعام .. يقول عمرو بن قميئة في هجاء قوم :

ورأيتَ الإماءَ كالجِعْثِنِ البا ... لي عُكُوفا عَلى قُرَارَةِ قِدْرِ (٧)

---

(١) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٢٧ .

(٢) ديوانه ، ص٩٣ .

(٣) ديوانه ، ص٥٤ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى .

(٥) ديوانه ، ص٧٨ .

(٦) ينظر المحبر ، لابن حبيب ، ص٢٦٤ .

(٧) ديوانه ، ص٢٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت القيان تغبر وجوههن حتى لتحسبهن من الأحباش لشدة البرد في الشتاء حين يشح المرعى ويجف اللبن في ضروع النوق (١) .

وثمة صورة لعبد أسود يلبس فروا طويلا لا أذن له ، شبه به الظليم – ذكر النعام – الأصلم الذي لا أذن له , أصعل صغير الرأس يعود إلى بيضه . يقول عنترة من معلقته :

صعلٍ يعودُ بذِي العُشَيْرَةِ بَيْضَهُ كالعَبْدِ ذِي الفَرْوِ الطَّوِيلِ الأَصْلَمِ (٢)

الأرامـــل والأيتـــام

أ- الأرامل

جاء في لسان العرب مادة "رمل" .. أرمل القوم : نفد زادهم . المُرْمِل : الذي نفد زاده ورجل أرمل وامرأة أرملة : محتاجة ، وهم الأرملة والأرامل والأرامِلة ، وكل جماعة من رجال أو نساء ... أرملة بعد أن يكونوا محتاجين . ويقال للفقير الذي لا يقدر على شيء من رجل أو امرأة أرملة ولا يقال للمرأة التي لا زوج لها وهي موسرة أرملة ، والأرامل المساكين . ويقال : جاءت أرملة من نساء ورجال محتاجين ، ويقال للرجال المحتاجين الضعفاء أرملة وإن لم يكن فيهم نساء . والأرامل المساكين من نساء ورجال .

والأَرْمَل : الذي ماتت زوجته . والأرملة التي مات زوجها ، سواء كانا غنيين أو فقيرين . والأرملة : التي مات عنها زوجها سميت أرملة لذهاب زادها وفقدها كاسبها ومن كان عيشها صالحا به ، من قول العرب : أرمَلَ القوم والرجل إذا ذهب زادهم . ولا يقال للرجل أرمل إذا ماتت زوجته لأن الرجل لا يذهب زاده بموت امرأته إلا في شذوذ إذا كانت زوجته قيمة عليه .. .

والرَّمَلُ : المَطر الضعيف . عام أَرْمَلُ : قليل المطر والنفع والخير وسنة رملاء كذلك .

نستطيع لما جاء في لسان العرب أن نقول أن ما يجمع بين الأرامل سواء من النساء أو الرجال أو الاثنين معا هو نفاد الزاد والحاجة والفقر والمسكنة . فحتى الأرملة التي مات عنها زوجها سميت أرملةً لذهاب مُعيلها ومُؤمِّن عيشها وقوتها .

---

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٨٣ .

(٢) ديوانه ، ص١٤ . وشرح المعلقات السبع ، ص١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأعتقد أن التفاخر والتمدح بالعطف على الأرامل في الشعر الجاهلي – في الغالب – يقصدون بالأرامل المساكين الفقراء والمحتاجين الذين نفد زادهم سواء من الرجال أو النساء . والأرملة للنساء أخص . وإذا ما تفاخروا بمساعدة الأرملة التي مات عنها زوجها تكون هذه المرأة فقيرة بحاجة إلى عون خصوصا إذا كان لديها أطفال صغار يتامى .

وكان الزاد كثيرا ما يفنى في الغزو البعيد ، كما يشير إلى ذلك سنان بن أبي حارثة المري من قصيدة يشكو فيها الكبر وضعف البصر ، ثم يرتاح إلى ذكريات الشباب مفتخرا بقيامه بحق قومه وقبيلته إذا طالت غزوتهم ، يقول :

قدْ يَعلمُ القَوْمُ إذْ طَالَتْ غَزَاتُهمْ وَأَرْمَلُوا الزَّادَ أَنِّي مُنْفِذٌ زَادِي (١)

ولطبيعة الحياة الجاهلية وقلة خيرات الجزيرة العربية وكثرة التنقل والارتحال ، كان كثيرا ما ينقطع عنهم الزاد (٢) ، فتمدحوا بغياث المرملين "في الليلة الغالي قراها" كما يقول بشر في مدح أوس بن حارثة :

غيـاثُ المُرْمِلِينَ إذا أَنَاخُـوا بِـهِ في الليلـةِ الغَالِي قِرَاهَا (٣)

وكانوا "مأوى المُرْمِلِينَ الدَّرَادِقِ" (٤) .

وكان الجاهليون يعطفون ويشفقون على "الضعيف المرمل" (٥) . ويفخرون بإغاثة الأرامل المساكين المحتاجين في فصل الشتاء (٦) .

وفي شعر الرثاء نجد البكاء على الأشعث البائس زوج الأرملة الفقيرة المحتاجة رثة الثياب التي تشبه الناقة التي كان صاحبها في الجاهلية – إن مات – تربط عند قبره حتى تموت جوعا وهزالا – يقول الجميح الأسدي واسمه منقذ بن الطماح يرثي نضلة :

يا نَضْلَ للضَّيْفِ الغَرِيبِ وللـ ـجَارِ المَضِيمِ وَحَامِلِ الغُرْمِ

---

(١) المفضليات ، ص٣٥١ . والأصمعيات ، ص٢٤٣ .

(٢) ينظر على سبيل المثال ديوان الحماسة ، ١٥٣/٢ .

(٣) ديوانه ، ص٢٢٣ .

(٤) الحماسة البصرية ٥٤٤/١ ، الدرادق : الصغار .

(٥) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ .

(٦) ينظر مثلا : شرح ديوان لبيد ، ص٣٢٢ . وشرح شعر زهير ، ص٢١٦ . وديوان بشر ، ص١٧٦ . وديوان الحطيئة ، ص٢٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَوْ مَـنْ لأَشْعَثَ بَعْـلِ أَرْمَلَـةٍ مِثْلِ البَلِيَّـةِ سَمْلَـةِ الهِـدْمِ (١)

وكانت النساء في العصـر الجـاهلي غالبـا مـا يصبحـن أيـامى – الواحـدة أيـم – بعـد قتـل أزواجهن في الحروب والغارات (٢) ، فتخلف الحروب "أرامل شتى" (٣) ، فيصبحن عالة علـى ذويهن وأقربائهن .

وكانت الأرامـل من الفقراء العيـل اللائي يحتجـن إلى عون ورعايـة وتقديـم الطعـام لهن (٤) . وكان الشعراء يرثون من مات بأنه كان غيثا للأرامل أمهات الأيتام في السنة الشهباء ذات الغبار والأمحال عديمة المطر (٥) .

تقول أم بسطام بن قيس الشيباني ترثي ولدها بسطام الذي قتل :

وَتَبكِيكَ أسْرى طَالما قَدْ فَكَكْتَهُمْ وَأَرْمَلَةٌ ضَاعَتْ وَضَاعَ عِيَالُها (٦)

ونرى أيضا التمدح بغيث الأرامل والأيتام والأخذ بأيديهم (٧) .

وفي الفخر يقول عبيد بن الأبرص :

نَحْمِي حَقِيقَتَنَـا وَنَمْنَعُ جَارَنَا وَنَلُفَّ بَيْـنَ أَرَامِـلِ الأَيْتَامِ (٨)

وثمة صورة للأرملة شديدة الضر قد أعياها الفقر والجوع المدني من الموت ، تعتمد على يديها في النهوض إذا قامت ، لما لحقها من الهزال ؛ تفقد أحوالها زرعة بن عمرو وجعلها من جملة عياله يقول زرعة :

وَأَرْمَلَـةٍ تَتُـوءُ عَلـى يَدَيْهَا مِنَ الضَّرّاءِ أَوْ قَصَصِ الهُزَالِ

---

(١) المفضليات ، ص٣٦٨ . والأصمعيات ، ص٢٥٥ . ورواية الأصمعيات للبيت الثاني :

أم من لأشعث لا ينام وأرمل مثل البليـة سملـة الهـدم .

فهذا الأشعث لا ينام من الجوع .

(٢) ينظر ديوان عامر بن الطفيل ، ص١٠٩ . وديوان الحماسة ، ١/١٩٥ .

(٣) المفضليات ، ص٤١٧ .

(٤) ينظر ديوان عروة ، ص١٢٠ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص١٧٤ . وشاعرات العرب ، ص١٣٣ .

(٦) شاعرات العرب ، ص٩٣ .

(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص١٥٧ .

(٨) ديوانـه ، ص١٣٢ . نلـف .... أي نجمـع الأرامـل ومـا عندهـن مـن أيتـام , ونلجئهـم إلينـا ، الحقيقة : ما يحق عليه أن يحميه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خَلَطْتُ بِغَثِّهَا سِمَنِي فَأَضْحَتْ شَرِيكَةَ مَنْ يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ (١)

وكم من أرملة هزيلة تسعى بأطفالها ، وقد تلبدت شعورهم وأغبرت ، كأنها نعامة تسوق فراخها ؛ قام الأعشى وقومه بإيوائها دون من عليها بفضلهم ، فأصبحت هذه الأرملة رخية البال ، وقد رفعوا عنها الكرب والهزال . يقول الأعشى في ذلك من قصيدة في عتاب صديق :

وأرملةٍ تَسْعَى بِشُعْثٍ كَأَنَّها وَإِيَّاهُمُ رَبْدَاءُ حَثَّتْ رِئَالَها

هَنَأْنَا وَلَمْ نَمْنُنْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ رَخِيَّةَ بَالٍ قَدْ أَزَحْنَا هُزَالَهَا (٢)

وهذا طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلمة الحنفي أحد أجواد العرب بأنه كان يبذل ويعطي المحتاجين ، ويشفق على الأرملة الهزيلة الشعثاء التي تحمل "منقع البرم" . يقول طرفة :

أَلْقَوْا إِلَيْكَ بِكُلِّ أَرْمَلَةٍ شَعْثَاءَ تَحْمِلُ مَنْقَعَ البُرْمِ (٣)

ب- الأيتام

أصل اليُتْم الانفراد .. "فقدان الأب" في الناس ، وفي الحيوان فقدان الأم . واليتيم الذي يموت أبوه ، والعَجِيّ الذي تموت أمه , واللَّطِيم الذي يموت أبواه والجمع أيتام ويتامى ويتمة . واليتم الإنفراد والغفلة الأنثى يتيمة . والأنثى البنت يتيمة ما لم تتزوج .

واليُتْم الحاجة (٤) .

فاليتيم غالبا ما يكون محتاجا فقيرا إذا لم يجد من أقاربه من يعينه ويأخذ بيده . لذلك نرى الجاهليين يتفاخرون بمساعدة اليتامى الضعفاء المحتاجين ويتمدحون بإغاثتهم .

وكان في العصر الجاهلي اليتيم المخذول الذي خذله أقاربه والأباعد أيما خذلان وتخلوا عنه .

تقول سُلَيْمَى بنت المهلهل التّغلبية في رثاء أبيها :

---

(١) ديوان الحماسة ، ٢/٣٤٤٥ . الواو واو رب وخلطت جوابها .

(٢) ديوانه ، ص٣٥٧ .

(٣) ديوانه ، ص١١٩ . البرم : الواحدة برمة القدر من الحجر ، وقوله "منقع البرم" أي أنهم كانوا ينقعون في البرمة الخيوط التي كانوا يأخذونها من نقض الأكيسة والأخبية ليغزلوها ثانية ويحوكونها نسيجا يتخذون منه الأخبية .

(٤) لسان العرب مادة "يتم" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَهْفِي عليكَ إذا اليتيمُ تَخَاذَلَتْ عَنْهُ الأقــارِبُ أَيَّمَا خِذْلَانِ (١)

ونجد كذلك الأيتام المضيعين (٢) واليتيمة المدفعة (٣) ، واليتيم المدفع الذي يدفعه هذا إلى هذا لا يضيفه أحد لشدة حال الناس وما هم فيه من الجهد .

يقول لبيد مفتخرا بقومه عند حديثه عن القدر أو الجفنة المليئة باللحم :

لا يَجْتَوِيها ضَيْفُهُمْ وفقيرهمْ وَمُدَفَّعٌ طَرَقَ النُّبُوحَ يَتِيمُ (٤)

ونرى اليتيمة المحزونة مقتولة الآباء لا ترحم . تقول الحُرَقَةُ وهي هند بنت النعمان بن المنذر تتحدث عن نفسها :

لا يَرْحَمُــونَ يَتِيمَــةً مَحْزُونَــةً مَقْتُولَةَ الآباءِ نِضْواً تُطْرَدُ

تَبْغِي الجِوار فلا تُجَارُ وَقَبْلَ ذا كَانَ المُنَادي للجوارِ يُسَوَّدُ (٥)

ويكثر اليتامى في الحروب لكثرة قتل الرجال فيها . كما يقول مهلهل بن ربيعة التغلبي محذرا بني بكر في حرب البسوس متوعدا أن يبيد من أجل أخيه كليب – الذي قتل في هذه الحرب – قبائل وقبائل تكثر فيها الأيتام ، يقول من ذلك :

حتَّــى نُبيــدَ قبيلــةً وقبيلــةً قَهْــراً وَنَغْلِقُ بالسُّيُــوفِ الهَامِ

وَيُقِمْنَ رَبَّاتُ الخُدُورِ حَوَاسِراً يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوائِبِ الأيتامِ (٦)

لذلك ترى النساء تخاف من الحروب وتبكي على الصغار اليتامى :

وَتَضِجُّ النِّسَاءُ مِنْ خِيفَةِ السَّبْيِ وَتُبَكِّي على الصِّغَارِ اليَتَامى (٧)

---

(١) شاعرات العرب ، ص٤٠ .

(٢) ينظر السابق ، ص٣٩ .

(٣) ينظر السابق ، ص٤٨ .

(٤) شرح ديوان لبيد ، ص١٣٦ . يجتويها : يكرهها . النبوح : الأحياء .

(٥) شاعرات العرب ، ص٢٢ . قالت الحرقة القصيدة التي أخذ البيتان منها بعدما طلبها كسرى من أبيها النعمان للزواج ، فرفض النعمان تزويجها من أعجمي ، فجند كسرى الجنود وفتك بالنعمان ، وهربت الحرقة ملتجئة إلى بوادي العرب في خفاء ... وأرسل كسرى صوائح في بلاد العرب ، يحذر من يحمي أو يؤوي الحرقة فقالت الشعر تتأسف على خمود همة العرب وتخاذلهم أمام كسرى .

(٦) الأصمعيات ، ص١٧٦ .

(٧) ديوان عنترة ، ص١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولشدة حاجة اليتامى وفقرهم وحرمانهم من متطلبات الحياة الأساسية ، تسمع لهم عواء عند الشدائد كما يشير حاتم الطائي إلى ذلك مشبها عواء سباع البرية بعواء اليتامى في قوله :

وَدَوِّيَّةٍ قَفْرٍ تَعَاوى سِبَاعُها عُواءُ اليَتَامى مِنْ حِذَارِ التَّرَاتِرِ (١)

وتجد اليتامى يرضعون بلبن غير لبن أمهاتهم ، أو منعهم اللبن وتغذيتهم بالطعام كالذئاب . يقول ذو الإصبع العدواني بيتا من الشعر :

إذا شِئْتَ أبْصَرْتَ مِنْ عَقْبِهِمْ يَتَامَى يُعَاجُونَ كَالأَذْؤُبِ (٢)

وكان اليتامى يعيشون أحيانا في جوع شديد وإن لم يكن جدب . ويجوعون كذلك أشد الجوع زمن الجدب والقحط وقلة المطر . أشارت إلى المعنى الثاني ليلى بنت سلمة في رثاء أخيها بقولها :

فَتىً لَا يَعُدُّ المالَ رَبًّا ولا تُرى له جَفْوَةٌ إنْ نَالَ مَالاً ولا كِبْرُ
فَنِعْمَ مُنَاخُ الرَّكْبِ كَانَ إذا انْبَرَتْ شَمَالٌ وَأَمْسَتْ لَا يُعَرِّجُهَا سِتْرُ
وَمَأْوَى اليَتَامى المُمْحِلِينَ إذا انْتَهَوْا إلى بَابِهِ شُعْثًا وَقَدْ قَحِطَ القَطْرُ (٣)

وجاء في لسان العرب من مادة "محل" : المحل الشدة . والجوع الشديد وإن لم يكن جدب . وأرض محل وقحط لم يصبها المطر في حينه .

فهم يتفاخرون بتقديم الجفان المليئة باللحم للأيتام الذين يشكون من الجوع في كلب الشتاء وعند اختلاف هبوب الرياح (٤) .

وكان اليتامى من الفقراء لا تسد فقرهم الهدايا التي ترسل إليهم في كل قدح مجبور ، والذي يخفف عنهم هذا الفقر من يعطف عليهم ويمنحهم الأبل التي في المرعى كلها حتى يصبح بيت المتفضل عليهم بإبله مثل البيت الذي لا إبل فيه . وكان الأخ الكريم يحب أن يبذل لبني أخيه ما يدفع عنهم الفقر والجوع والمسغبة وإن كان منه ما يفقر بنيه ويجوعهم ؛ يقول حجية بن المضرب في هذا المعنى يخاطب زوجته التي عاتبته على هذا الكرم :

---

(١) ديوانه ، ص٨٦ .

(٢) ديوانه ، ص٣٠ . والعقب بكسر القاف وسكونها : ولد الرجل وولد ولده .

(٣) شاعرات العرب ، ص٦٨ .

(٤) ينظر شرح المعلقات اسبع ، ص٩٨ . من معلقة لبيد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأيتُ اليَتامى لا تَسُدُّ فُقُورَهُمْ ... هَدَايـا لَهُمْ فِي كُلِّ قَعْـبٍ مُشَعَّبِ
فقلـتَ لِعَبْدَيْنَـا أَرِيحَا عَلَيْهِمِ ... سَأَجْعَـلُ بَيْتِي مِثْلَ آخَـرَ مُعْزِبِ
بَنِيَّ أَحَـقُّ أَنْ يَنَالُوا سَغَابَـةً ... وَأَنْ يَشْرَبُوا رَنْقاً لَدى كُلِّ مَشْرَبِ (١)

وتمدح الشعراء الجاهليون بمن يكون غيثا لليتامى في السنين الشداد (٢) . وفي شعر الرثاء يكون المرثي "أبو الأيتام" (٣) و "وجدت أبي ربيعا لليتامى" (٤) وكما يقول أمية بن أبي الصلت في بيت شعر له :

وأبو اليَتَامى كانَ يُحْسِنُ أَوْسَهُمْ ... وَيَحُوطَهُمْ في كلِّ عَامٍ جَاحِدِ (٥)

وكما يقول الأسود بن يعفر في رثاء سيد جواد عند حديثه عن جفنة :

يَسَّرْتَهَـا لِيَتَامَـى أو لِأَرْمَلَـةٍ ... وكنتَ بالبائِسِ المَتْرُوكِ مَحْقُوقَا (٦)

فاليتامى والأرامل لديهم الحق في البكاء والحزن على المرثي الذي كان يعطف عليهم (٧) .

---

(٢) ديوان الحماسة ، ٣٥/٢ . والبيتان الأول والثاني للسموأل في ديوانه ، ص٧٨ . الرنق : الماء المكدر وكني به عن سوء الحال .

(٣) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٦٩ . ديوان الأعشى ، ص١٤١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ، ص١٣٢ .

(٥) شرح ديوان لبيد ، ص٤٠ .

(٦) شرح ديوانه ، ص٣٧ . الأوس : الإعطاء والتعويض . يحوطهم : يتعهدهم بعنايته . العام الجاحد : عام الجدب والقحط .

(٧) ديوانه ، ص٥٢ .

(٨) ينظر ديوان الحماسة ، ٤١٤/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الخامـــس

آثـار الفقـر كما بـدت في الشعـر الجاهلـي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي

-١-

الآثــار الجسديــة

١- الجوع

لقد كثر حديث الجوع والجياع في الشعر الجاهلي ، من حيث هو أثر من آثار الفقر ، فقر البيئة والإنسان . وجاء هذا الحديث عن الجوع في أغراض الشعر المختلفة مبثوثا في القصائد والمقطوعات والأبيات المتفرقة ، وأشار الشعراء إلى أسباب الجوع وزمانه في العصر الجاهلي.

ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدي إلى أمعاء ضيقة (١) .

* * *

وغالبا ما يكون الجوع في السنة الجدباء ، حتى أن السنين التي يكثر فيها الجوع تسمى المجاوع . يقول أبو خراش الهذلي في رثاء أخيه عروة الذي أثرت فيه سنوات الجوع ، لأنه كان يؤثر صحبه على نفسه بزاده فيجوع ليشبعهم لأنه صاحب همة عالية يبغي المكارم :

ولكنَّــهُ قَــدْ نَازَعَتْــهُ مَجَاوِعٌ عَلى أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ (٢)

لذلك نراهم يتفاخرون بالإطعام في سنوات الجدب والمحل والقحط والجوع . كما يقول عنترة العبسي مفتخرا بقومه :

المُطْعِمُونَ إذا السِّنُونُ تَتَابَعَتْ مَحْلاً وَضَنَّ سَحَابُها بِسِجَالِ (٣)

وأكثر ما يجوع الناس في هذه البيئة الصحراوية التي تقوم على الصراع ، صراع الإنسان مع البيئة ، في الشتاء الجديب ، فهذا الفصل من السنة شديد الوطأة على الناس ببرده ورياحه

---

(١) المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ، ص٣٧٦ .

(٢) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٢٧/١ . وفي ديوان الهذليين ، ١٥٨/٢ .

(٣) ديوانه ، ص٤٩ . وينظر في مثل هذا المعنى على سبيل المثال في ديوان بشر بن أبي خازم ، ص٢٩٨ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص٤٦ . وشرح شعر زهير ، ص٩٣ . وديوان الحماسة ، ٢/ ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثره السيء على الحيوان والنبات اللذين كانا مصدرين هامين من مصادر الرزق للإنسان الجاهلي .

والعرب تجعل الشتاء مجاعة ؛ لأن الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للإنتجاع . ويقال أشتى القوم فهم مشتون إذا أصابتهم مجاعة . وشتا القوم يشتون أي أجدبوا في الشتاء خاصة . والعرب تسمي القحط شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد . وقال الحطيئة وجعل الشتاء قحطا :

إذا نَزَلَ الشِّتَاءُ بِدَارِ قَوْمٍ تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ (١)

لذلك نرى الشعراء الجاهليين يتمدحون بإطعام الجياع في فصل الشتاء . فهذا زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان بكرمه وجوده ، وأنه مأوى الجائعين إذا هبت ريح الشتاء:

تَاللَّهِ قَدْ عَلِمَتْ قَيْسٌ إذا قَذَفَتْ رِيحُ الشِّتَاءِ بُيُوتَ الحَيِّ بِالعُنَنِ

أَنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الحَيِّ الجِيَاعِ إذا خَبَّ السَّفِيرُ وَمَأْوَى البَائِسِ البَطِنِ (٢)

وكما يقول الأفوه الأودي مفتخرا :

فِينا لِثَعْلَبَةَ بن عوف جفنَةٌ يَأوِي إلَيْهَا في الشِّتَاءِ الجُوَّعُ (٣)

ويكون الجوع عند البرد الشديد . يقول امرؤ القيس بن حجر في مدح طريف بن ملء من طيء ويشيد بكرمه وجوده في ليلة الجوع والبرد :

لَنِعْمَ الفَتَى تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ طَرِيفُ بنُ مَالٍ لَيْلَةَ الجُوعِ والخَصَرْ

إذا البازِلُ الكوماءُ راحَتْ عشيّةً تُلاوِذُ مِنْ صَوْتِ المُبِسِّينَ بالشَّجَرْ (٤)

ويكون الجوع في الشتاء ويحصل في فصل الصيف كذلك (٥) .

* * *

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففي أخبار عروة أن أناسا من بني عبس أجدبوا في سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس . فأتوا عروة

---

(١) ينظر لسان العرب مادة "شتا. "

(٢) شرح شعره ، ص٩٩ . وقريب من هذا المعنى ينظر أيضا ، ص٧٨ . معترك : حيث يزدحمون . البطن : الذي قد لزق ظهره ببطنه جوعا . خب السفير : وهو ورق الشجر تحته الريح ، فيمر على الأرض.

(٣) ديوانه ، ضمن الطرائف الأدبية ، ص١٩ .

(٤) ديوانه ، ص١٠٦ . تعشو : تنظر ببصر ضعيف . الخصر : شدة البرد.

(٥) ينظر الأغاني (دار الثقافة بيروت) ، ٢٠/٣٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستنجدون به ، فخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا (١) .

ونجد الأعلم الهذلي يتحدث عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وَذَكَّرْتُ أهليَ بالعَرا ... ءِ وَحاجَةَ الشُّعْثِ التَّوالِبْ

المُضْرِمينَ مِنَ التِّلا ... دِ اللّامِحِينَ إلى الأَقارِبْ (٢)

وقد تحدث بعض الشعراء الجاهليين عن جوع العيال أثناء حديثهم عن الخيل ، إذ من المعروف أن العرب كانوا يعتزون بالخيل أشد الاعتزاز ؛ لأنها سلاحهم ، وركوبتهم ، في هذه البيئة الصعبة ، فهم يفدون الخيل بأنفسهم ، وتؤثر على الأولاد ، فتشبع الخيل ويجاع لها العيال ، كما يشير إلى ذلك رجل من تميم ، وقد طلب منه بعض الملوك فرسا يقال لها سكاب ، فمنعه إياها قائلا :

أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكَابَ عِلْقٌ ... نَفِيسٌ لَا تُعَارُ وَلَا تُبَاعُ

مُقَدَّاةً مُكَرَّمَةً عَلَيْنَا ... يُجَاعُ لَهَا العِيَالُ وَلَا تُجَاعُ (٣)

فإذا كان الشاعر أو غيره يجوع أبناءه من أجل خيله يطعمها ، ويذيقهم حسرة الحرمان والجوع زمن الشدة والفقر، نجد من يبخل على فرسه بالحياة وينحرها من أجل صبية جياع يتعاوون كالذئاب جوعا في سنة أصابت الناس ، فأذهبت الخف والظلف ، وأتت ليلة عليهم أسهرتهم من الجوع ، فلا غرو أن يقوم حاتم الطائي بهذا العمل المشهود له بالكرم والجود ، وأكثر من ذلك أنه في تلك الليلة ، وبعد أن ذبح فرسه وأطعم الناس الجياع .. فأكلوا جميعا وأصبح هو أشد جوعا وما ذاق شيئا (٤) .

* * *

فحاتم الطائي يبيت جائعا ؛ لأنه يؤثر الآخرين على نفسه ، ويستحي أن يملأ بطنه وغيره جائع . يقول :

أَبِيتُ خَمِيصَ البَطْنِ مُضْطَمِرَ الحَشَا ... حَيَاءَ أَخَافُ الذَّمَّ أَنْ أَتَضَلَّعَا (٥)

---

(١) الأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٣/٨١،٨٢ .

(٢) ديوان الهذليين٢ /٨١ .

(٣) ديوان الحماسة ، ١/٦٧ .

(٤) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص٣١ . وينظر في جود حاتم وكرمه الأغاني (بيروت) ، ١٧/٢٧٨،٢٨١ .

(٥) ديوانه ، ص٩٩ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢/٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول أيضا :

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي البَطْنَ والزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَـةَ يَوْماً أَنْ يُقَـالَ لَئِيمُ (١)

وحاتم لا يرى الخمص تعذيبا ، ولا يرى في الجوع مشكلة ، على نفسه أو على من يجد صورته فيه ، لذلك تراه يذم الصعلوك الذي يعد الجوع تعذيبا ، إذ يقول:

يَرَى الخَمْصَ تَعْذِيباً وإنْ يُلْقَ شِبْعَةً يَبِتْ قَلبُه من قلَّـةِ الهـمِّ مُبْهَمَا (٢)

ولكن الوجه الآخر الإيجابي المشرق الذي يوافق حاتمافي نظرته للجوع هو ذاك الصعلوك المثابر الذي لا يعد الجوع شيئا يهتم له ، ولا إذا شبع وملأ بطنه يفرح ؛ يقول حاتم في ذلك:

فَتَى طَلِبَاتٍ لا يَرَى الخَمْصَ تَرْحَةً وَلَا شِبْعَـةً إنْ نَالَها عَـدَّ مَغْنَمَا (٣)

فكيف لا يعتبر حاتم الطائي الجوع مشكلـة ، وكيف يذم من يرى في الجوع عذابا وحزنا وهما ، وليس هذا فحسب ، بل يتمدح أيضا بأنه يبيت جائعا !

يفسر ذلك بنفسه ، فهو يخاف أن يذمه أحد إذا شبع أو سمن . أو مخافة أن يقال لئيم يجوع ويبيت جائعا .. ويمدح من لا يرى في الجوع هما . أكل ذلك مخافة كلام الناس ؟ أو حياء منهم ! فأين حرصه على نفسه ؟ وما طبيعة هؤلاء الناس الذين يخاف مذمتهم ؟ .

يفسر لنا هذا – كثرة الجائعين زمن حاتم ، وأنه يخاف لومهم ، ولا ننسى أيضا أنه كان سيدا من سادات قومه .

فبيئة الجزيرة العربية فقيرة في نباتها وحيوانها ومواردها ، والكل معرض في هذه البيئة للجوع في كل زمان ومكان . فالحيوان يجوع (٤) والإنسان يجوع : الشيخ الكبير (٥) وكذلك الصغار (٦) ، ويجوع الحي بأكمله (٧) .

* * *

ومن صور الجوع المضني ، ما نراه في عينية الحادرة ، حين يصف الفتية الجوعى المتبطحين على الكنيف ، فأكرمهم وجاد عليهم ، فطبخ لهم .. ، وكان من بينهم رجل أشعث

---

(١) ديوانه ، ص١١٥ .

(٢) ديوانه ، ص١١٢ .

(٣) السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ينظر مثلا ديوان الهذليين ، ٢/٧٩،٩٧،١٠٦ . والأصمعيات ، ص١٠٩ .

(٥) ينظر مثلا ديوان الهذليين ، ٢/٥٤ ،٩٠ .

(٦) ينظر السابق ، ٢/٨١ .

(٧) ينظر السابق ، ١/٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مضرور ، قد أضناه الجوع ، يحلف من الجهد والضر ليطعمه .. ويمد يده يقول : قد أنضجت ؛ ولما ينضج بعد ، لشدة جوعه . يقول الحادرة :

وَمُعرَّضٍ تَغْلِي المراجِلُ تحتَهُ عَجِلْتُ طَبْخَتَـهُ لِرُهْطٍ جُوَّعِ
وَلَـدَيَّ أَشْعَثُ باسِـطٌ لِيَمِينِـهِ قَسَماً لَقَدْ أَنْضَجْتَ لَمْ يَتَوَرَّعِ (١)

فلماذا خص الحادرة القسم بواحد من الرهط الجوع ؟ مع أن الشاعر عجل في إنضاج الطعام لهم جميعا ، نقول : إنه الجوع الشديد . ولكن ألم يكن أولئك في جوع شديد أيضا مثل هذا الأشعث ؟ بلى ، ولكنها الطبيعة البشرية المختلفة في قدراتها على التحمل . فهذا الأشعث الذي أقسم ... قد فقد صبره . وكأنه فقد صوابه – فلم يستطع تحمل هذا الجوع الشديد دون الآخرين ، فأطلق صرخة من أعماق صدره ، تعبر عن جوعه . إذا فللجوع درجات ، حسب قدرات الناس على التحمل والصبر .فالجوع الشديد يعض عضا ، كما تصرح غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي التي عضها الجوع ، فآلت على نفسها أن لا تمنع جائعا ؛ تقول :

لَعَمْرُكَ قِدْماً عَضَّنِي الجُوعُ عَضَّةً فَآليتُ أَنْ لَا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعًا (٢)

والشنفرى يرسم صورة من صور الجوع والحرمان الشديدين في قوله :

وأَطْوِي على الخُمْصِ الحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطَـةُ مَارِيٍّ تُغَـارُ وَتُفْتَـلُ
وَأَغْـدُو عَلى القُـوتِ الزَّهِيـدِ كَمَا غَـدَا أَزَلُّ تَهَـادَاهُ التَّنَائِـفُ أَطْحَـلُ (٣)

ونجد الرجل الجائع ، تشتد عليه سخفة الجوع ، فيعصب بطنه بحجر (٤) ؛ لذلك ترى الشعراء الجاهليين قد تمدحوا بمن يؤوي هذا المعصب ، ويعطف عليه . من ذلك يقول قيس بن الخطيم في مدحه خداش بن زهير بالكرم والعطاء وأنه مأوى لكل جائع قد هلك ماله :

رَحْبَ المَبَاءَةِ والجَنَابِ مُوَطَّأً مَأْوىً لِكُلِّ مُعَصَّبٍ مِسْـوَافِ (٥)

---

(١) ديوان شعره ، ص٣١٧-٣١٨ . والمفضليات ، ص٤٦ . المعرض : اللحم الذي لم ينضج . لم يتورع : لم يكف عن اليمين ، مضى عليها.

(٢) شاعرات العرب ، ص٩١ . والأغاني (بيروت) ، ٢٨٠/١٧ . وذيل الأمالي والنوادر للقالي ، ص٢٣ .

(٣) النوادر ، ص٢٠٤ .

(٤) وجاء في لسان العرب مادة "عصب" : عصبتهم السنون : أجاعتهم . ورجل معصب : فقير . وعصب الدهر ماله : أهلكه .

(٥) ديوانه ، ص١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول بشر في مدح عمرو بن حجر آكل المرار من ملوك كندة :

بحرٍ يفيضُ لِمَنْ أَنَاخَ بِبَابِـهِ مِنْ سَائِلٍ وَثِمَالِ كُلَّ مُعَصَّبِ (١)

وتحدث الشعراء الجاهليون عن جوع أبناء الصائد الفقير المسكين ، الذين يعتمدون على ما يصطاده لهم أبوهم من حيوانات الصحراء . هذا الصائد – ينجح أحيانا – في رحلة صيد شاقة ، فيأكل ويأكلون ، وكثيرا ما يخيب ، فتراه حزينا كئيبا على نفسه وعياله الذين يتضورون جوعا . خاب رب الأسرة ، وعادت هذه الخيبة على أولاده المساكين .

فهذا ربيعة بن مقروم الضبي يصف في قصيدة عينية له صائدا من بني جلان ليس لـه متاع غير قوسه وأسهمه ، وهو إذا لم يصد ويوفر لحما طريا لأولاده جاعوا ، يقول في الصائد :

إذا لمْ يَجْتَـزِرْ لِبَنِيـهِ لَحْمَاً غَرِيضَاً مِنْ هَوَادِي الوَحْشِ جَاعُوا (٢)

وهذا صائد يصيد بقوسه وأكلبه ، وقد فقد هذا الصائد كلبين من كلابه ، فساءت حاله ، وأيقن بالخيبة والجوع . فأخذ يستجدي الناس فلم يعطوه شيئا . فعاد إلى أولاده الذين يشبهون السهام في ضعفهم ونحولهم وسوء حالهم ، وقابل زوجته الحمقاء تنتظر الغنيمة . لكن ما حصل هو العكس ، فهو الذي طلب منها طعاما يسد به جزءا من جوعه ، وهو يذم الناس لها . فأشارت عليه أن يستغني بالماء عن الطعام ، فأجابها إلى ذلك . ولكنه كان شديد الضعف والإعياء . وحاول النوم فلم يستطع لجوعه الشديد . يقول في ذلك مزرد بن ضرار الذبياني :

بناتُ سَلُوقِيَّيْـنِ كَانَـا حَيَاتَـهُ فَمَاتَا فَأَوْدَى شَخْصُـهُ فَهْوَ خَامِلُ
وَأَيْقَـنَ إِذْ مَاتَا بِجُـوعٍ وَخَيْبَـةٍ وَقَالَ لَـهُ الشَّيطَـانَ إِنَّـكَ عَائِلُ
فَطَـوَّفَ فِي أَصْحَابِـهِ يَسْتَثِيبُهُم فَآب وَقَـدْ أَكْدَتْ عَلَيْـهِ المَسَائِلُ
إِلى صِبْيَةٍ مِثْلِ المَغَالِي وَخِرْمِلٍ رَوَادٍ وَمِنْ شَرِّ النِّسَاءِ الخَرامِلِ
فَقَالَ لَها : هَلْ مِنْ طَعَـامٍ فَإِنَّنِي أَذَمَّ إِلَيْـكِ النَّـاسَ أُمَّـكِ هَابِـلُ
فَقَالَتْ نَعَمْ هـذا الطَّـوِيُّ وماؤُهُ وَمُحْتَـرِقٌ مِنْ حائِلٍ الجِلْدِ قَاحِلُ
فلمَّا تَنَاهَـتْ نَفْسُـهُ مِـنْ طَعَامِهِ وَأَمْسَى طَلِيحَاً مَا يُعَانِيـهِ بَاطِلُ
تَغَشَّى يُرِيدُ النَّوْمَ فَضْلَ رِدَائِه فَأَعْيَا عَلى العَيْنِ الرُّقَادَ البَلابِلُ (٣)

---

(١) ديوانه ، ٣٨ . الثمال : الملجأ والغياث والمطعم في الشدة .

(٢) المفضليات ، ص١٨٩ .

(٣) السابق ، ص١٠١-١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا الصائد المسكين ، وهو جزء من المجتمع الجاهلي ، حرم النوم بسبب الجوع ، وكان قد حاول أن يدفع الجوع عن نفسه وعن عياله وأسرته ، بأن خرج في صيد يبغي لحما طريا ، لكنه خاب من هذا الباب ، فطرق بابا آخر ، وهو استجداء الناس ، ولكنه أغلق أمامه أيضا ؛ فهو لهذا إذن يسب الناس ، ويذمهم أمام زوجته ، ليطلب عذرا لنفسه على هذا التقصير ؛ وأي تقصير هذا الذي يسبب جوع أسرة كاملة ، ويحرمهم النوم أيضا ؟ .

* * *

ومن آثار الجوع الشديد على الإنسان الجاهلي ، الإرهاق والضعف والهزال . وكان من آثار قلة الزاد ضعف الجسم وبروز العظام ، والتصاق الأمعاء من شدة الجوع (١) .

وكان يبلغ الجوع مبلغه في صغار السن . فالغلام كان يلقي بكفيه من الجوع ضعفا وهزالا (٢) .

ومن آثار الجوع الشديد الدوار والدوخان وإظلام البصر . هذا ما يحدثنا به السليك بن السلكة الصعلوك (٣) عندما حصل في إحدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هي عدد من الإبل ، فقرت بها عينه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو إليها ، فلم يبلغها إلا بعد جهد شديد ، وعرض نفسه للموت ، وتجشم الأخطار . وحين ننظر فعلا إلى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بني تميم في اليمامة والرباب في الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت في جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطويل وما يكتنفه من مخاطر الصحراء والجبال والمهالك ، يجد السعادة وقرة العين في عدد من الإبل ، وحين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التي كان يعانيها نعذره إن هو سعد بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يقوله في هذا الشعر ، من أنه كان يعاني الجوع الشديد في الوقت الذي يخصب فيه الناس وهو الصيف ، فضلا عما يجدبون فيه من أوقات ، وإن هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ بالشاعر حالة من الضعف والإعياء والهزال تجعله يفقد توازنه ويخف بصره إذا قام ، كما يقول :

وَمَا نِلْتُهَا حَتَّى تَصَعْلَكْتُ جِقْبَةً وَكِدْتُ لأَسْبَابِ المَنِيَّةِ أُعْرَفُ

---

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ١/١٩٠ . وديوان تأبط شرا ، ص١١٥ . وشرح ديوان لبيد ، ص٣١٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٢٧٧ .

(٣) ينظر في هذا الحديث شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حفني ، ص١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحتّى رأيتَ الجُوعَ بالصَّيْفِ ضَرّنِي إذا قُمْتُ تَغشَانِي ظِلَالٌ فَأُسْدَفُ (١)

وإذا ما اجتمع الجوع المبرح والهوى على الرجل المسكين كاد يموت :

إذا اجْتَمَعَ الجُوعُ المُبَرِّحُ والهَوَى على الرَّجُلِ المِسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ (٢)

* * *

فهذاهو الجوع المضني الذي كان الإنسان الجاهلي يعاني من آثاره التي قد تودي به وتهلكه في ظروف البيئة الصحراوية الفقيرة التي تجعل الجوع ظاهرة متكررة وشرا يلاحق الإنسان في كل مكان . فالجوع متوقع في كل وقت .

لذلك روض الجاهليون أنفسهم على الصبر وقوة الإرادة لتحمل وطأة هذا الجوع الشديد وظله العنيف . وكان الجاهليون ييسرون بالإبل عندما يشيع الجوع بين الناس ، ولا راد لهذا الجوع غير الضرب بالقداح . يقول علقمة بن عبدة مفتخرا :

وَقَدْ يَسَرْتُ إذا مَا الجُوعُ كَلَّفَهُ مُعَقِّبَ مِنْ قِداحِ النَّبْعِ مَقْرُومُ (٣)

ونجد التفاخر والتمدح بالميسر وقت الجدب وزمن الشدة كثيرا ما يطرقه الشعراء الجاهليون في شعرهم (٤) . ويتفاخرون بالكرم والجود والعطاء ، وإطعام الجائع . يقول علقمة أيضا :

أَمسَى بَنُو نَهْشَلٍ نَيَّانُ دُونَهُمُ المُطْعِمُونَ ابْنَ جَارِهِمْ إذا جَاعَا (٥)

ويتمدحون بـ "مطعِمَ الجوّع الهَلْكَى إذا سَغِبُوا" (٦) .

وكان الرجل الجاهلي في سنة الجدب ، إذا هجم عليه شبح الجوع ، أخذ عرق بعير وفصده وتلقى دم الفصد في مصير ، حتى إذا امتلأ ، عقده من رأسه ، وشواه على النار وأكله . يؤكد ذلك ما قاله عارق وهو قيس بن جروة الطائي في هجاء عمرو بن هند بالغدر :

---

(١) الأغاني (بيروت) ، ٣٥٠/٢٠ .

(٢) ديوان الحماسة ، ٤٠٥/٢ .

(٣) ديوانه ، ص٧٧ . وفي المفضليات ، ص٤٠٣ . المعقب : القدح الذي يفوز فوزا بعد فوز . المقروم أي القدح المعلوم بالفوز فقد وسم لجودته.

(٤) ينظر مثلا ديوان بشر ، ص١١٩،٧٧ . وشاعرات العرب ، ص٦٠ . وديوان الخنساء ، ص٤٩ .

(٥) ديوانه ، ص١٢٦ . وبنو نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم . نيان : اسم جبل في بلاد قيس أو موضع في بادية الشام.

(٦) ديوان الخنساء ، ص١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَقَدْ يَتْرُكُ الغَدْرَ الفَتَى وَطَعَامُهُ إذا هُوَ أَمْسَى حَلْبَةً مِنْ دَمِ الفَصْدِ (١)

فصحيح أن هذه الطريقة لدفع جزء بسيط من الجوع الشديد تشعرك بالتقزز ، لكنه شبح الجوع ، إما أن تهلك وإما أن تأكل دم البعير بعد شوائه لسد الرمق . فالجاهلي وغير الجاهلي يفضل الحياة على الموت ولو أكل الجيف الميته أو حتى أدنى من ذلك .

وكان بعض الناس من شدة القحط يمضغون الشجر الشائك ، فتسمع من تحت أسنانهم مثل الصرير (٢) . وكانوا يأكلون ما لا يؤكل ، وذلك عند الجوع الشديد (٣) .

وكانوا إذا جهدهم العطش الشديد في سفر أو غزو ، افتظوا كروش دوابهم ، فشربوا ما فيها من الماء . يشير إلى ذلك علقمة بقوله :

وَقَدْ أُصَاحِبُ فِتْيَاناً طَعَامُهُمُ خُضْرُ المَزَادِ وَلَحْمٌ فِيهِ تَنْشِيمُ (٤)

وكانوا يأكلون التراب ، ويغتبقون الماء القراح . فهذا الشنفرى يجوع جوعا شديدا ، فيستف تراب الأرض حتى لا يتفضل عليه أحد بمنة . يقول :

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لَا يَرى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرؤٌ مُتَطَوِّلُ (٥)

وهذا أبو خراش الهذلي يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل ، إذ يقول :

وأَغْتَبِقُ الماءَ القَرَاحَ فأَنتهي إذا الزّادُ أمسى لِلْمُزَلَّجِ ذَا طَعْمِ (٦)

---

(١) ديوان الحماسة ، ١٩٩/٢ . والمعنى : قد يترك الإنسان الغدر وهو في شدة العيش فكيف لا تتركه وأنت ملك.

(٢) ينظر شرح ديوان أمية ، ص٤٤ .

(٣) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص٢٧٧ .

(٤) ديوانه ، ص٧٧ . وجاء في لسان العرب "تشم" : خضر المزاد : الفظ ، وهو ماء الكرش . وفي "سمط اللآلى" للبكري ، ٣٤٨/١ : خضر المزاد يعني الكروش لما حملت الماء سماها مزادا والمزاد : القرب . وجاء في المعاني الكبير ، ٣٨١/١ : "كانوا إذا غزوا وسافروا قطعوا اللحم فجعلوه في كرش فإذا أتى عليها أيام تغير ، فذلك تنشيمه ، ثم قال : وتخضر الكرش إذا تغير اللحم فيها ، فشبه خضرتها بالمزاد إذا اخضر من الماء ، أي يأكلون الكرش وما فيها عند إيغالهم في السفر . وفي "الحيوان" للجاحظ ، ٣٢/٥ :هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية ، وفي الصيف الذي يغير الطعام والشراب ، والغزو على هذه الصورة من المفاخر.

(٥) النوادر ، ص٢٠٤ .

(٦) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عرف الجاهليون في بعض الظروف الصعبة التي يواجهونها ويصلون حرارة الجوع في ظلها ، كأن يكونوا في سفر طويل ، أو غارة من غاراتهم ، أو غزوة من غزواتهم البعيدة عن ديارهم ، أو كانوا في سنة قحط وجوع ، ويخافون نفاد زادهم فيتعرضون لجوع مهلك ، عرفوا نظاما لتقنين الطعام وترشيده ، فيتناولون جزءا من الطعام يمنع عنهم الجوع لئلا يتعرضوا لجوع أشد مميت . فهذا الشنفري الأزدي الصعلوك ، يصف حياته في رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم إلى تأبط شرا ، وكان الأخير حكيما في سياسته وتعامله مع الزاد القليل . فقد وجد تأبط شرا أن الطعام قليل ، فأخذ يقتر عليهم ولا يعطيهم إلا القليل من الطعام الذي لا يرد الجوع عنهم ولكنه بذلك يصرف عنهم جوعا أشد : فيقول الشنفري :

وأمّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقُوتُهُمْ ... إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقَلَّتِ

تَخَافُ عَلَيْنَا العَيْلَ إنْ هِيَ أَكْثَرَتْ ... وَنَحْنُ جِيَاعٌ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ

وَمَا إنْ بِهَا ضِنٌّ بِمَا فِي وِعَائِهَا ... ولكِنَّها مِنْ خِيفَةِ الجُوعِ أَبْقَتِ (١)

ولدفع الجوع الشديد كانوا يقومون بالغارات للحصول على الزاد . "وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام" (٢) . فكانوا يتجشمون الأخطار كي يستولوا على بعض الغنائم كالإبل والأغنام . وقد ينجح أحدهم في ذلك فيدفع عنه الجوع ، وقد يخيب ، فيظل جائعا حتى تتاح له فرصة أخرى . فلا غرو أن يكون الجوع وراء تلك الغارات والغزوات . "فالجوع – كما يقرر علماء الإجتماع – أول الدوافع المسيطرة على الإنسان" (٣) . وخصوصا إذا علمنا أن الجزيرة العربية – وهي موطن هذا الجاهلي – قليلة الموارد قليلة الخيرات ، شحيحة الماء ، تضيق مراعيها بإبلها وأنعامها . وقد أشاعت هذه العوامل الفقر بين سكانها ، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات ، ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هينة عليه أحيانا .... فكما أن الفقر والبؤس يحجبان نور الحق عن أصحابها يصبح الجوع حافزا يخلق من أهله أسودا كواسر تهجم على غيرها في غير رحمة ، ، لتحفظ عليها حقها في الحياة (٤) .

فهذا أبو خراش الهذلي يتحدث عن ابنه خراش الذي خرج في غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشفق عليه أحد الأعداء ، فألقى عليه رداءه ،

---

(١) المفضليات ، ص١١٠،١١١ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ، ١/٢٤٦ .

(٣) نقلا عن الشعراء الصعاليك ... يوسف خليف ، ص٢٩ .

(٤) ينظر الشعر وأيام العرب ... عفيف عبد الرحمن ، ص٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصفه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار ابنه ، مبينا أن سبب غارته لم تكن عداوة بينه وبين أحد . وإنما الرغبة في دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتح له الغنيمة آثر النجاء :

ولم يكُ مُثْلوجَ الفؤادِ مُهيجا ... أَضَاعَ الشَّبَابَ في الرَّبِيلَةِ والخفْضِ
ولكنه قدْ نازَعَتْهُ مَخَامِصٌ ... على أنَّه ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهضِ
كأنهم يشْبُثُونَ بطائرٍ ... خَفِيفِ المشاش عظمُه غير ذِي نحضِ (١)

وهذا عروة يشير إلى أن الغزو أفضل من الجوع إذ يقول :

أقيموا بني لُبنَى صُدورَ ركابِكُمْ ... فَكُل مَنَايا النَّفسِ خيرٌ منَ الهَزْلِ (٢)

ومهما تكن وسائل دفع الجوع متنوعة ، إلا أن الجوع يبقى ويستمر ، ويزداد الجائعون جوعا ، لهذا نرى الجاهليين قد عودوا أنفسهم على الصبر والثبات عند الشدائد واللزبات . فصبروا على الجوع (٣) . يقول الحادرة مخاطبا سمية :

لوْ تَصدُقِينَ لقُلْتِ إنَّهُمُ ... صُبُرٌ عَلى النَّجْدَاتِ والأَزْلِ
وَعَلَى الرَّزِيَّةِ مِنْ نفوسِهِم ... وَتَلاتِلِ اللَّزْبَاتِ والقَتْلِ (٤)

فلما كان هذا الجوع المضني ليس شيئا عارضا في حياة الجاهليين خصوصا الصعاليك منهم ، وإنما هو حالة إن لم تكن دائمة فهي متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم التجارب إلى طرق يعالجونه بها ، وأيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة الإرادة والصبر الشديد ، فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى في معالجته الجوع من أنه يصبر عليه ، ويجاهد في تجاهله وتناسيه حتى ينجح في التغلب على الإحساس بوطأته ، مبينا أنه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض إذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه

---

(١) ديوان الهذليين ، ١٥٨/٢-١٥٩ . والأغاني (بيروت) ، ١٤٣/٢١ . مهيجا : مثقل . مثلوج الفؤاد : ضعيف القلب . الربيلة كثرة اللحم وتمامه .

(٢) الأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٨٢/٣ . أقيموا أي وجهوا الغزو وانصبوا له ، والهزل : الجوع والهازل الجائع ويقال هزل الرجل دابته . والبيت في ديوان عروة بن الورد ، ص١١٤ .

(٣) ينظر مثلا الحماسة البصرية ، ٦٢/١ .

(٤) ديوان شعره ، ص٣٤٠ . الأزل : الضيق . الرزية : المصاب في النفس والمال . التلاتل : الزلازل . اللزبات : الأزمنة الشداد : يقال نزلت بالناس لزبة أي جوع وشدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنسان بإطعامه وأنه لولا عزة نفسه والارتفاع بها عما يشينها لما عز عليه طعام ولا شراب فيقول في لاميته :

أديمُ مِطـــال الجـوعِ حتـى أُمِيتَـــه ... وأَضْرِبُ عنه الذِّكرَ صفْحا فأُذْهَلُ
وأستفُّ تُرْبَ الأرضِ كيْ لَا يَرى له ... عليَّ مِـنَ الطَّـول امرؤ مُتَطَوِّلُ
ولولَا اجتناب الذأم لِمْ يُبْـقَ مشربٌ ... يَعَـــاشُ بِـهِ إلا لَـدَيَّ ومأكَـلُ (١)

وأبو خراش الهذلي يقول أنه في صراعه مع الجوع يتذرع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع هذا الصبر فيذهب ....وهو يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل ، فيقول :

وإني لأثـوي الجـوع حتى يَمَلَّني ... فيذهبُ لمْ يدنسْ ثيابي ولا جرْمي
وأغتَبِقُ المَاءَ القُراحَ فأنتهي ... إذا الـزّاد أمسى لِلْمُزَلَّـجِ ذا طَعْمِ
أَرُدُّ شُجَـاعَ البَطْـنِ قَـدْ تَعْلَمِينَـهُ ... وأُوثِرُ غَيْـرِي مِنْ عِيالكِ بالطُّعْمِ
مخافَـةَ أَنْ أَحْيَـا بِرَغْـمٍ وَذِلَّـةٍ ... وَلَلْمَوْتُ خَيْرَ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمِ (٢)

ويروون في سبب هذه الأبيات "أن أبا خراش أقفر من الزاد أياما ، ثم مر بامرأة من هذيل موسرة ، فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش ريح الطعام قرقر بطنه ، فضرب بيده على بطنه وقال : إنك لتقرقر لرائحة الطعام ، والله لا طعمت منه شيئا ! ثم قال : يا ربة البيت هل عندك من صبر أو شيء مر ؟ فأتته به فأكله . ثم أهوى إلى بعيره فركبه وانصرف . فظنت المرأة أنه أنكر من ضيافتها شيئا . فأخذت تناديه هل رأيت بأسا أو أنكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الأبيات" (٣) .

فانظر إلى هذا التحدي ، تحدي الجائع للجوع ذاته ، ولبطنه الذي يقرقر لرائحة الطعام ، فكيف إذا أكل منه شيئا ؟ ولماذا لم يأكل من هذا الطعام الشهي ويرضي بطنه ، أليس لنفسه عليه حق ؟ ! .

لقد فهم الصعاليك وغير الصعاليك ، في العصر الجاهلي أن الجوع دائم ، يلاحقهم في كل وقت . فالمسألة إذن لا تتوقف على إشباع البطن مرة من المرات ، فالجوع أدوم من الشبع ، فليتعود الإنسان على الدائم ، ويجبر نفسه على ذلك ، ويقيم أوده بما استطاع إليه سبيلا ، ولو أكل المر والعلقم ، وما أكثره في تلك الصحاري المقفرة .

---

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب ، للزمخشري ، ص٧٥-٧٩ . وفي النوادر ، ص٢٠٤ .
(٢) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢-١٢٨ . والأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١-٢٣٩ .
(٣) الأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلكون الجوع حالة متوقعة وكثيرة الدوران على الإنسان الجاهلي ، فقد صار الجوع لديه عادة " وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات" فإن النفس إذا ألفت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون ، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها" (١) .

فلو عذرنا أنفسنا من الاستفسار عن سبب هذا التحامل الشديد على النفس كي تتعود الجوع من قبل الصعاليك خاصة الذين عاشوا حياة التشرد والعناء ، وقلنا إن لديهم الحق في ذلك لظروفهم القاسية وتشردهم في الصحراء القاحلة ، بالإضافة إلى نبذ قبائلهم لهم حتى أصبحوا عنصرا شاذا . فما بال حاتم الطائي – مثلا – يحدثنا في شعره ، وهو سيد من أسياد طيء عن تحمله الجوع المضني ، فهو يجوع ويجوع ، ويبيت "خميص البطن مضطمر الحشا" ، ويطوي البطن والزاد يشتهى . ولا يرى في الجوع هما . ويذم الصعلوك الذي يعد الجوع "تعذيبا" ، ويشيد بالفتى الذي لا يحزن للجوع ولا يهتم له ، كما مر معنا سابقا من أبيات شعرية لحاتم الطائي ، والذي كرر هذا المعنى في ديوانه . وكذلك خبر قصته في ذبح فرسه لقوم جياع ، فأكل الناس وأصبح هو أشد جوعا .

على ماذا تدلنا تصرفات حاتم الطائي وأمثاله ؟ ولم هذا التفاخر في الشعر الجاهلي بتحمل الجوع ؟ .

من جملة ما قيل في الجوع والجائعين ، وما قيل في التحامل على النفس لترويضها على الجوع ، والتفاخر بالجوع والتمدح بمن يبيت خميص البطن، يمكن أن نرجع ذلك إلى ملاحظتين :

أولا : إن الجوع كثير الدوران على الإنسان الجاهلي الذي يعيش حياة ضنك وشظف عيش وقلة زاد . وهذا الجوع ليس مقتصرا على الفقراء البسطاء من الناس ، ولا على الصعاليك فحسب ، بل ويتعرض له الأسياد أيضا حين تأتي سنة الجدب والجوع والقحط التي تأكل الأخضر واليابس . فثمة أسباب وظروف تدفع هذا الإنسان ليتكيف مع هذه البيئة اليابسة ، نفسيا ومعنويا قبل الوسائل المادية ، فعليه أن يوطن نفسه على الجوع ، ويتعود عليه ، ليصبح عادة ليست بعيدة ولا غريبة ، فالجوع متوقع في أي وقت وأي مكان ، وتحت أي ظرف من الظروف البشرية كالحروب والغارات والثارات ، والعداوات ؛ فإذا كان الإنسان غنيا أشد الغنى ، فإنه يصبح فقيرا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ٣٩٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جائعا في يوم وليلة ؛ عدا عن الظروف الطبيعية كفقر البيئة ذاتها في سني القحط والجدب ، وجدب السماء والأرض والحيوان والنبات .

والإنسان الذي هذه هي بيئتـــه عليه أن يقف وقفة حزم وجد مع النفس فيتحامل عليها ويصبر ، ويروض نفسه على الجوع البسيط والشديد ، سيدا كان أو غير سيد .

ثانيا : إن الجاهلي – كما نعلم – يتفاخر بالكرم والجود ، حتى أصبح هذا الجود شيمة في الجاهليين كما يصرح بذلك عنترة العبسي :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الجُودَ فِي النَّاسِ شِيمَةٌ ... تَقُومُ بِها الأَحْرارُ والطَّبْعُ يَغْلِبُ (١)

ويتمدح ويتفاخر هذا الجاهلي بالقوة والشجاعة ؛ فإذا كان المقاتل يحتاج إلى صفة الشجاعة في القتال والحروب ، فالجائع يكون أشد حاجة لهذه القوة والشجاعة في نفسه ليدفع عنه عدوه اللدود وهو الجوع بالصبر وقوة الإرادة .

وكان الجاهلي يتفاخر بكرمه لضيفه ، ومساعدة المحتاج ، وإطعام الجائع ، حتى أنه كان يطعم الحيوان الجائع ؛ فهذا أسماء بن خارجة يطرق هذا المعنى الذي أولع به بعض الشعراء ، وهو المبالغة في كرم الضيافة التي تجعل من الذئب الجائع ضيفا لهم ، يقرونه ويأتسون به ، وقد وجه الخطاب لهذا الذئب في ثمانية أبيات في فن جميل وصنعة رائعة ، فيصف حاجة الذئب الذي استدر عطفه ودفعه ذلك إلى أن ينحر له أكرم إبله عليه لينال منها ما يطعم هو وعياله ، يقول أسماء من ذلك :

ولوى التَّكَلُّحَ يشْتكي سَغَبَاً ... وأَنا ابنَ قَاتِلِ شِدَّةِ السَّغبِ

ورأيتُ حقَّاً أَنْ أُضَيِّفَهُ ... إذْ رَامَ سَلْمِي واتَّقَى حَرْبي

فَوَقَفْتَ مُعْتَامَاً أُزَاوِلُها ... بِمُهَنَّدٍ ذِي رَوْنَقٍ عَضْبِ

فَعَرَضْتَه في سَاقِ أَسْمَنِهَا ... فَاجْتَازَ بَيْنَ الحَازِ والكَعْبِ

فَتَرَكْتُهَا لِعِيَالِهِ جَزَرا ... عَمْدا وعَلَّقَ رَحْلَها صَحْبِي (٢)

ويتفاخرون بتقديم الهبات والأموال والعطايا المادية والعينية للفقراء والمحتاجين ، ويقدمون لهم كل دعم مادي ؛ أو ليس هؤلاء – والشعراء لسان حالهم – بحاجة إلى المساعدة المعنوية ؟ فيشعر صاحب الجود بشعور المجود عليهم ، ويحس بألمهم ، ويتقرب منهم ، ليصبح واحدا

---

(١) ديوانه ، ص٨٨ .

(٢) الأصمعيات ، ص٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثلهم ، فيجوع لجوعهم ، بل يشبعون هم ويجوع هو من أجلهم ، وهذا قمة الجود والإيثار ، كما كان عروة بن الورد يؤثر غيره على نفسه أيام الشدة والفاقة ، فيقسم قوت جسمه ويكتفي بالماء الخالص غير الممزوج باللبن في الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء إذ يقول :

أقسّم جِسمي في جسومٍ كثيرة وأحسُو قُراحَ الماءِ والماءُ بَاردُ (١)

ولمواساة هؤلاء الجياع وهم كثر ، يشيعون بأن الجوع شيء لا يذكر ، فيقدر كل إنسان على تحمله بل ويصرف التفكير فيه .

وهذا حاتم الطائي يجوع مخافة أن يقال لئيم إذا شبع ، وحياء من ذم الجائعين له ، فهو إذا يخاف الكثيرين ، الذين يشكلون فئة كبيرة من المجتمع . فهم كلهم جياع .. فكيف يجوعون هم ويشبع سيدهم .. إن هذا عار وأي عار ! لذلك نرى حاتما يدافع عن نفسه في شعره .

٢ـ الهزال

لقد عانى الفقراء من الجوع كما عانوا من الهزال ونحول الأجسام والضعف العام . وكان الفقر والجوع السبب الرئيسي في هذا الهزال والضعف . فقد صور الشعراء الجاهليون هذا الهزال في صور مختلفة مؤثرة .

فهذا امرؤ القيس يرثي – في بيتين من الشعر – الحارث بن حبيب السلمي وكان خرج معه إلى الشام ، ينعاه بأنه أبو الأيتام والضعاف الهزلى ، وأنه كان يحميهم ، ويحل مشاكلهم ، ويكرم الضيف ، يقول :

ثَوى عِنْدَ الوَدِيَّةِ جَوْفَ بُصْرَى أَبُو الأَيْتَامِ والكَلُّ العِجَافِ

فَمَنْ يَحْمِي المُضَافَ إذا دَعَاهُ وَيَحْمِلُ خُطَّةَ الأَنَسِ الضِّعَافِ (٢)

وهذا عروة بن الورد في ثلاثة أبيات يرد على من يعيره بشحوب وجهه وهزاله ونحول جسمه :

إنّي امْرُؤٌ عَافِي إنَائِيَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امرُؤٌ عَافِي إنائِكَ وَاحِدُ

أَتَهْزَأُ مِنّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرى بِوَجْهِي شُحُوبَ الحَقِّ والحقُّ جَاهِدُ

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قُراح الماء والماءُ باردُ (٣)

---

(١) ديوان الحماسة ، ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوانه ، ص١٣٠ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٣٠٢/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول أيضا ذاكرا أن سبب ذهاب غناه هو أبو صبية يشكو الفقر والهزال والضعف قد أهزلته السنون وأضعفته :

إذا قلتَ قد جاء الغنى حال دونه أبو صِبية يشكو المفاقِر أعجفُ
لـه خلّـة لا يدخلُ الحقُّ دونها كريمٌ أصابتـه خطـوبٌ تجرّفُ (١)

وقد أكثر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي من وصف ظاهرة نحول الأجسام وما يعتريها من هزال ونحافة شديدة ، فالشنفرى يصف جسمه حين ينام بأنه لا يبلغ الأرض لأن عظامه وفقار ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض ، وأنه حين يتوسد ذراعه إنما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها للحم ، فيقول :

وآلف وجهَ الأرضِ عندَ افتراشِها بأهـدأ تُنبيـه سَنَاسِـنُ قُحَّلُ
وأعْـدِلِ مَنْحُوضَاً كأنَّ فُصُوصَـه كِعَابٌ دَحَاها لاعِبٌ فَهْيَ مَثّلُ (٢)

وهذا أبو خراش الهذلي يصف نحول زميل له في الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف يابس ، فجسمه عظم لا لحم عليه ، كفه يابسة تبرز أعصابها ، وساقاه يابستان لا يرى فيهما إلا العظم فيقول عنه :

سَمْحٌ مِن القَوْمِ عريان أشاجعه خف النّواشـر منـه والظّنابيب (٣)

ويتحدث تأبط شرا عن هزال جسمه في حديث له إلى أحد الذئاب ، فيقول :

كلانا إذا مـا نـالَ شيئا أفَاتَه ومن يحترثْ حَرثي وحرثَكَ يهزَلِ (٤)

ونجد صورة الأرملة شديدة الضر قد أعياها الفقر والجوع المدني من الموت إلى أن تعتمد إذا قامت على يديها لما لحقها من الهزال ، يشير إلى ذلك زرعة بن عمرو ، وقد تفقد أحوال مثل هذه المرأة وأعانها وجعلها من جملة عياله لشدة ضعفها ، فيقول :

---

(١) ديوانه ، ص١٠٧ .

(٢) أعجب العجب للزمخشري ، ص١١٣،١١٥ . والنوادر ، ص٢٠٥ . الأهدأ شديد الثبات يعني جسمه . السناسن : رؤوس فقار الظهر . القحل : الجافة . أعدل : أتوسد . المنحوض : ذراعه اليابسة . الفصوص : المفاصل . دحاها : بسطها .

(٣) ديوان الهذليين ، ١٥٩/٢ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ، ١٣٤/١ . والبيت منسوب لامرئ القيس في ديوانه ، ص٥١ . وشرح المعلقات السبع ، ص٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأرملـــةٍ تنـــوءُ على يديها من الضَّرّاء أو قَصصِ الهُزَالِ
خلطتُ بغثّها سِمَني فأضحتْ شريكـــةَ منْ يُعـــدّ مِن العِيال (١)

ومثل هـــذه المعاني كثيرة في الشعـــر الجاهلي . وقصص الهزال الشديـــد تقض مضـاجع الجاهلي (٢) .

وكان من أسباب الهزال الجوع المضني فهذا تأبط شرا يصف جسمه ببروز أضلاعه من الجوع قائلا :

قليـــلُ ادّخَارِ الزّادِ إلا تَعلّـــةً فَقَدْ نَشَزَ الشَّرْسُوفُ والتَّصَقَ المِعَا (٣)

ونجد أن بعض الشعراء الجاهليين قد تحدثوا عن الهزال والنحول والضعف العام بسبب الجوع والفقر وسوء الأحوال المعيشية (٤) ، إذ كان المهزول لا يتماسك من شدة الإعياء (٥) . وثمة شعراء يشبهون الفقراء الهزلى بالبلية ، التي تموت على قبر صاحبها جوعا وهزالا (٦) .

-٢-

الآثار الاجتماعية

كان الفقير في المجتمع الجاهلي محروما من أسبـــاب الحياة المادية ، فمعاشه ضنك في ضنك ، مقارنة مع الغني ، وكانت أوصاله تتقطع وراء كسب رزقه ، وكان يجوع ويعرى ؛ ومع هذا الحرمان المادي والشقاء المضني في أساليب حياته المعيشية ، نجده محتقرا في نظر الناس ، خصوصا الأغنياء منهم . فشر الناس الفقير يزدرونه لفقره ، وعجزه عن الوصول إلى مراتب

---

(١) ديوان الحماسة ، ٣٤٥/٢ .

(٢) ينظر مثلا في ذلك ديوان أوس ، ص٥٥،٧٠،١٣٠ . وشعر عبدة بن الطبيب ، ص٦٦ . وديوان عروة ، ص٤١ . وبهجة المجالس وأنس المجالس ، ص١٩٩ . وعيون الأخبار ، لابن قتيبة، ١٣٨/١ .

(٣) ديوان الحماسة ، لابي تمام ، ص١٩٠ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص١١٩ . وديوان حاتم ، ص٧٤،٩٣،٨٧،١٠١ . وديوان الحماسة ، ٣٤٣/١ ، ٢٤٣/٢ . والحماسة الشجرية ، ٥٢/١ . والأصمعيات ، ص٤٥ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص٢٩٥ .

(٦) ينظر مثلا شرح ديوان لبيد ، ص٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشرف كالأغنياء ، وهو يحاول ذلك لكن قلة ماله تقعده أي مقعد ، فيقعد وسط القوم لا يتكلم ذلا لفقره وقلة ماله ، بينما الغني له كل الاحترام والاجلال والحمد ، وله الكلمة الأولى والأخيرة وإن كان كثير الذنب ، فماله يشفع له ، ويكسبه حمدا على حمد .

والفقر يورث صاحبه ذما واحتقارا وازدراء وإن كان صاحب همة وشرف واسط العم مخولا . والنساء – بطبيعتهن – يحتقرن الفقراء ، ولم يكن يحببن قليل المال – وكن يضجرن بالفقر – وضنك العيش ، وكان لسلطان الغنى عليهن تأثير ساحر .

فالفقير إذن كان محروما من الأسباب المادية ورغد العيش ، ومحروما من الحب الذي كان أحوج إليه من أي إنسان آخر من الأغنياء ، وكان محروما حتى من الكلام .... ، كل ذلك لفقره وقلة ماله ، ولوجود الضد له وهو الغني ، فلا غرو أن يصبح الغني عدوا للفقير .

لذلك نجد الفقير الذي أحس بحاله المهانة يشعر وكأن السياط الجافة تنهال عليه لفقره وذله وهوانه بين الناس . فنجد من الفقراء من كان يأخذ زاوية أو مكانا بعيدا عن الحي أو القبيلة لإحساسهم بالذل والهوان ؛ ولكن صاحب الهمة ، ومن كانت نفسه عزيزة لا تقبل الضيم ، يستهين بحياته ، فيطوف في البلاد والأمصار ، طلبا للغنى ، وللتخلص من هذا الشر المستطير وهو الفقر ، فقد ينجح في مسعاه أحيانا . وقد يهلك المسكين دون ذلك .

ونرى الشعراء الجاهليين يصورون لنا هوان الفقير على الناس وعلى نفسه ، ويصورون ازدراء الناس للفقراء واحتقارهم ، وبالمقابل يثنون على الأغنياء والغنى ، ويتمدحون بثراء المال ؛ فالمال يفيد مالكه ويجلب له الحمد ، ويسدل الحجاب على عيوبه ، وقلة المال مضرة للمرء ، فتتركه يتألم كتألم من يواليه السوط . فالفقر يضع أهله وإن لم يكونوا كذلك من قبل ، فالفقير يرى الشرف فلا يقدر عليه ، ويقعد وسط القوم ساكنا لا يتكلم من الذل أو من الهم . يقول مالك بن حريم الهمداني مقطوعة شعرية يصور ذلك من بعد خبرته بالأمور واطلاعه على تصاريف الأيام :

أنبئتُ والأيّامُ ذاتُ تَجارب ... وتُبدي لكَ الأيامُ ما لستَ تَعلمُ
بأنّ ثَراءَ المَالِ ينفَعُ ربَّه ... ويُثنَى عليهِ الحمدُ وهو مُذمَّمُ
وأنَّ قليلَ المَالِ للمَرْءِ مُفْسِدٌ ... يَحُزُّ كَمَا حَزَّ القَطِيعُ المحَرَّمُ
يَرى دَرَجَاتِ المَجدِ لا يستَطيعُها ... ويقعُدُ وسْطَ القَوْم لا يتكلَّمُ (١)

---

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٢/٢ . القطيع : السوط . المحرم : الخشن الصلب يكون أشد إيجاعا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفقر مذموم ، وفيه المذلة والهوان . وفي الغنى والمال الشرف والسؤدد وبلوغ المجد (١) .

وهذا عروة بن الورد يقارن بين حال الفقير وحال الغني ، ونظرة الناس لهما ، فالفقير شر الناس ، فالكل ينفر منه . صاحبه ، وزوجته ، وأهله . ولهوانه وذله بين الناس يزجره الصغير وينفر فيه استهزاء وسخرية به ، إنه منبوذ إذن في المجتمع الجاهلي . بينما هؤلاء الذين يحتقرون الفقير يجلون الأغنياء ، ويحترمون ذا المال الوفير ، مع أن ذنب الغني جم وكثير ، ولكن غناه يشفع له ، بينما الفقير لا يشفع له شيء وإن كان ذا حسب وشرف . لهذا يسعى عروة للغنى . يقول :

دعيني للغنى أسْعَى فإني ... رأيتُ الناس شرُّهمُ الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم ... وإنْ أمسى لهُ حَسَب وخِيرُ
ويقصِيه النّدِيّ وتزدريه ... حليلتُه وينهَرُه الصغيرُ
ويُلفى ذو الغنى وله جلالٌ ... يَكَاد فُؤاد صَاحِبِهِ يطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذّنبُ جَمٌّ ... ولكنْ للغنى ربٌّ غفورُ (٢)

ويقول عروة أيضا في شكوى الفقير ، وتنكر الأقرباء له :

إذا المرءُ لمْ يَطْلُبْ مَعَاشا لِنفسه ... شكا الفقرَ أوْ لَام الصّديقَ فأكْثرا
وصارَ عَلى الأدنينَ كَلّا وأوشكتْ ... صِلاتَ ذَوي القُربى له أن تنكرا (٣)

ويصرح عروة أيضا :

المالُ فيه مهابةٌ وتَجلّةٌ ... والفَقْرُ فيهِ مَذَلّةٌ وفُضُوحَ (٤)

ونجد احتقار الناس للفقير لا يكون لشخصه بل لفقره وقلة ماله ، فإذا أصبح غنيا يجله الناس ، يشير الشاعر إلى ذلك في قوله :

أجَلّكَ قَومٌ حينَ صرتَ إلى الغِنى ... وكلُّ غَنِيٍّ في القُلوبِ جَلِيلُ (٥)

---

(١) ينظر "عيون الأخبار" ، لابن قتيبة ، ٢٣٩/١ وما بعدها .

(٢) ديوانه ، ص٩١-٩٢ . والأبيات في الحماسة الشجرية عدا البيت الثاني ، ٤٧٧/١ . و"بهجة المجالس وأنس المجالس ..." ، ٢٠٩/١ مع اختلاف بعض الألفاظ . وعيون الأخبار لابن قتيبة ، ٢٤١/١-٢٤٢ .

(٣) ديوانه ، ص٢٩ . وبهجة المجالس ... ، ١٩٩/١ . الأدنين جمع الأدنى وهو القريب .

الكل : الحمل الثقيل .

(٤) ديوانه ، ص٤٣ .

(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٠٢/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيود كل امرئ أن يكون غنيا كثير المال يجله ويحترمه الناس ، كما يشير طرفة بن العبد إلى ذلك في قوله :

فَلَوْ شَاءَ ربي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ولو شاءَ ربي كنتُ عمروَ بنَ مرثَدِ
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني بنونَ كِرامٌ سادةٌ لمسودِ (١)

وهم يفضلون الغنى على الفقر ، لأن الراحة بالغنى والتعب بالفقر ، فالأغنياء يعيشون في دعة من أمرهم فهم مقيمون لا يتكبدون عناء الإرتحال ومشاقه ، بينما الفقراء في شقاء كبير يسعون ويطوفون في البلاد ، يقول إياس بن القائف :

تَقيمُ الرجالُ الأغنياءُ بأرضِهم ° وَترمِي النَّوى بالْمُقْتِرِينَ المَرامِيَا (٢)

فحياة الغنى أفضل من عيشة الفقر والكد والتعب والشقاء (٣) .

ففي الثراء والغنى الخلود ، وفي الفقر الضيق والهم مثل الموت ، يقول طرفة بن العبد من مقطوعة شعرية :

وتقولُ عاذلتي وليسَ لَها بِغَدٍ ولا مـا بَعْدَهُ عِلْمُ
إن الثَّراءَ هُوَ الخُلودُ وإِ نَّ المَرءَ يُكْرِبُ يَوْمَه العُدْم (٤)

وكان الفقير يعيش في يأس وعذاب ، ودائما يكون صاحب حاجة (٥) ، لا طعام له (٦) يعيش في ذل وهوان كالبعير الأجرب يتحاشاه الناس ويبتعد عنه أقاربه ما دام فقيرا (٧) .

فالغالبية العظمى لا يحبون الفقير الضعيف والكسول (٨) . والعرب تفضل الرجل الكسوب

---

(١) ديوانه ، ص٨١ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص٥٦ . وهذان سيدان من سادات العرب مذكوران بوفور المال ونجابة الأولاد وشرف النسب والحسب .

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢ /٢٩ . والنوى : وجهة القوم التي يقصدونها . المقترون : المقلون . المراميا جمع مرمى وهنا المكان .

(٣) ينظر ديوان الحارث بن حلزة ، ص٢٠ .

(٤) ديوانه ، ص١١٤ . وهذان البيتان منسوبان للمخبل السعدي (مخضرم) في المفضليات ، ص١١٨ .

(٥) ينظر ديوان الأفوه الأودي ، ضمن الطرائف الأدبية ، ص١٧ . وديوان الخنساء ، ص٥٠ .

(٦) ينظر ديوان الأسود ، ص٤١ .

(٧) ينظر ديوان طرفة ، ص٩٢ . وديوان عروة ، ص٤٣ . وديوان الحماسة ، ٢/٣٠ .

(٨) ينظر ديوان الحماسة ، ١/١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغِرّ الطّلُوب ، ويذمون المقيمَ الفَشِل والدّثُورَ الكَسْلان" (١) .

ولشدة وطأة الغني على الفقير فالأول له جلال وهيبة والآخر ذليل مستكين يشعر بالهوان ، كما يشير إلى ذلك سبيع بن الخطيم في قصيدة له بدأها بأسفه لرحلة صاحبته صدوف ، وكيف أثر ذلك في قلبه وجسمه ، وأن خيالها يعاوده في النوم ، مبديا أن من أسباب هذه الرحلة عنف الغني على الفقير :

بَانَتْ صَدُوفُ فَقَلْبُهُ مَخْطُوفُ ... وَنَأَتْ بِجَانِبِهَا عَلَيْكَ صَدُوفُ
واسْتَوْدَعَتْكَ مِنَ الزَّمَانَةِ إنَّها ... مِمَّا تَزُورُكَ نَائِما وَتَطُوفُ
واسْتَبْدَلَتْ غَيْرِي وفارَقَ أهلُها ... إنّ الغَنِيَّ عَلى الفَقِيرِ عَنِيفُ (٢)

وحسان بن ثابت الأنصاري يَجِدُّ في جمع المال من طرق كثيرة ، لأن الفقر عيب وذل ، يعيب أقواما ذوي شرف وحسب ، يقول :

احتالُ لِلْمَالِ إنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ ... ولستُ لِلْعِرْضِ إنْ أَوْدَى بِمُحتَالِ
الفقرُ يُزْرِي بِأَقْوامٍ ذَوِي حَسَبٍ ... وَيَقْتَدِي بِلِئَامِ الأَصْلِ أَنذَالِ (٣)

فما زالوا جادين في طلب المال والحصول عليه ؛ لأنهم علموا أن في الفقر وقلة المال والتضييق في المعيشة الذل والعار ، يقول شاعرهم يصف كريما :

كريمٌ رأى الإقْتَارَ عَاراً فَلَمْ يَزَلْ ... أَخَا طَلَبٍ لِلْمَالِ حتَّى تَمَوَّلا
فَلَمَّا أَفَادَ المَالَ عَادَ بِفَضْلِهِ ... عَلى كُلِّ مَنْ يَرجُو جَدَاهُ مُؤَمِّلا (٤)

فالفقير يعير لفقره وقلة ماله ، لكن أن يكون من جمع المال معيرا أيضا ؟ كما يقول عروة بن الورد :

وَقَدْ عَيَّرُوني المالَ حينَ جمعتُه ... وَقَدْ عيّروني الفقرَ إذ أَنَا مُقْتِرُ (٥)

فأن يعير لفقره فهذا هو الدارج في المجتمع الجاهلي كما رأينا وسنرى من خلال شعر الشعراء الجاهليين ، ولكن إذا عرف الدارس حياة عروة ، وأنه كان صعلوكا ، قد يعذر من عيره بجمعه

---

(١) البخلاء للجاحظ ، ص٢٤٢ .

(٢) المفضليات ، ص٢٧٣ . والأصمعيات ، ص٢٥٩ . يقتدي : يتبع . وضميره يعود على المال سابقا .

(٣) ديوان الحماسة ، ٢٥٣/٢ .

(٤) السابق ، ٣٥٥/٢ .

(٥) ديوانه ، ص٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المال ، لأنه سلك في ذلك دروبا ملتوية ، وسبب المتاعب والشقاء لغيره ، من خلال غزواته وغاراته على أصحاب المال ، والأغنياء تارة ، وعلى تلك القبائل الوادعة الساكنة والأحياء العربية التي تصيب شيئا من النعم والثراء . إذن ألا يكون من عيره بجمعه المال هم الأغنياء لا الفقراء ؟ .

فإذا افتقر الإنسان في قومه ، يعرف فضل الغنى فيحمده ، ولا يحمد قومه لأنهم يحقرونه لافتقاره ، ولأن قلة المال تزري بعقل الإنسان وتشينه ، وإن كان أشرف قومه وأكثر حيلة وأبلغ حذقا من غيره ، ولأن الفقير إذا تمول فكأنه لم يفتقر ، وإذا اكتسى فكأنه لم يعر قط ، لهذا وذاك نجد الفقير عزيز النفس صاحب الهمة يكثر من الأسفار ، والجولان في البلاد ، ويرمي بنفسه في أوائل الليل وصدوره لاكتساب المال ، فيحمي نفسه من الذل ويصون ماء وجهه عن الإراقة حين يسأل الناس . يقول جابر بن الثعلب الطائي يرد على العاذلات اللواتي يلمنه على كثرة أسفاره :

وقَامَ إِلَيَّ العَاذِلاتُ يَلمنَنِي ... يَقُلنَ ألا تنفكَّ ترحلُ مرْحَلا
فإنَّ الفتَى ذا الحَزْمِ رامٍ بنَفْسِهِ ... جَوَاشِنَ هذا الليلِ كيْ يَتَمَوّلا
وَمَنْ يَفْتَقِرْ فِي قومِهِ يَحْمَدِ الغِنى ... وإنْ كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَ العَمِّ مُخْوِلا
وَيُزْرِي بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مَالِهِ ... وإنْ كَانَ أَسْرَى مِنْ رِجَالٍ وَأَحْوَلا
كأَنَّ الفَتَى لَمْ يَعْرَ يَوْما إذا اكتسى ... ولم يكُ صُعلوكا إذا ما تمولا (١)

وكما يشير أوس بن حجر إلى أن صاحب المال ، وإن كان عبدا ، تراه سيدا جحفلا كثير الأتباع يحبه الناس ؛ بينما ترى من لا مال له – وإن كان شريفا خالص النسب كثير الأخوال – يبغضه الناس ويبتعدون عنه .

يقول أوس :

بني أمِّ ذِي المالِ الكثيرِ يرونه ... وإنْ كَان عبداً سيِّدَ الأمرِ جَحْفَلا
وَهُمْ لِمَقِلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ ... وإنْ كَانَ مَحْضاً فِي العُمُومَةِ مخْوِلا (٢)

والفقير ذليل لا يعز بغير مال . والفقر مدعاة للسؤال (٣) . ناهيك عن جهد الفقير وشقائه لفقره وقلة ماله . وقد سئل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن جهد البلاء فقال : قلة المال وكثرة العيال (٤) .

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١/١٠٩-١١٠ . صعلوكا : فقيرا . أحولا : أكثر حيلة .
(٢) ديوانه ، ص٩١ .
(٣) ينظر الحماسة البصرية ، ١/٣١٢ .
(٤) المحاسن والمساوئ ، البيهقي ، ص٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الذين ليسوا بأهل غنى ولا يسر إذا جاوروا قوما نزلوا ناحية كما ينزل الفقير في كنف من الشجر ، لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها ، يغضون أبصارهم حياء من الناس ، وهؤلاء بنو لبنى ليسوا بالأغنياء ، يقول عروة بن الورد في ذلك :

رأيتُ بني لُبنى عَلَيهِمْ غَضَاضَةً بُيُوتُهُمُ وسطَ الحلولِ التكنُّفُ (١)

وإذا استطردنا بالحديث عن ذل الفقر وهوان المعدم الفقير ، فإن نظرة الناس للغنى والفقر في العصر الجاهلي لم تزل كذلك في العصر الإسلامي ، كما يقول يزيد بن الحكم الثقفي الشاعر الإسلامي الأموي يشير إلى أن الغنى سبب الكرامة ، والفقر سبب الذلة ، فيكرم الغني لغناه ويهان الفقير لعدمه وفقره :

والمـــرءُ يُكْـرَمُ للغِنَـى وَيُهَـانُ لِلْعَـدم العَدِيـمُ (٢)

ويقول الشاعر الإسلامي اللص أبو النشناش :

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الفَقْرِ ضَاجَعَه الفتى ولا كَسَـوادِ اللَّيْـلِ أَخْفَـقَ طَالِبُـهْ

فعشْ مُعدِما أو مُتْ كريما فإنني أرى الموتَ لا ينجُو مِنَ المَوْتِ هَارِبُهْ (٣)

وكما نجد بعض الشعراء الإسلاميين من يخاف الفقر على ابنته لما في الفقر من ذل وهوان ... فالابنة تحب أن يعيش لها أبوها ، وهو يود موتها خوفا من أن يراها في الحالة التي فيها الذل والفقر ؛ فالموت للنساء خير لهن من تلك الحال (٤) .

* * *

والنساء – كما نعلم – يحببن ثراء المال ، أكثر من الرجال ، ويكرهن عيشة الرمق وحياة الضنك ، فالمرأة تحث زوجها على طلب المال إذا افتقر ، وتعيره بفقره ، وقلة ماله ، وتهزأ منه عندما يحلو لها الاستهزاء ، ولا تعذره في أي حال من الأحوال . فهذا ذو الخرق الطهوي يذكر ما كان من زوجته حين أقبل الجدب وعز العيش ، فبرمت بحياتها ، وحثته على طلب المال ، فشر العيشة الرمق . يقول :

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص١٠٨ . الحلول : القوم النازلون .

(٢) ديوان الحماسة ، ٢٦/٢ .

(٣) السابق ، ١١٦/١ .

(٤) ينظر شعر اسحاق بن خلف الإسلامي في ديوان الحماسة ، ١٠١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لمَّا رَأَتْ إبلي جـاعَتْ حَلُوبَتُهـا هَزْلَى عِجَافاً عَلَيْهَا الرِّيشُ والورَقُ
قالت : ألا تبتغي مالا تعيشُ به مما تُلاقي ، وشـرُّ العيشـةِ الرَّمَقُ (١)

ويشير امرؤ القيس إلى كره النساء لمن قل ماله وافتقر ، وكذلك من شاب وعجز :

أراهنَّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مَـالُه ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيه وَقَوَّسَا (٢)

وإذا أردت أن تعلم شيئا عن النساء وطبيعتهن وعلاقتهن بالفقير والغني ومن شاب ، فاسأل خبيرا بالنساء بصيرا بأدوائهن ، فلنر إذن ماذا يقول لنا علقمة بن عبدة الفحل التميمي في ذلك :

فـإنْ تسْألونـي بالنّسـاء فإنني بَصِيـرٌ بأدْواءِ النِّسـاءِ طَبِيبُ
إذا شَابَ رأسُ المَرْءِ أو قلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لـهُ مِنْ وُدِّهـنَّ نصيبُ
يُـرِدْنَ ثَرَاءَ المَـالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبابِ عندهُنَّ عجيبُ (٣)

وإذا كانت النساء لا يحببن من قل ماله كما يراهن امرؤ القيس ، كمـا مـر معنـا سـابقا ، فـإن مـن النساء من كن يسخرن ويستهزئن أيما استهزاء من الفقير المملق الـذي لا شـيء لـه ، كمـا تسـخر من الرجل إذا كبر وأصبح هرما هزيلا فقيرا (٤) .

وهذا صـحير بن عمير في أرجوزة له طويلة يحاور امرأة ، لعلها زوجته ، عابت عليه فقره وشيخوخته ، فهي تهزأ منه لفقره كما يزعم صحير في قوله :

تهزأُ منّي أختَ آلِ طيْسَلَه
قَالت أراهُ مُمْلِقاً لا شيءَ لَهْ (٥)

وكانت المرأة تلوم زوجها على فقره وعجزه ، وقلة حيلته ، وذهاب ماله ونعمه (٦) .

---

(١) الأصمعيات ، ص١٣٣-١٣٤ . والرمق : القليل من العيش الـذي يمسك الرمـق وهـو بقيـة العيش .

(٢) ديوان امرئ القيس بن حجر ، ص١١٨ .

(٣) ديوانه ، ص٣٥-٣٦ . والمفضليات ، ص٣٩٢ . ونهاية الأرب ، للنويري ، ٦٦/٣ .

(٤) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص١٩٥ .

(٥) الأصمعيات ، ص٢٧٤ . طيسلة قيل اسم قبيلة وقيل اسم شاعر .

(٦) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص١٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا ما نجد الرجل يشكو من زوجته التي تحب المال حبا جما ، فيشكو طمعها في الثراء والغنى ، ويشكو نشوزها عنه للفقر . حتى أن بعضهم يتهم زوجته بأنه كان لفقره أثر في نشوزها وفراقها عنه ، كما اتهم الجميح الأسدي زوجته بذلك في قصيدة بدأها بالتساؤل عن فراقها :

أَمْسَتْ أُمَامَةُ صَمْتاً ما تُكَلِّمُنَا مجنونةٌ أَمْ أَحَسَّتْ أَهْلَ خَرُّوبِ (١)

فوجد بعض الجواب لهذا التساؤل بأنه كان لفقره أثر على فراقها في البيت الثامن من نفس القصيدة :

لَمَّا رَأَتْ إِبِلي قَلَّتْ حَلُوبَتُها وَكُلُّ عَامٍ عَلَيْهَا عامُ تَجنِيبِ (٢)

ولا نعدم من وجود بعض النساء اللواتي كن يجدن بما في اليد . مثل غنية أم حاتم الطائي التي آلت على نفسها أن لا تمنع سائلا أو جائعا إلا أكرمته (٣) . وكذلك ليلى ابنة مرداس زوجة سالم ابن قحافة العنبري الكريم الجواد ، الذي كان يهب الجمال لسائليه ، وكان يقول لزوجته ليلى : هاتي حبلا يقرن به الجمل ، وما زال هذا دأبه حتى قالت له : لم يبق عندي حبل .. فقال لها : علي الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها ، فأنشد لها أبياتا ينهاها بها أن تعذله عن العطاء ، فأجابته :

حَلَفْتُ يَمِيناً يابْنَ قحفَانَ بالذي تَكَفَّلَ بالأرزاقِ في السَّهْلِ والجبلْ
تزالُ حبالٌ مُحْصَداتٌ أعدّها لهَا ما مشى مِنْها عَلى خُفِّه جَمَلْ
فأعْطِ ولا تَبْخَلْ لِمَنْ جاءَ طَالباً فَعِنْدي لها خُطْمٌ وقدْ زالتِ العِلَلْ (٤)

فالمرأة تحب المال ، فهذا علباء بن أرقم بن عوف في قصيدة له يشكو فيها زوجته وما كان يحيا معها من حياة مضطربة ، فهي ترضى حينا غاية الرضى ، وتشرس أحيانا حتى تظهر شراستها بين جيرانها ، وفي هذه القصيدة ، بعد شكواه من زوجته ، يعتذر للنعمان بن المنذر الذي غضب عليه بعدما ذبح كبشا جعله النعمان حمى ، يقول علباء في زوجته :

ويوماً تريدُ مالَنا مع مالِها فإنْ لمْ نُنِلْهَا لَمْ تُتِمْنَا وَلَمْ تَنَمْ (٥)

---

(١) المفضليات ، ص٣٤ . أهل خروب قومها .

(٢) السابق ، ص٣٥ . التجنيب : أن لا يكون في إبل القوم لبن في تلك السنة .

(٣) ينظر الأغاني (بيروت) ، ٢٨٠/١٧ .

(٤) شاعرات العرب ، ص٦٨ .

(٥) الأصمعيات ، ص١٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعجب المرأة أن يلقى بين يديها المال ، فهي تعانق وتقبل وتفدي من يأتيها به ، كما ينبئنا بذلك أحيحة بن الجلاح في مقطوعة شعرية ، يذكر فيها بأن الشهوات تتطلب بذل المال ، وأن الثراء جدير أن يجهد صاحبه كل الجهد في بذله وحسن اصطناعه : يقول :

إذا ما جِئْتُها قَدْ بِعْتُ عِذْقاً ... تُعانِقُ أَوْ تُقَبِّلُ أو تُفَدِّي
أَهَنْتُ المَالَ في الشَّهواتِ حتى ... أَصارَتْنِي أَسيفاً عَبْدَ عَبْدِ
فَمَنْ نَالَ الغِنَى فَلْيَصْطَنِعْهُ ... صَنِيعَتَهُ وَيَجْهَدْ كُلَّ جَهْدِ
أُعلِّمكُمْ وَقَدْ أَرْدَيْتُ نَفْسِي ... فَمَنْ أَهْدِي سَبِيلَ الرُّشْدِ بَعْدِي (١)

والمرأة لحبها للمال واحتقارها للفقر ، تريد أن تحصل على المال بأي وسيلة متاحة حتى لو قدرت أن تبيع فرس زوجها لفعلت ، فهذا حاجب بن حبيب الأسدي يصور لنا قصة واقعية في قصيدة له من عشرة أبيات ، يصور اعتزازه بفرسه ، ويصور ما كان يدور من الحوار بين الرجل والمرأة في سياسة المال ، فهي تلح عليه أن يبيع فرسه "ثادق" ، وتحتج بأن أثمان الخيل قد علت وأن هذه الفرصة سانحة لبيعه ، وكان ذلك في زمن جدب أصابهم ، فيرد عليها حجتها بأن يبين لها مناقب هذا الفرس ، ينعته وينعت جماله ، وغناءه في الحرب وفي غير الحرب ... يقول فيها (٢) :

بَاتَتْ تَلُومُ عَلى ثَادِقٍ ... لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصْيَانُهَا
أَلا إِنَّ نَجْوَاكِ في ثَادِقٍ ... سَواءٌ عَلَيَّ وَإِعْلَانُهَا
وَقالَتْ أَغِثْنَا بِهِ إِنَّني ... أَرَى الخَيْلَ قَدْ ثَابَ أَثْمانُها

ثم يرد عليها :

فَقُلْتُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّه ... كَرِيمُ المَكَبَّةِ مِبْدَانُها
ثم : وَقُلْتُ : أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّه ... جَمِيلُ الطُّلالَةِ حُسَّانُها

ولا أريد أن أظلم هذه المرأة ، فقد تكون عادلة في مطلبها هذا ، فهم في جدب وأثمان الخيل مرتفعة .

وكثيرا ما نجد في الشعر الجاهلي المرأة تلوم الرجل على إنفاقه المال ، وجوده به ، وتلومه على سخائه وكرمه لأن ذلك يتلف المال في رأيها . ويتصدى لها الرجل يريد إقناعها بفعله هذا بالحجج والبراهين ، ولا أدري إن كانت تقتنع المرأة أو العاذلة بذلك ؟ .

---

(١) الأصمعيات ، ص١٢٧ .

(٢) المفضليات ، ص٣٦٨-٣٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد من النساء من تعلن فراقها لزوجها لجوده وإنفاقه ؟ كما يشير إلى ذلك المرقش الأصغر الذي يتحدث عن مجاهرة زوجته له بالمفارقة والمغاضبة ، في قوله :

آذَنَتْ جَارتي بِوَشْكِ رَحيلٍ ... بَاكِراً جَاهَرَتْ بِخَطْبٍ جَليلِ
أَزْمَعَتْ بِالفِرَاقِ لَمَّا رَأَتْنِي ... أُتْلِفُ المَالَ لا يُذَمُّ دَخِيلي (١)

وكانت المرأة أحيانا تفارق زوجها إذا قل ماله أو قلت إبله . وكانت راضية في عيشها عندما كان زوجها ذا مال وإبل (٢) .

فقصص اللوم والعذل كثيرة في الشعر الجاهلي . مما يدلنا على أن المرأة فعلا ليست راضية عن جود وكرم زوجها . ولكن هل كان سخط المرأة على الجود ذاته ، أم أنها تخاف من شيء آخر؟ .

أقول صراحة ، إن المرأة أو الزوجة تحب أن يكون زوجها أو قريبها غنيا ذا مال وفير ، وهذا ما يبتغيه كل إنسان .

وإذا كانت صفة الجود من أحسن الصفات وأكثرها تبجيلا لدى الجاهليين ، فكان أغلبهم يقدسون الجود والكرم والسخاء والبذل خصوصا إذا اشتد عليهم الزمان والمحل في سنوات الجدب وفقر البيئة . ولا غرو أن نجد أن من مقومات السيادة في العصر الجاهلي كان توفر صفة الجود والكرم والسخاء في المسود (٣) . وبالمقابل نجد أن البخل في الرجل مذموم بشكل عام وفي العصر الجاهلي بشكل أخص فـ "مَنْ يَجُدْ يُحْمَد ومن يَبْخَل يُذَم" (٤) .

فالناس يبجلون الكريم السخي صاحب العطاء الذي لا يرد سائلا (٥) ، ويذمون بل ويحتقرون البخيل ، والبخيل صاحب مال وثراء لكنه لا ينفق من ماله شيئا على الفقراء والمحتاجين فلا يكرم ضيفا ولا يعطي سائلا ولا يعين المضرور . حتى أن بخله يرجع على أهله وعياله .

---

(١) المفضليات ، ص٢٥١ .

(٢) ينظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص١٧٤ .

(٣) ينظر شعر ووصايا في "تاريخ العرب قبل الإسلام" ، الأصمعي ، ص٩١،٩٩،١١٦،١٣٠،١٣٢ .

(٤) ديوان شعر المثقب العبدي ، ص٢٢١ .

(٥) قبل السابق ، ص١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فياترى ، هل المرأة – وهي جزء من الناس والمجتمع – تحب لزوجها أن يكون بخيلا مذموما بين الناس ، ليكون سبة وعارا عليها بعدئذ ، تعير به من قبل جاراتها ونساء حيها !! . أم أنني أراها تختار لزوجها ، حاميها وراعيها ، الوجه الآخر ، ليكون زوجها محل الإعجاب لدى الناس ؟ .

لا شك أن المرأة تحب في زوجها ما يحبه الناس الذين يجمعون على إكبار وحب صفة الجود والسخاء .

إذن لماذا تلوم المرأة الجاهلية زوجها على إتلاف ماله في العطاء والكرم والمساعدة ، وتعذله وتغضب منه ، بل وتوشك أن تفارقه لجوده ؟ .

ولتفسير ذلك – في رأيي أمران – :

أولا) إما أن يكون الشاعر يستوحي تلك العاذلات من خياله ، ليبرز جوده وكرمه وإتلافه للمال ، ويريد المبالغة أحيانا في جوده وكرمه حسب تفاوت شدة اللوم ، فيصور عتابهن ولومهن له على كثرة جوده ، فلا يكون للعاذلات وجود في الحقيقة ، كما هي عادة الشعراء الجاهليين في استيحائهم الصاحبين لمخاطبتهما كما يقول امرؤ القيس (قفا نبك ..) ، وإذا علمنا أيضا أن الشعراء الجاهليين الذين صوروا لنا قصص العاذلات يعذلن على الكرم والجود ، معظمهم كانوا يفتخرون بكرمهم هم أنفسهم ، فاستوحوا من لومهم ليجدوا مسوغا لتفريغ شحنة الفخر بالنفس .

ثانيا) وجود العاذلات على الحقيقة . فإن النساء كما ذكرنا يحببن ثراء المال ، ويحتقرن الفقر ولا يحببن الفقراء ، لذلك فهن يخفن من الفقر أيما خوف . فالفقير يعير لفقره ، والغني يبجل لغناه ، وإذا علمنا بأن هذه النظرة للفقر والغنى غالبة على المجتمع الجاهلي ، فكيف بالنساء ؟ .

نقول إذا إن المرأة تخاف الفقر ، فإن كان زوجها منفقا سخيا ، خافت من زوال هذا المال ، لتعود بعد ذلك فقيرة تعير وتزدرى وتحتقر وتهان هي وزوجها ، وكأنها لم تغن لا هي ولا زوجها من قبل .

فإذا أمسك زوجها يده ولم يعط من ماله ، ليصبح في نظر الناس بخيلا . أصبح أيضا يعير لبخله وإمساك يده ، ويزدرى .

ولكن المرأة تبدي تخوفا أكثر ما يكون ، من الفقر ، هذا الشر المستطير . أكثر من خوفها من مذمة الناس للبخل ، فالإنسان يكبر في السن ويدنو من العجز شيئا فشيئا ، فإذا غني حقبة من الزمن وهو في شدة وقوة في جسمه وعقله وحسن تدبيره – فليس بالضرورة – أن يغنى بعدها في تلك البيئة المتذبذبة بين القحط والخصب ، فالفقر أكثر ما يكون في الكبر والعجز ، وهذا وقت يشتد فيه فقر الإنسان وحاجته إلى معين ، كما يشير إلى ذلك حكيم بن قبيصة الضبي في ابنه بشر الذي تركه في وقت كبره وعجزه :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَعَمْرُ أَبِي بِشْرٍ لَقَدْ خَانَهُ بِشْرٌ على ساعة فيها إلى صَاحِبٍ فَقْرُ (١)

كما أن المروءة مطلبها شديد على الكهل ، كما يقول رجل من بني قريع :

إِذَا المَرْءُ أَعْيَتْهُ المُروءَةُ نَاشِئَاً فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيهِ شَدِيدُ (٢)

* * *

ونجد من يشكو الفقر بسبب الزوجة ، أو المرأة ، في شخصها ، فهي سبب الفقر ، كما يقول الشاعر :

إِذَا سَفَرَتْ كَانَتْ لِعَيْنِكَ سُخْنَةً وَإِنْ بُرْقِعَتْ فَالفَقْرُ في غَايةِ الفَقْرِ (٣)

فإذا كشفت هذه المرأة وجهها جلب إلى العين حرارة تدمع بها وذلك لسماجة الوجه ، فكيف إذا كانت مبرقعة فإنها تكون فقرا ليس وراءه شر منه .

وهذا عبد الله بن أوفى الخزاعي يشير إلى أن تزوجه بامرأته عن كره منه لم ينفع في وجه من الوجوه فما أغنى فقيرا ولا أنال خيرا ولا جمع شملا :

نَكَحْتُ ابنةَ المُنْتَضَىٰ نَكْحَةً عَلى الكُرْهِ ضَرَّتْ وَلَمْ تَنْفَعِ

وَلَمْ تُغْنِ مِنْ فَاقَةٍ مُعْدِماً وَلَمْ تَجْدْ خيْراً ولم تَجْمَعِ (٤)

-٣-

الآثار النفسية

ألا ترى أن الفقر شر خطير ، له آثاره السلبية من الناحية النفسية على الفقراء . فالإحساس بالفقر عند وجود الغنى ، وشعور الفقير بنظرة الاحتقار من قبل المجتمع الذي يعيش فيه لكل من قل ماله أو قلت حلوبته أو للمعدم المسكين الذي لا يجد قوت يومه ، ينشئ لدى الفقير عقدة نفسية سماها الباحثون المحدثون "عقدة الفقر" . "وهي تلك التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا" (٥) .

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٨٩/٢ .

(٢) السابق ، ١٨/٢ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٤١٩/٢ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ، ٢٢٩/٢ .

(٥) نقلا عن "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" ، يوسف خليف ، ص٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه العقـدة هي المحور الذي تدور حوله تلـك الآثـار النفسـية التـي يخلفهـا الفقـر فـي نفس الفقير .

وقد أطلق الدلجي صاحب "الفلاكة والمفلوكين" علـى السياط أو الآثـار النفسـية التـي تصيـب الفقير نتيجة إحساسه بالفقر "الآلام العقلية" .

وقبل أن نشير إلى هذه الآلام العقليـة ، نـورد تعريـف الدلجـي صـاحب الفلاكـة والمفلوكيـن للمفلوك : وهو الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره (١) .

فمن هذه الآفات : انقباض الصدر ، والخفة والطيش عند الغضب . ومنهـا القهر والإكـراه . ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه أخـلاق رديئـة مـن الكـذب والخبـث والخديعـة وفساد الطوية والذل . ومنها الحقد : وذلك أنه إذا استحكمت الفلاكة وعـرف بهـا شـخص أوسـعه الناس إغاظة استهوانا فيه وعدم مبالاة لغضبه وأمنا من غائلتـه ومغبتـه ، فـإذا تـواردت موجبـات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والإغماض عن كمالاته وتقريعه لزلاته وتوبيخـه على تقصيره وهتك أستاره وإذاعة أسراره وجبهه بأقبح الكلام في وجهه وعدم اعتباره والمبالغـة في عتبه ومعاكسته في مراده .. وعجزه عن الوقوف في ذلك موقف نكـير ، ولـم ينفـس غيظـه ، استبحرت أسباب الغيظ وزخرت أمواج العجز عن إطفائه بالانتقام عاد ذلك إلى الباطن وأجج فيـه نارا وتحـول حقدا وضغينـة وسـخيمة ، وتعوقـه موانـع الفلاكـة عـن أعمالـه فيصـير ألمـا صرفـا ووسواسا سوداويا ومعصية مجردة .

ومن هذه الآلام الحسد . ومنها الغيبـة والطعـن فـي أعـراض النـاس والغـض منهـم . ومنهـا اندثار محاسن المفلوك ومقاصده الجميلة لأن الناس لا تسمع منه شيئا ... لذلك تراه أحيانـا ينسـب أعمالا له بارزة لآخـر غير مفلوك يسمع له الناس .

ومنها : أن الفلاكة مهما استولت على عالم أو فاضل أو نبيـه لزمـه بسـببها آلام عقليـة ، ولا شك أن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني ، ولذلك يكون التعـب القلبـي أشـد إنهاكـا للبـدن مـن التعب الجسـماني ، ولذلـك يتحمـل عظيـم المشـاق البدنيـة خوفـا مـن العتـب والتوبيـخ والملامـة والتقريع (٢) .

---

(١) ص٦ .

(٢) الفلاكة والمفلوكون ، ص٢١-٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الآلام العقلية على أهل العقل والفضل والعزم : تشوفهم وتشوقهم إلى المكارم والمعالي .. ولا شك أن الشوق إلى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب ، ولذلك لا يبتهجون بالأعياد والمواسم بل تكون زيادة في كمدهم (١).

وقد استشهد الدلجي بأشعار مثل هؤلاء المفلوكين في تشوقهم إلى المعالي وتألمهم على فقدها في الفصل الثاني عشر (٢) . ومنها تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحيانا بحكم البشرية . وأشد من ذلك ألما وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء .

ومنها ألم الانفراد مع أن الإنسان مدني بالطبع . ومنها الولوع بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من العذاب المذاب ، بشهادة قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "السفر قطعة من العذاب" .

ولقد صرح بتعليل السفر بالفلاكة من قال :

يُقيمُ الرِّجالُ الأَغْنِياءُ بِأَرْضِهم وترمى النّوى بِالمُقْتِرِينَ المَرَامِيًا (٣)

والسبب في كثرة تنقلات المفلوكين في الأرض أنه متى استولت الفلاكة على شخص في بلد واضطرب في أرجائها وتلكع في طرق معاشها وذاق طبائع أهلها ... وارتياحهم إلى المحامد .. فلم يتوفق في هذا البلد .. سافر إلى بلد آخر .. وإن ظل وضعه كما كان .. سافر إلى بلد ثالث وهكذا .. حتى أنه يتمنى زوال الدول لتتغير الأحوال .

ومنها تعلقهم بالأسباب المستحيلة .. والسبب في ذلك أنه إذا أخفقت مساعي المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعي ، ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الأنباء وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذاتها تمنوا الأماني وقنعوا بمخادعة الإملاق أو الفقر بالمواعيد الكاذبة واستنشقوا الغنى من حيث لا تهب ريحه وأتوا السعادة من غير أبوابها (٤) .

ولعل الفقراء في العصر الجاهلي كان معظمهم من المفلوكين المذمومين من مجتمعهم كما عبر عن ذلك الشعر الجاهلي .

---

(١) السابق ، ص٢٧ .

(٢) السابق ، ص١٦٧-١٨١ .

(٣) والبيت في ديوان الحماسة ، ٢٩/٢ ، لـ إياس بن القائف .

(٤) قبل السابق ، ص٢٨-٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى سبيل المثال نرى في أخبار الصعاليك – وهم فئة لا يستهان بها في المجتمع الجاهلي – وأشعارهم شعورا حادا بالفقر وإحساسا مريرا بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الإجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الإجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

وليس من العدل أن يكون لأحدهم عدد كبير من الإبل وآخر لا يملك غير حبل يجرره لا بعير له (١) . فهذا الأخير الفقير لا بد أن تهتز ثقته بنفسه أو بالآخرين إذا ما أحس بنظرة المجتمع للفقير ، وأنه سيصاب في النهاية بالسلبية والشعور بالنقص .

وكيف لا يشعر الفقير بالنقص ونظرة الإزدراء والإحتقار تلاحقه ، فالفقير مهان ، لا يجد الترحيب من الناس كما يجده الغني . وإذا ما افتقر الشخص بعد غنى جفاه الناس ، ولم يجد عندهم ترحيبا ولا احتراما .

فيروى أنه "كان في الجاهلية رجل حسن الحال ، وكان بنو عمه وأخواله يختلفون إليه ، فيعطيهم ويمونهم ويقوم بأمورهم ، ثم اختل أمره ، فأتاهم فحرموه ، فأتى أهله كئيبا ، فقالت له امرأته : ما حالك ؟ فقال : دعيني عنك ، وأنشأ يقول :

دَعِي عَنْكِ عَذْلِي مَا منَ العَذْلِ أَعْجَبُ ولا بُدَّ حالٌ بَعْدَ حالٍ تَقَلَّبُ
وَكانَ بنُو عمِّي يقولونَ مَرْحباً فَلمَّا رَأَوْني مُقْتِراً ماتَ مرْحبُ
كأَنَّ مُقِلاًّ حينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إلى كُلِّ مَنْ يَلْقَى منَ النَّاسِ مذْنِبُ" (٢)

فما هو شعور المذنب بين الناس ؟! .

وعندما يشعر الفقراء بعقدة النقص ، ترى بعضهم يصابون بالسلبية المطلقة ، فيتقوقع الفقير منهم حول نفسه ، فلا يخالط الناس ، لما يشعر به من الذل والهوان . وإذا ما نزل عند قوم يبني لنفسه بيتا بعيدا عنهم ، حياء وخجلا لفقره وعدمه ويأسه من الغنى (٣) .

---

(١) ينظر الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص٣٢،٤٦ .

(٢) المحاسن والمساويء ، البيهقي ، ص٢٧٣ .

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجد من يتمنى الموت لنفسه أولأولاده من بعده (١) خوفا عليهم من الفقر وسلبياته على حياتهم المادية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية . فتراه لا يخشى على نفسه الموت ، ولا يأسف على حياته فقيرا ، بل أظن أنه يتمنى الموت لأنه لا فقر بعد الموت .

كما يقول عامر بن حوط من بني عامر :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَتَأْتِيَنَّ عَشِيَّةً مَا بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ ولا عَدَمْ (٢)

وكيف يأسف الفقير على الموت ، أو يهتم به ، وهو لا يساوي عنزا جرباء عند قومه (٣) ، وهو كالبعير الأجرب يبتعد عنه الناس (٤) ، وكيف يخاف الموت من يلطم وجهه من ابنة مولاه ، فلا يستطيع أن يحرك ساكنا ، أو يعطى فرصة للدفاع عن نفسه ، كل هذا لا لشيء إلا كونه راعيا فقيرا معدما لا يملك من حطام الدنيا شيئا (٥) وفوق هذا كله فالفقير محروم من الحب ، فمن العيب أن يفكر بحب امرأة ويظهر هذا الحب أمام الناس ، وإن فعل فيكون ذلك سخرية واستهزاء به (٦) .

كل هذا كان يخلق عقدا نفسية وآلاما عقلية لدى الفقير . فكان له الحق أن يتمنى الموت أو الخلاص من هذا الوضع المهين .

ونجد فئة من الفقراء الذين أصيبوا بعقدة الفقر وأحسوا بالنقص ، ورأوا في أنفسهم عزة وكرامة وهمة الرجال ، أخذوا يعوضون هذا النقص بأعمال وصفات تخلصهم من عناء الفقر وشروره ، وتأهلهم إلى مراتب الأغنياء .

فطوفوا في البلاد ، وسعوا في مناكب الأرض طلبا للمال والغنى ، واحترف بعضهم الغارات للسلب والنهب (٧) .

---

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ١٠١/١ .

(٢) ينظر السابق ، ٢٤٧/٢ . يريد بالعشية آخر النهار .

(٣) ينظر الأغاني (بيروت) ، ١٤٣/١٤ .

(٤) ديوان الحماسة ، ٣٠/٢ .

(٥) ينظر ديوان الشنفرى ، ص٤٠-٤١ .

(٦) ينظر مثلا ديوان امرئ القيس ، ص١١٨ . وديوان علقمة الفحل ، ص٣٥ . والأصمعيات ، ص٢٧٤.

(٧) ينظر مثلا ديوان بشر ، ص٤٦ . وديوان الأعشى ، ص٩١ . وديوان عروة ، ص١٨٠،١١٥ . والحماسة البصرية ، ١٢٨/١ ، وديوان شعر المثقب العبدي ، ص١٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنجد عزة النفس عند الفقراء ذوي الهمم العالية الذين فضلوا الموت على الحياة الذليلة خوفا من الهوان والمسكنة ومسألة فلان أوعلان وابتعادا عن المنة والتفضل عند غير المفضل (١) لأن الموت الحقيقي أهون على الإنسان من الفقر الموت الأكبر (٢) .

والفقير عندما يرى أحدا من الأغنياء صاحب مال ، يكرم ويجود على الناس من ماله ، بينما هذا الفقير لا يجد قوته أو طعاما لأولاده ، مما يؤدي ذلك إلى إحساس بالنقص لديه ، فيبتغي المال من أي وجه كان من أجل المال نفسه أو من أجل الجود به اقتداء بالكرماء وأصحاب الأموال . فترى بعض المعدمين لا يهمهم اللوم ولا مذمات الناس ، فهم يطوفون في البلاد ، ويسألون الأقوام الأغنياء . لأن الخطوب أخذت الأنبل فالأنبل من أموالهم ، حتى أضحوا فقراء مملقين قد قيد العدم نائلهم .

كما يشير أوس بن حجر إلى ذلك بقوله :

ولما رأيتُ العُدْمَ قيَّدَ نَائِلي وَأَمْلَقَ ما عِنْدِي خُطُوبٌ تَنَبَّلُ

فَقَرَّبْتُ حُرْجُوجاً وَمَجَّدْتُ مَعْشَراً تَخَيَّرْتُهَمْ فِيمَا أُطُوفُ وأَسْأَلُ (٣)

وفي السؤال ذل وهوان "ومن يكثر التسآل لا بد يحرم" (٤) . ويقول ربيعة بن مقروم في ذم خشوع طالب الحاجة وتذلله لمن يسأله إياها :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ تَخَشُّعِ ذِي الحِجَى لِذِي مِنَّةٍ يَزْوَرُّ لِلُّؤْمِ جَانِبَهْ (٥)

فترى صاحب الحاجة يغض بصره حياء من الناس .

وثمة فئة ثالثة من الفقراء رضوا بواقعهم في الفقر والذل والهوان . دون مبالاة ، وقد أصيبوا ببلادة الحس ، وانعدام التفكير بالواقع ، فكانوا لا يفكرون بشيء أكثر من يومهم ، أو بوجبة طعام إن حصلوا عليها فذلك مناهم وأقصى بغيتهم .

وهذه الفئة قد ذمها بعض الشعراء في العصر الجاهلي ، وأخذوا عليهم أسلوب حياتهم الذليل (٦) .

---

(١) ينظر مثلا ديوان عروة ، ص٢٩ .

(٢) ينظر المحاسن والمساوئ ، البيهقي ، ص٢٧٣ .

(٣) ديوانه ، ص٩٤-٩٥ . الحرجوج : الناقة الجسيمة الطويلة وقيل الشديدة الضامرة .

(٤) الحماسة للبحتري ، ص١٢٥ .

(٥) السابق ، ص١٤٩ .

(٦) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص٦٥،١١٢ . ديوان عروة بن الورد ، ص٧٢-٧٣ . ديوان الشنفرى ، ص٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الســـادس

مدافـــع الفقـــر فـــي الشعـــر الجاهلـــي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الســادس

مدافـــع الفقـر في الشعـــر الجاهلـي

-١-

الرحلـــة والطـــواف

اعتمـد معظم العرب في العصر الجـاهلي فـي معيشـتهم علـى التنقل والارتحـال طلباً للكلأ والماء (١) ، فكانوا يقدسون الخصب والمراعي الخضراء ذات الظـلال الوارفـة ، وينعمون في ظل هذا الخصب كما نـرى ذلـك عنـد أهل اليمـن السـعيدة (٢) ، وكـانوا يفتخرون بانتشار الأمن في بعض بلادهم وتأمين السبل للقوافل والتجار ، والمرتحلين والمطوفين (٣) .

وكانت حياة العرب في العصر الجاهلي تقوم على التنقل والارتحـال والطـواف، فـترى قومـا ينزلون تارة في دار ، ومـا يلبثـون أن يشـدوا الرحـال الـى ديـار أخـرى ، فكل دهرهـم فـي حـل وارتحال "أَكُلَّ الدَّهرِ حَلٌّ وارتِحَالُ "(٤) .

وكانت بعض القبائل تهاجر اذا مـا أصابهـا جـدب وقحـط، الـى اماكن يتوافـر فيهـا الخصـب والمراعي . وهذا ماحصل مع خزاعة عندما أصابـها جدب فهاجرت إلى أماكن الخصـب كمصـر والشام (٥) . وهجرة اهل اليمن بعد خراب سد مأرب (٦) .

وهذه الرحلة مقدرة على معظم فئات المجتمع الجاهلي غنيها وفقيرهـا . أمـا بالنسـبة للفقـراء فقد زاد شقاؤهم ، وكثر طوافهم في البلاد ، طلبا للغنـى والـثراء . وهـذا كـان دأب مـن أحس ذل الفقر وهوان قلة المال . يقول عروة :

وَمَا طَالِبُ الحَاجَاتِ مِنْ كُلِّ وُجْهَةٍ ... مِنَ النَّاسِ إلا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا

فَسِرْ فِيْ بِلَادِ اللَّـهِ وَالْتَمِسِ الغِنَى ... تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا (٧)

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ، الأصمعي ، ص٨٢ .

(٢) السابق ، ص٧٩،٨٣ .

(٣) السابق ، ص٤٩ .

(٤) ديوان شعر المثقب العبدي ، ص ١٩٨ .

(٥) الأغاني (بيروت) ، ١٤٦/١٤ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص٩٣ .

(٧) ديوانه ، ص٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكان الفقير ذو الهمة يطوف في البلاد ، ويسلك الوديان والجبال والسهول ابتغاء المال والغنى ، وإن نال مبتغاه كان بها وإلا عذر نفسه ووكل همه للبيئه والظروف . يقول عروة :

فإنّي لَمُسْتَافُ البِلادِ بِسُرْبَةٍ ... فَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا أو مُطَوَّفُ (١)

ويقول في موضع آخر :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيالٍ ومُقْتِرا ... مِنَ المَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (٢)

فكان الفقراء يتغربون عن بلادهم من أجل الغنى (٣) ويكابدون مشقّة السّفر ، ويتعرّضون للأخطار . فهذا الأعشى ميمون بن قيس من قصيدة له يمدح فيها قيس بن معد يكرب الكندي ، يتحدث عن نفسه، فيمضي في الحديث عن ابنة له تخاف عليه مخاطر الطريق في رحلاته التي لا تكاد تنتهي ، وتشكو إليه وحدتها وانفرادها من بعده فيعزيها ويهدئ مخاوفها ، ضارباً لها الأمثال ، مواسياً بالقصص والأخبار . وتقول ابنته له وقد عزم على الرّحيل : أقم ولا تبرح ، فإنّا بخير ما دمت مقيماً ، فإذا أضمرتك البلاد جفانا الناس ، وقطعتنا الأرحام ، فنحن والأيتام سواء . فقال لها : أفي الأسفار تخافين عليّ الموت ؟ وكم ميّت مات في فراشه لم يبرح بلده ، وليست هذه يا ابنتي بأولى رحلاتي ، فقد طفت في سبيل المال افاق الأرض، وابتغيته في كلّ مكان . يقول الأعشى :

وَقَدْ طُفْتُ لِلْمَالِ آفاقَهُ ... عُمَانَ فَحِمْصَ فَأُورِيشَلِمْ

أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ ... وأَرضَ النَّبِيطِ وأَرْضَ العَجَمْ

فَنَجْرَانَ فالسَّرْوَ مِنْ حِمْيَرٍ ... فَأَيَّ مَرامٍ لَهُ لَمْ أَرُمْ

وَمِنْ بَعْدِ ذَاكَ إلى حَضْرَمَوْتَ ... فَأَوْفَيْتُ هَمِّي وَحِينَاً أَهُمْ (٤)

ويقول الأعشى كذلك في ابتغاء المال :

ومازِلْتُ أَبْغِي المَالَ مُذْ أَنَا يَافِعٌ ... وَلِيداً وَكَهْلاً حِينَ شِبْتُ وَأَمْرَدَا (٥)

ولكنّنا نجد البعض يريد أكثر من الغنى الماديّ ، فيطمح إلى الملك أو يموت دون ذلك . يقول امرؤ القيس بن حجر في موضع من شعره :

---

(١) ديوانه ، ص١٠٨ . السربة : جماعة الخيل من عشرين إلى ثلاثين .

(٢) السابق ، ص٤٠ . وينظر في مثل هذا المعنى ديوانه ، ص٤٣ .

(٣) ينظر الحماسة البصرية ١٢٨/١ .

(٤) ديوانه ، ص٩١ . الهم: الهمة والعزم . أوفيت : أتممت .

(٥) السابق ، ص١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَلَـوْ أَنّ مـا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَـةٍ كَفَاني وَلَمْ أَطْلُبْ قَليلٌ مِـنَ المَالِ (١)

ويقول في موضع اخر :

بَكَى صَاحِبي لمّا رأَى الدَّرْبَ دونَهُ وأَيقَـنَ أنّـا لاحقـانِ بِقَيْصَـرا

فقلـتُ لـهُ لاتبْـكِ عَينُـكَ إنّمـا نُحَـاوِلُ مُلْكاً أو نَمُـوتَ فَنُعْـذَرا (٢)

-٢-

الحـــروب والغـــارات

كانت فئة من الجاهليين قد احترفوا أسلوب الغارات والحروب للسلب والنهب لابتغاء المال والنّعم والثّراء. ووجدوا أن خلاصهم من الفقر هو في الغزو والغارات على أهل الغنى والمال وأصحاب الإبل والغنم .

وقد كان "من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام " (٣) لسد الرمق ، والحصول على الزّاد وردّ الجوع المضني .

وتكون الحروب والغارات من أجل الحصول على الأماكن الخصبه (٤) . أو استجلاب المال والغنائم (٥) ، وللتخلص من شدّة الفقر (٦) أو التقرب من الغنى والثراء (٧) .

فكان بشر بن أبي خازم يفتخر بركوب الخيل ودخول المعترك لثراء المال إذ يقول من ذلك :

بِكُلّ كَسِيبَـةٍ لَا عَيْـبَ فِيهـا أَرِدْتُ ثَـراءَ مَالي أو صَلاحِي (٨)

وقد سبق أن تحدّثت عن الحروب والغارات في فصل مظاهر الفقر، وأشرت إلى هذه الحروب والغارات كوسيلة من وسائل دفع الفقر أو التخفيف منه .

---

(١) ديوانه ، ص١٤٥ . وفي "عيون الأخبار" لابن قتيبة ٢٣٥/١ .

(٢) ديوانـه ، ص٦٥-٦٦ . و"بهجـة المجـالس وأنـس المجـالس ٢١٠/١ . ومعجـم الشـعراء للمرزباني ، ص٢٠٠ .

(٣) الاشتقاق ، لابن دريد ، ص ٢٤٦ .

(٤) ينظر مثلاً ديوان أوس بن حجر ص ٥٧ . وديوان بشر ٧٣ . وديوان عامر ، ص٥٦ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص٨٥ .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ٨٣/١ .

(٧) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص١٠٩ .

(٨) ديوانه ، ص٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٣-

الصعلكـــــــة

سبق أن تحدّثنا عن الصعلكة بإسهاب في مظاهر الفقر ، وأن الصعاليك كانوا فقراء معدمين ، فأخذوا يعوّضون فقرهم بالتشرّد في الصحاري المقفرة ، واحتراف اللصوصيّة والغزو للسّلب والنهب .

-٤-

احتـراف المهـــن

مثل الصّيد واشتيار العسل ، وغيرها من المهن . وأكتفي بهذه الإشارة ، لأنه سبق لي أن تحدّثت عن بعض الحرفيين في صورة الفقراء ، وعلى الرغم من الاحتراف فإن أصحاب الحرف ظلوا يشكون الفقر ولو لحين من الزمن .

-٥-

الكـــــرم

تحدّثنا عن الكرم – أيضاً – في مظاهر الفقر بما فيه الكفاية ، وكيف كان الكرماء الأغنياء يعطون الفقراء والمحتاجين ولايبخلون عليهم بشيء . مما أسهم في التّخفيف من حدّة فقرهم وشقائهم . فكان الفقراء يبكون الكريم الجواد إذا مات ، تقول الخنساء في رثاء أخيها :

لِيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أَفْنَى حَرِيبَتَهُ دَهْرٌ وَحَالَفَهُ بَؤْسٌ وَإِقْتَارُ (١)

والكرمُ مِن الوسَائل التي تخفّف من حدّة الفقر والجوع والألم والحرمان . وعلى ذمّة حجيّة بن المضرّب فإن الكرم والعطاء والندى يمكن أن تمسح الفقر عن وجه البسيطة إذا كان في الأرض مثل قوم يعفر بن زرعة الممدوح ، يقول حجيّة من ذلك :

ولو كانَ فِي الأرضِ البسيطةِ مثلُهُمْ لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَا عُرِفَ الفقرُ (٢)

وكان من أخلاقيات بعض الأقوام خلط الفقراء بالأغنياء، حتّى يكسروا بذلك حدّة الشعور بالفقر لدى الفقراء وإمكانية مساعدتهم ، وتخليصهم من الفقر، " ويكون افتقادهم للفقير أكثر مايكون في سنة المحل وفي الشتاء الجديب (٣) .

---

(١) ديوانها ، ص ٥٠ ، حريبته أرادت ماله . البؤس : العذاب والشدة . الإفتقار : الفقر .

(٢) الحماسة البصريه ، ٤٥٧/١ .

(٣) البيان والتبيين ، ٢٣٣/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٦-

الميســـــــر

والميسر مظهر من مظاهر الكرم . وكنت قد أشرت إلى الميسر إشارة سريعة في الكرم كمظهر من مظاهر الفقر . وأودّ أن أفصّل بعض الشّيء في الميسر ، لأهميته في مساعدة الفقراء والمحتاجين خصوصاً في أوقات الجدب والمحل ، وكثرة حديث الشعراء الجاهليين فيه .

" وكانت العرب ، إذا كان الشتاء ونالهم القحط ، وقلّت ألبان الإبل ، استعملوا الميسر، وهي الأزلام وتقامروا عليها ، وضربوا بالقداح ، وكانت قداح الميسر عشرة : سبعة منها لها أنصب، وثلاثة لا أنصب لها (١) .

ووصف اليعقوبي كيفيّة الضّرب بالقداح على الجزور ، عندما يأتي الجزار – بعد أن تشترى الجزور – ويذبحها ، ويقطعها ويقسّمها إلى عشرة أقسام .... وتبدأ عملية القمار أو الضرب بالقداح (٢) .

فلقد كان العرب في العصر الجاهلي يتقامرون بضرب القداح (٣) على الجزر ، يقسمونها على المحتاجين ، وأكثر ما يفعلون ذلك في فصل الشتاء حين الجدب والقحط ، وقلة الأمطار .

وكانوا ييسرون بالإبل ، ويختارون منها السمينة العظيمة الضخمة ، والمسنّة، والعاقر ، والمطفل ، والعشراء .... وغالباً ما ييسرون بهذه الإبل في وقت الشدة ، وفي سنة الجدب والقحط والبرد ، والتي يشح فيها ألبان أنعامهم ، وتقل أرزاقهم ويكثر فيها الفقراء والمحتاجون والجوعى .

فكانوا ييسرون في فصل الشتاء وعند شح السماء وقلّة الماء ، وعند اشتهاء اللحم والشواء ، وعند غلاء أثمان الإبل .

وكانوا ييسرون إذا تقابلت الرياح وهبّت من كل جهة وهذا يكون عند المحل ، وكذلك عند وجود الشفانوالصراد وريح الشمال الباردة ، وإذا ما هبّت رياح الصبا .

---

(١) ينظر في ذلك " تاريخ اليعقوبي " ، ١/٢٥٩ .

(٢) تاريخه ، ١/٢٦٠-٢٦١ . وينظر في الميسر والضرب بالقداح عند العرب وطريقته في المحبّر لابن حبيب ، ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٣) ينظر مثلاً ديوان حاتم ، ص٨٤ . وديوان طرفة ، ص٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك نرى الشعراء الجاهليين يفتخرون بأنفسهم وبقبائلهم بأنهم يشتركون في الميسر في أوقات الجدب وحين انتشار الفقر والجوع ، ويتمدحون بالميسر ويهجون البرم : وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر إذا كان قادراً عليه .

ونرى أن الغرض الأساسي من الميسر هو إطعام الجوعى وإبعاد شبح الجوع قدر الإمكان ، ومساعدة الفقراء والمساكين . وكان الأغنياء يشتركون أحياناً في طعام الميسر لشدة الزمان على الجميع .

وممن يستفيد من طعام الميسر الجار ، والضيف ، والسائل المحتاج وهذا ما صوره لنا الشعر الجاهلي منبثاً في قصائد الفخر والمدح والرثاء غالباً .

فهذا سلامة بن جندل السّعدي يشير- مفتخراً - إلى جوده وجود قبيلته من قصيدة بدأها بأسفه على شبابه ، وكيف أنّ الجار والضيف الغريب والسّائلين يسعدون بهم لكرمهم ، ومساعدتهم إياهم ، وأنّهم يشترون النوق المسنّة بثمن غال ييسرون بها ، إذ يقول :

قدْ يَسْعَدُ الجَارُ والضَّيْفُ الغَرِيبُ بِنا والسّائلونَ وُنَغْلِي مَيْسِرَ النّيبِ (١)

ويقول لبيد بن ربيعة العامري في معلقته مفتخراً بالميسر ، وأنه دعا ندماءه لنحر جزور أصحاب ميسر بأزلام متشابهة الأجسام ، وسهام الميسر يشبه بعضها بعضاً ، ويدعو بالقداح لنحر ناقة عاقر أو مطفل ، تبذل لحومها لجميع الجيران :

وجزورِ أَيْسارٍ دعوتُ لِحتْفِها بِمُغالِقٍ مُتَشَابِهٍ أجسَامُها
أدعُو بِهِنّ لعاقرٍ أوْ مُطْفِلٍ بُذلَتْ لِجيرانِ الجَمِيعِ لَحَامُها (٢)

وإنما ذكر لبيد العاقر لأنها تكون أسمن ، وذكر المطفل لأنها أنفس .

ويكون الميسر في النوق السمينة "في المُنَقّيات" (٣) و "في الزّاهقات" (٤) وفي الإبل التي عليها الأحمال "وفي الحُمُولِ" (٥) وكذلك "وفي التي أبقت سناماً كالغَرِيّ المُجّسَدِ" (٦) وكذلك في

---

(١) المفضليات ، ص١٢٠ . النّيب : جمع ناب وهي المسنّة من النوق . وإغلاؤها شراؤها بثمن غال .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٩٧-٩٨ . والعاقر : التي لا تلد والمطفل : التي معها ولدها .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، ص٩١ .

(٤) ، (٥) ، (٦) من بيت لعوف بن عطية بن الخرع في الاصمعيات ، ص١٩٥ . الغريّ : نصب يذبح عليه النسك . والمجسد : المصبوغ بالجسد وهو الدم الذي يراق على النصب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النوق العشار العظام (١) . فالميسر يكون بالإبل وحدها : فلو صار الجاهليون ييسرون بالخيل ليسر بها علقمة بن عبدة الذي يقول :

لو يَيْسِرُونَ بِخَيْلٍ قَدْ يَسَرْتُ بِها وكلُّ ما يَسَرَ الأَقْوَامَ مَغْرُومُ (٢)

ولكن الخيل لا يقامر عليها في الميسر .

* * *

ويكون الميسر في السنة الشديدة على الناس ، في السَّنَة الشهباء أي البيضاء من الجدب لكثرة الثلج ليس فيها نبات ولا يجد الناس لبناً ، فينحرون الإبل ويياسرون بها . لذلك نرى الشعراء يتمدحون بمن يشترك في الميسر في مثل هذه السنة ، خصوصاً في الشتاء البارد حين يدخل الناس بيوتهم من البرد ، كما يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف وقومهما ، بأنهم يأخذون سمسان الجزر ولا ينحرون إلا غاليه .... ويمنحون أموالهم من يسألهم من المحتاجين في السنة الشهباء كما يقول :

إذا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ ونالَ كِرامَ المالِ في السَّنَةِ الأَكْلُ

رأيتُ ذَوِي الحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِينَاً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْبَلُوا المالَ يَخْبِلوا وإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطوا وإِنْ يَيْسِرُوا يُغلوا (٣)

وكان الجاهليون يعتمدون – غالبا – على غيث السماء ، فإذا ما قلت الأمطار , أصيب الناس بالقحط والمحل والجدب وشاع الفقر بينهم ، فنرى الشعراء يتمدحون بالميسر عند الشتاء وقلة المطر : كما يقول زهير بن أبي سلمى مادحاً :

أيسارُ صِدْقٍ ما عَلمتُهُمُ عِنْدَ الشِّتَاءِ وقِلَّةِ الأَنْواءِ (٤)

وفي الشتاء ترتفع أثمان الجزر ويرتفع نصيب الأيسار فيها ، فنجدهم يفتخرون بمن ييسر في هذا الظرف ، ويشير إلى ذلك طرفة بن العبد مفتخراً بقومه وكيف أنهم ييسرون ، ويدخلون الذي لهم عليه دين في الميسر ويغرمون عنه كما يقول :

---

(١) ينظر الأصمعيات ، ص١٨٤ . وديوان الحماسة ، ٢١٣/١.

(٢) المفضليات ، ص٤٠٣ . مغروم : يقول إذا خرج عليه شيء غرمه .

(٣) شرح شعره ، ص٩٢ . الاختبال : المنيحة.

(٤) شرح شعره ، ص٢٤٧ . واحد الأيسار يسر وهم المقامرون في الجاهلية . الأنواء : الأمطار التي تجيء بالنّوء وهو النجم . يقال مطرنا بنوء كذا وكذا أي بنجم كذا وكذا أي بسقوط ذلك النجم وطلوع غيره . يقال ناء النجم : سقط .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَهُـمُ أيسـارُ لُقْمَـانٍ إذا أَغْلَـتِ الشَتْـوَةُ أَبْـدَاءَ الجُـزُرْ
لا يُلِحُّـونَ عَلـى غَارِمِـهِمْ وَعَلَى الأَيْسَـارِ تَيْسِيـرُ العَسِرْ (١)

ويقول طرفـة بـن العبـد مفتخراً بنفسـه وبقومـه بالميسـر إذا اشتد الشتاء على الناس فأخذوا يقرّبون بيوتهم بعضها من بعض ، ليستكنوا فيها من البرد فيكون رزقهم من المنقيات في الميسـر:

إنّـي مـنَ القَـومِ الذيـنَ إذا أزِمَ الشتَـاءُ ودُوخِلَتْ حُجَرُه
يَوْمـاً ودُونِيَـتِ البيـوتُ لَـهُ فَتَنَـى قُبَيْـلَ ربيعِهِـم قِـرَرُهْ
رفعُـوا المُنِيـحَ وكـانَ رِزْقَهُمُ فـي المُنْقِيَـاتِ يُقِيمُـهُ يَسَـرُهْ
شَرْطَـاً قويمـاً لِيْـسَ يَحْبِسُـه لمَّـا تَتَابَـعَ وِجْهَـةٌ عُسُـرُهْ (٢)

ويشير عنترة العبسي إلى رجل قام بنزاله ، يصفه بأنه سريع اليد ، خفيفها فـي إجالـة القداح في الميسر عند برد الشتاء ، كريم جواد ، يقول فيه :

ربـذٍ يَـداه بالقِـداحِ إذا شَتَـا هتّـاكِ غَاياتِ التّجـارِ مُلَـوّمِ (٣)

وإذا كان العرب في الجاهلية يفتخرون بالوفـاء ، فـإنهم يفتخـرون بالميسـر فـي الشتاء والجدب وعند اشتهـاء اللحم ، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي مفتخراً بنفسه وبقبيلتـه بصفات محمودة منهـا :

فَمِنْهُـنَّ الوَفَـاءُ إذا عَقَدْنَـا وأَيْسَـارٌ إذا حُـبَّ القَتَـارُ (٤)

---

(١) ديوانه . ص٨٨ . أيسار لقمان : قوم كرام ضربهم مثلاً لقومه . الأيسـار : أصحـاب قداح ، الميسر الواحد يسر . أبداء الواحد بدء : النصيب من الجـزور ، أي مـا يذبـح . غـارمهم : الـذي لهم دين عليه . تيسير العسر: أراد ادخاله في الميسر يغرمون عنه .

(٢) ديوانـه ، ص٩١ . أزم : اشـتد . حجـره: غرفـه . ودوخلـت : أي جعلـت واحـدة داخل أخرى ليستكنوا فيها من البرد . دونيت : قرب بعضها من بعض . ثنى : عطف . قرره: الواحدة قرة : البرد . المنيح : قدح مستعار لا يـأخذ صاحبـه شـيئاً . المنقيـات : النـوق السّمينة . يسره : القوم المجتمعون على الميسر . شرطاً قويماً : أي جعلوا ما ذكره في البيت السابق شـرطاً قويماً . يحبسه : يحجبه . عسره : أي الضيق والفقر .

(٣) ديوانه ، ص١٦ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص١٢٧ ، ربذ : سريع . شتا دخل فـي الشتاء . الغاية راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه بها . التجار أراد الخمارين . الملوم : الذي ليم مرة بعد مرة . هذا الرجل كان يشتري كل الخمر .

(٤) المفضليات ، ص٣٤٢ . القتار: ريح الشواء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكون الميسر في فصل الشتاء لإطعام الناس ونفعهم ، إذ كانوا يضربون القداح في هذا الفصل الذي يشيع فيه الفقر والجوع ، فإذا أقبل الصّيف وأخصبت الناس أخذوا يتحدثون في مثالب البخلاء ، يقول مرقش الأكبر مفتخراً بقومه ، وأنهم ييسرون ، وإذا ضربوا بالقداح لم يفحشوا ولم يسفهوا لأنهم لا يريدون بيسرهم نفع أنفسهم ، إنما يطعمونه للناس :

إذا يَسَرُوا لمْ يُورِثِ اليَسْرُ بَيْنَهُمْ ... فواحِشَ يُنْعَى ذِكْرُها بالمَصَايِفِ (١)

* * *

وكان العرب يفخرون بلعب الميسر إذا تقابلت الرياح وهبّت من كل جهة ، كناية عن الجدب ، يصرح بذلك المنّخل اليشكري ، موجهاً خطابه إلى العاذلة ، يريدها أن تفارقه إلى العراق ، وأن لاتنظر إلا حسبه وكرمه ، ويصف لها جوده في زمان الجدب ، ويفخر بالميسر إذا هبت الرياح في الشتاء ، في هذا الوقت يضرب قدحه ويستعيرقدحاً يضرب به في الميسر ، إذ يقول :

إن كُنْتِ عَاذِلَتِي فَسِيرِي ... نحوَ العِراقِ ولا تَحُوري

لاتسألِي عنْ جُلِّ مَا ... لي وانْظُرِي حَسَبِي وَخِيرِي

وإذا الرِّيَاحُ تَكَمَّشَتْ ... بِجَوَانِبِ البَيْتِ الكَبِيرِ

أَلْفَيْتِنِي هَشَّ النَّدى ... بِشَرِيحِ قِدْحِي أو شَجِيرِي (٢)

وإذا كان العرب يمدحون من ييسر عند هبوب الرياح وتقابلها ، فهم يهجون البرم ، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ، فهذا دريد بن الصمة ينفي صفة البرم عن أخيه عبد الله إذا تقابلت الرياح في المهب واشتد هبوبها ، واصفا إياه بالشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم ، فيقول :

---

(١) المفضليات ، ص٢٣٣ . اليسر: المصدر . يسروا : ضربوا بالقداح .

(٢) الاصمعيات ، ص٥٣ . وفي ديوان الحماسة لأبي تمام ١٠٤/١ مع تغيير في بعض الألفاظ ، فمثلا بدلا من تكمشت تناوحت . وبدل الكبير : الكسير في ديوان الحماسة . لا تحوري : لاترجعي . تكمشت أسرعت . تناوحت : تقابلت هبت من ههنا وههنا . الكسير الذي له كسور وهي ما مس الأرض من هداب الخيام وفيها حبال تشد بها . بمري قدحي : بإجالته . الشجير : الغريب . والمعنى : إذا ظهر الجدب تجدني خفيف اليدين بإجالة أقداحي عند حضور الأيسار وأضم ، إليها القدح الغريب المستعار تكثيراً لها واهتزازاً لكثرة الجود .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن يكُ عبـد الله خلَّى مكانَـهَ فما كـانَ وَقَّافـا ولا طَائـشَ اليَـدِ
ولا بَرَمَـاً إذا الرِّيـاحُ تَنَاوَحَـتْ بِرَطْبِ العِضَاهِ والضَّرِيعِ المُعَضَّدِ (١)

ونجد هذا المعنى في شعر زهير بن أبي سلمى حيث ينفي عن هرم بن أبي سنان صفة البرم (٢) وكذلك يفتخرون بالميسر إذا أراحوا الإبل عشاء إلـى الحظـائر مـن شدة البرد ونقصت ألبانهـا ، وهبت رياح باردة ، رياح الشفان والصراد ، ويطعمـون أهل المحلـة ، والجـار والمجتدي ، كمـا يصرح بذلك سنان بن أبي حارثة المري حين يشكو من الكبر وضعف البصـر ، ثم يرتـاح إلـى ذكريات الشباب مفتخرا بالميسر زمان الجدب :

وَقَدْ يَسَرْتُ إذا ما الشَّولُ رَوَّحَهَا بَـرْدُ العَشِـيِّ بِشَفَّـانٍ وَصَـرَّادِ
ثُمَّتَ أَطْعَمْتُ زادِي غَيْرَ مُدَّخِرٍ أَهْلَ المَحَلَّـةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادِ (٣)

وكانوا ييسرون عند هبوب ريح الصبا ، كما يشير عوف بن عطيـة بن الخـرع التيمـي إلـى ذلك مفتخرا بنفسه ، وأنه ييسر بالإبل السمينة عند هبوب ريح الصبا الهوجاء التـي لا تـدوم علـى جهتها في هبوبها والتي تضـرب حظيرة الإبل التي تعمل مـن الشجر لتقيهـا مـن البرد والريـح ، وكل ذلك ردا على التي تسخر منه ومن هزاله لكبره وعلته ، فأجابها عوف بأنه كان في شبابه ذا فتوة يزاول الميسر في كرام الإبل وخيارها ليشيع الخصب والرخـاء فـي جيرانـه وأهل مقامتـه ، يقـول :

فَلَقَـدْ زجرْتُ القِـدحَ إذْ هَبَّتْ صَبَـاً خَرْقَـاءَ تقذِفُ بالحِظَـارِ المُسْنَدِ
في الزَّاهِقَاتِ وفي الحُمُولِ وفي التي أَبقَتْ سَنَامَـاً كالغـرِيِّ المُجْسَـدِ
فَإذا قَمَـرْتُ اللَّحْـمَ لَمْ أَنْظُـر بِـهِ نِيئَـاً كَمَـا هُـوَ مَـاوُهُ شَرْقَ الغَدِ

---

(١) الأصمعيات ، ص١١٣ . خلى مكانه أي مات . الوقاف : المحجم عن القتال . العضـاه : مـا عظم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه ، الواحد عضاهه . الضريع : نبت بالحجـاز لـه شـوك كبـار هـو (الشبرق) . المعضد : يقـال : (عضـد الشجرة) نثـر ورقهـا لإبلـه أو قطـع فروعهـا بالمعضد .

(٢) ينظر شرح شعر زهير ، ص١٢٤ .

(٣) المفضليـات ، ص٣٥-٣٥١ ، وفـي الأصمعيـات ، ص٢٤٣ . الشـول : الإبـل التـي شولـت ألبانهـا أي نقصـت ، واحدتهـا شائلـة . الجـادي : المجتدي الـذي يطلـب الجـدا وهـو العطيـة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَجَـرى بِأعْـراضِ البيـوتِ وأهلِها وإلى المَقَامَةِ ذِي الغِنَى والْمُجْتدِي (١)

* * *

ومن أهداف الميسر وأغراضه إطعام الفقراء ، يشير إلى ذلك علباء بن أرقم مفتخرا بنفسه في قوله :

وإذا العذارى بالدُّخانِ تقنَّعَتْ واسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ القُدورِ فَمَلَّتِ

درّت بأرزاقِ العِيالِ مَغالِـقٌ بِيَدَيَّ مِنْ قَمَـعِ العِشارِ الجلّـةِ (٢)

ومن أغراض الميسر دفع الجوع ، كما يصرح بذلك علقمة بن عبدة في قوله :

وَقَدْ يَسَرْتُ إذا ما الجُوعُ كلَّفه مُعَقَّبَ مِنْ قِدَاحِ النَّبْعِ مقْرومُ (٣)

فالميسر يكون في الوقت الذي يكلف دفع الجوع فيه القداح ليس معول على لبن ولا طعام غير الضرب بها ، وإذا كان الجوع لا يسده إلا الضرب بالقداح .

-٧-

الـــــــوأد

يقول ابن منظور في معنى الوأد : "وأد ابنته يئدها وأدا : دفنها في القبر وهي حية . أنشد ابن الأعرابي :

ما لَقِيَ الموءُودُ مِـنْ ظُلْمِ أُمِّـهِ كَمَا لَقِيَتْ ذُهْلٌ جَمِيعاً وَعَامِـرُ

---

(١) الأصمعيات ، ص١٩٥-١٩٦ . زجرت القدح : كانوا يضربون بقداح الميسر فيصيحون بها ويزجرونها إذا ضربوا كما يفعل المقامرون بالنرد . والصباريح مهبها من الشرق . الزاهقات : الإبل السمينة . الحمول التي عليها الأحمال . الغري : نصب يذبح عليه النسك . المجسد : المصبوغ بالجسد وهو الدم الذي يراق على النصب . قمرت اللحم يريد كسبته . لم أنظر به : لم أؤخره . نيئا حال من الضمير في "به" . شرق الغد : يقال للشمس "شرق" أراد أنه يطعم اللحم غضا رطيبا لا يؤخره إلى الغد . أعراض البيوت : نواحيها يريد أنه يعم بهذا اللحم بيوت المحلة ونحوها . المقامة : الجماعة يجتمعون في مجلس .

(٢) الأصمعيات ، ص١٨٣-١٨٤ . والبيتان في ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١٣/١ . منسوبة . والمغالق جمع مغلق وهو سهم الميسر . والقمع جمع قمعة وهي أعلى السنام من الإبل . العشار جمع عشراء التي عليها من حملها عشرة أشهر . ومعنى البيت الثاني : إذا كانت الحال كما ذكر في البيت السابق أديرت القداح لينال ذوو الحاجات من أعلى سنام النوق العظام .

(٣) المفضليات ، ص٤٠٣ . معقب : يعني قِدحاً قد شد بالعقب علامة ، والعقب العصب . النبع شجر تتخذ منه القسي والقداح . مقروم : معضوض ليكون علامة له .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أراد من ظلم أمه إياه بالوأد ... ، وكان الرجل في الجاهلية إذا ما ولدت له بنت دفنها حية . تضعها والدتها حية مخافة العار والحاجة فأنزل الله تعالى "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" (١) .

ومنهم من كان يئد البنين عند المجاعة ، وكانت كندة تئد البنات ؛ وقال الفرزدق يعني جده صعصعة بن ناجية (٢) :

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الوائداتِ وأَحْيَا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ (٣)

فكان العرب في العصر الجاهلي بوجه عام يكرهون المولود أن يكون أنثى ، وكانوا يعزون الذكور أكثر من الإناث في مجتمع يقوم على الصيد والغزو والحروب ، لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى (٤) ولأنهن لا يساهمن اقتصاديا (٥) ، ولأن البنت ليست عنصرا مقاتلا ، والخشية عليها من السبي ، والفقر والحاجة . وإمكانية انتهاك حرمتها مما يسبب العار لأهلها (٦) .

وقد أشار الله تعالى إلى كراهيتهم للبنات في قوله تعالى : "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون" (٧).

وعادة الوأد كانت شائعة لدى العرب عامة ولكنها اختفت قبيل الإسلام إلا في تميم (٨) . وأكثر انتشار عادة الوأد في العصر الجاهلي كان في قبائل معينة كربيعة وكندة وتميم وقيس وهذيل وبكر وقريش ومضر وخزاعة وأفراد متفرقين مغمورين (٩) .

والأخبار والروايات وأبحاث الباحثين ذهبت مذاهب كثيرة في بيان سبب الوأد .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٣١ .

(٢) لسان العرب مادة "وأد" .

(٣) الأغاني (دار الثقافة بيروت) ، ٣٠٥/٢١ .

(٤) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص٢٢٤ .

(٥) ينظر السابق ، ص٢٢٧ .

(٦) قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص٣٥٢ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية ٥٨-٥٩ .

(٨) ينظر بلوغ الأرب ، للألوسي ، ٤٢/٣ .

(٩) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص٢٢٨ . وتاريخ العرب في عصر الجاهلية ، السيد عبد العزيز سالم ، ص٣٩٧ . وقضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص٣٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمنهم من أرجع الوأد إلى خوفهم من العار (١) . ومنهم من أرجعه إلى خوفهم من الأسر ، وما يتبع الأسر والسبي من العار . "فالسبي كان يعد سبة ما بعدها سبة" (٢) . ولأن النساء كانت تؤسر أكثر من الرجال ، وذلك لأنهن أضعف منهم في الدفاع عن أنفسهن ، وكثيرا ما يكون أمر الدفاع عنهن عبئا ثقيلا على الرجال ، ولم يكن الآسر يطلق سراح الأسيرة في كل حين ، فربما لا يكون عند أهلها المال الكافي لافتدائها به ، كما قد يعجزون عن استردادها بالقوة ، لهذا كانت الأسيرات ، إذا أراد الآسر ، ترسل إلى أسواق النخاسين في المدن التجارية ، مثل مكة والمدينة وخيبر ... لتباع رقيقا (٣) لذلك نرى خوف المجتمع الجاهلي من السبي وأسر نسائهم في الحروب والغارات ، ونرى ذلك واضحا في شعرهم .

ومن الباحثين من أرجع سبب الوأد إلى اعتقاد ديني ، فكانوا يقدمون بناتهم قربانا للآلهة اقتداء ببعض الأمم الأخرى (٤) "وأما الوأد الذي كانت تفعله قريش وكثير غيرها من العرب فإنه من قبيل العبادات الوثنية في تقريب الأنثى" (٥) .

ومن الباحثين من أرجع الوأد إلى عوامل اجتماعية ، ومنها ما يتعلق بالصحة كمقتل من يولد ضعيفا ، أو مريضا ، أو مصابا بعاهة جسيمة مستديمة بحيث يكون عالة كبيرة مدى حياته . والبنات والأولاد سواء في قتل ذوي العاهات (٦) .

ومن الباحثين من أرجع الوأد إلى أكثر من سبب ، فيشير محمد أحمد الحوفي إلى أن ذلك يعود إلى غيرة العربي على العرض ، وخوفا من العار ، وخشية الانفاق وخوف الفقر (٧) .

وشوقي ضيف يرجع سبب الوأد إلى خشية العربي من الفقر أو السبي "فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك أجلاف قساة القلوب ، كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبي . إذ كان سباؤهن كثيرا في الجاهلية" (٨) .

---

(١) الأغاني (بيروت) ، ٦٦/١٤ . والكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ٢٨٩/١ .

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص٧٥ .

(٣) الأمومة عند العرب ، ويلكن ، ص٥٠ .

(٤) مركز المرأة في الإسلام ، السيد أمير علي ، ص٤٥ .

(٥) عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، سعيد الأيوبي ، ص٣٩٥ .

(٦) الأمومة عند العرب ، ويلكن ، ص٥٠ .

(٧) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص٢٢٥ .

(٨) العصر الجاهلي ، ص٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعتقد سعيد الأيوبي أن الـوأد كانت أسبابه في البداية دينية وثنية بالدرجة الأولى ، فقيس بن عاصم التميمي وأد ثماني بنات في الجاهلية ضحى بهن تقربا للآلهة ، إذ لا يصح في الأذهان أن يكون فعل ذلك خوف الفقر وهو ذو مال وافر وسيد قومه وبعدما تأصلت هذه العادة الوثنية في نفوس الجاهليين ، امتزجت عندهم بأسباب أخرى اقتصادية واجتماعية . فكانوا إذا أجدبوا وانعدمت فرص العيش أو انقفلت سبل الحياة في وجوههم ، أو قامت بينهم الحروب وجدوا أن لا ملجأ من الفقر والعار إلا إلى الوأد ، تستحثهم في ذلك عبادات وثنية ورغبة في التقرب من الآلهة ، حتى تفرج كربهم ، ويعود إليهم أمنهم وعيشهم ، ولم يكن كل ذلك بمعزل عن خوف الفقر والعار أيضا (١) .

ويقول سعيد الأيوبي "وهذا الوأد كان يشمل الذكور والإناث إلا أن ظروف حياتهم ومعيشتهم في الصحراء جعلتهم يتحايلون على استبقاء الذكر بتقديم الفدية ، فحينما عاب الله ذلك عليهم ، استعمل لفظ "أولادكم" وهو يدخل فيه الذكور والإناث" (٢) ، وذلك في قوله تعالى : "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق " (٣) ، وفي قوله تعالى : "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم" (٤) .

ومن الباحثين من جعل سبب الوأد العامل الاقتصادي . والفقر والحاجة في أكثر الأحوال وهذا ما يراه علي الهاشمي (٥) ، وأخذ برأيه السيد عبد العزيز سالم (٦) .

---

(١) ينظر عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، ص٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) السابق ، ص٣٩٧ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، آية ٣١ . وشرح الزمخشري لها : "قتلهم أولادهم : وأدهم بناتهم ، كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق .. الكشاف ، ٤٤٨/٢ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة الأنعام ، آية ١٣٧ . وشرح الزمخشري لها : "أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم للآلهة . وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلام لينحرن أحدهم ، كما فعل عبد المطلب" ؛ الكشاف ، ٥٣/٢ . وهذا ما يؤيد أن قتل الجاهليين لأولادهم بناتهم وأبنائهم كان اعتقادا دينيا .

(٥) في كتابه : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص٢٠٣ .

(٦) في كتابه : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص٣٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفسر علي الهاشمي رأيه في أن السبب الرئيس والأقوى للوأد هو الحاجة والفقر وسوء الأحوال الاقتصادية في بلاد العرب في العصر الجاهلي بقوله : "كانت بلاد العرب قليلة الزراعة ، تعتمد في كثير من غذائها على البلاد المجاورة ، وكثيرا ما انتابتها المجاعات ، والقحط ، واضطرت قبائلها إلى الهجرة . وكانت أحيانا تقوم بعض الموانع على الهجرة . وفي هذه الحالة كانت قبائلها تسعى لتجد لها مخرجا بإنقاص الاستهلاك فتأخذ بأبسط الوسائل ، كقتل الأطفال أو بيعهم" (١) .

وعلى الرغ من اختلاف الآراء في أسباب الوأد ، والتي لها ما يؤيدها في كتب التاريخ والأدب ، إلا أن أكثر الدوافع لدى العرب في العصر الجاهلي للوأد كان ناتجا عن فقرهم أو خشيتهم منه .

وخير ما يؤيدنا في هذا الرأي القرآن الكريم . فيقول الله تعالى من سورة الأنعام : "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" (٢) . ويقول تعالى من سورة الإسراء : "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا" (٣) .

وجاء في شرح الزمخشري للآية الأولى "من إملاق" من أجل فقر ومن خشيته ، كقوله تعالى : "خشية إملاق" (٤) ومن شرحه للآية الثانية "قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق ، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم" (٥) .

وما يؤيدنا أيضا في أن الفقر والحاجة كانت الدافع الرئيس للوأد ، أنه روي عن صعصعة جد الفرزدق ، وكان يكره الوأد ، أنه سعى لمنع الوأد بشراء الموؤودة ، وقد افتدى على ما ذهبت إليه الروايات ستا وتسعين موؤودة في الجاهلية حتى ظهور الإسلام ، كان فداء كل موؤودة بعيرا وناقتين عشراوين (٦) . وروى المبرد أن صعصعة افتدى مائتين وثمانين وليدة (٧) ، وقيل أنه افتدى ثلاثمائة وستين موؤودة (٨) وافتخر الفرزدق بجده صعصعة قائلا :

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي ، ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) آية ١٥١ .

(٣) آية ٣١ .

(٤) الكشاف ، ٢/٧٠ .

(٥) السابق ، ٢/٤٤٧ .

(٦) الأغاني (بيروت) ، ٢١/٣٠٢،٣٠٤ .

(٧) الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ١/٢٨٩ .

(٨) الأغاني (بيروت) ، ٢١/٣٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنّا الّذي مَنَعَ الوائِداتِ ... وأَحْيَا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ (١)

وكما افتخر قائلا :

أَجَارَ بَنَاتِ الوائديـنَ ومَنْ يُجِرْ ... عَلى الفَقْرِ يَعْلَمْ أَنَّهُ غَيرُ مُخْفِرِ
على حينَ لا تَحْيا البَنَاتُ وَإِذْ هُمُ ... عُكُوفٌ عَلى الأَصْنَامِ حَوْلَ المُدَوَّرِ
أَنَا ابْنُ الّذِي رَدَّ المَنِيَّةَ فَضْلُهُ ... فَمَا حَسَبٌ دَافَعْتُ عَنْهُ بِمُعْوِرِ
وَفَارِقِ لَيْلٍ مِنْ نِسَاءٍ أَتَتْ أَبِي ... تُعَالِجُ رِيحاً لَيْلُهَا غَيْرُ مُقْمِرِ
فَقَالتْ أَجِرْ لِي مَا وَلَدْتُ فَإِنَّنِي ... أَتَيْتُكَ مِنْ هَزْلَى الحَمُولَةِ مُقْتِرِ
رأى الأرضَ منْها راحةً فرمى بها ... إلى خُدَدٍ مِنْهَا وفي شَرِّ مَحْفِرِ
فقالَ لَهَا فِيئِي فإنّي بذِمَّتِي ... لِبِنْتِكِ جَارٌ مِنْ أَبِيهَا القَنَوَّرِ (٢)

وكذلك كان زيد بن عمرو بن نفيل يحيي الموؤودات فيكفي آباءهن مؤونتهن إذا كانوا فقراء (٣) .

– ٨ –

الصبر وقوة الإرادة

كان ثمة من يتعرض للفقر الشديد خصوصا زمن الجدب ، فليس أمامه من وسائل لدفع هذا الفقر إلا الصبر والتحمل ، حتى تتكشف الغمة ، ويذهب الجدب ، ويعم الخصب .

يقول ذو الخرق الطهوي مخاطبا زوجته التي برمت بحياتها ، وحثت زوجها على طلب المال ، فخفض من جأشها وأرادها أن تصبر كما صبر ، يقول من ذلك :

---

(١) السابق ، ص٣٠٥ . وكذلك في "المحبر" ، لابن حبيب ، ص١٤١ .

(٢) ديوانه ، ص٣٧٩–٣٨٠ . الأغاني (بيروت) ، ٣٠٢/٢١–٣٠٣ . المدور يعني الدوار وهو طوافهم حول الصنم . وقيل الدوار : صنم كان يعبد في الجاهلية . المعور : المعيب ، من العار . الفارق : الإبل التي يأتيها المخاض فتفارق غيرها من الإبل وتمضي على وجهها لما يصيبها من الجهد حتى تضع . شبه بها المرأة لانفرادها . هزلى الحمولة : أي إليه هزلى . المقتر : المضيق عليها . وأرادت به زوجها . الخدد : القبر المحفور ، أي رمى ابنته في حفرة ليدفنها حية . القنوّر : الضيّق الصدر الشرس الصعب .

(٣) "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ، لابن حجر العسقلاني ، ١٤٣/٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيئي إليكِ فإنّا معْشَرٌ صُبُرٌ في الجَدْبِ لا خِفَّةً فِينَا ولَا نَزَقُ
إنَّا إذا حَطْمَةٌ حَتَّتْ لَنَا وَرَقاً نُمَارِسُ العُودَ حَتَّى يُنْبِتَ الوَرَقُ (١)

فطبيعة حياة الجاهليين القبلية بتصارعها الدائم وخطرها الماثل في صحرائهم القاسية قد ربت فيهم خلال الصبر والجلد والشجاعة ..." (٢) .

---

(١) الأصمعيات ، ص١٣٤ . وخزانة الأدب ، ٤٣/١ . والمؤتلف والمختلف للآمدي ، ص١٥٦ . فيئي إليك : ارجعي إلى نفسك . الحطمة بفتح الحاء وضمها : السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء . حت الورق : قشره . نمارس : الممارسة شدة العلاج .

(٢) ينظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، محمد التويهي ، ٢٤٥/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل السابـــع

أخلاقيـــــات ومواســـــاة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السابع
أخلاقيات ومواساة

لقد اتصف بعض الفقراء في العصر الجاهلي بصفات محمودة ونخلقوا بأخلاق حميدة رغم فقرهم وعوزهم وعيشهم في البؤس والحرمان ، فحافظوا على صفات كان يبجلها الانسان الجاهلي ويكبرها ، كالكرم والعفة والأمانة والوفاء وعدم الغدر والشعور بالعزة والأنفة ، والقوة والشجاعة والصبر ، فكانوا أغنياء في نفوسهم ورجاحة عقولهم . وكانت هذه الصفات من غنى النفس التي زادها القناعة ، والقناعة زاد لايفنى وغنىً لا ينفذ .

وكان عزاء الفقراء في كثير من الأحيان في شقائهم وتعاستهم هو تساوي الغني والفقير أمام الموت والفناء. كما كان عزاء لبعض الأغنياء عندما يجودون على الفقراء والمحتاجين ، فلا يحسبون للمال حساباً أمام سخائهم وحسن معاشرتهم للمعدمين والمساكين ، لأن المرء لاينفعه ماله ولا ثراؤه عند الموت وما بعده .

-أ-
أخلاقيات فقراء

١- على الرغم من فقر بعض الناس وقلة مالهم وحرمانهم ، فإنهم أغنياء في نفوسهم ، فغنى النفس عند بعضهم أهم من غنى المال ، وفقر النفس هو الفقر الحقيقي لا فقر المال ، ونجد هذه النظرة لغنى النفس وفقرها في شعر قيس بن الخطيم ، يقول :

غَنِيَّ النَّفْسِ ماستَغْنَى غِنيٌّ ... وفَقْرُ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ شَقَاءُ (١)

ويقول أحيحة بن الجلاح :

واسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ ... إِنَّ الغَنِيَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ (٢)

لذا نجد من لايخشع إذا افتقر وحزن ولا يطغى إذا استغنى وفرح ، يقول لبيد بن ربيعة:

فَلا أَنا يَأْتِيني طَرِيفٌ بِفَرْحَةٍ ... وَلا أَنا مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَازِعُ (٣)

ويقول النابغة الذبياني :

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص١٥٨ .

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ... ، ٢١٣/١ .

(٣) حماسة البحتري ، ص١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلا يَحْسِبُونَ الخَيْرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ وَلا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ (١)

٢- الكرم

وكان بعضهم يظل كريماً إذا افتقر (٢) ، جواداً إذا استغنى، ونرى بعض الشعراء يفتخرون ويتمدحون بأقوام بأنهم كرماء في فقرهم وغناهم , كما يقول طرفة بن العبد مادحاً بني المنذر بن عمرو :

سُمَحَاءُ الفَقْرِ أجوادُ الغِنَى سادةُ الشِّيبِ مَخَارِيقُ المُرْدِ (٣)

وهذا دريد بن الصمة يقول في رثاء أخيه عبد الله :

وإنْ مَسَّهُ الإقْواءُ والجهدُ زَادَهُ سَمَاحاً وإتلافاً لما كان في اليد (٤)

وهذا علباء بن أرقم يرد على امرأته تماضر التي لامته على استهلاكه المال وتعريضه النفس للمصاعب ، وأخذ يتمدح بكرمه وفروسيته ، وأنه كان ملجأ العشيرة زمن الفقر والجدب ... فهو كريم في يسره وفقره يقول من ذلك :

تربتْ يداكِ وهلْ رأيتِ لقومهِ مِثْلي على يُسْرِي وحينَ تَعِلَّتي (٥)

٣- العفة

ونجد صفة العفة عند بعض الفقراء ، فإذا افتقر أحد منهم يظل عفيفاً نقياً طاهراً من الرذائل التي تكون ممقوتة في نظر الجاهليين غالباً .

يقول حاتم الطائي في قصيدة له قالها لما تحول عنه جده سعد بن الحشرج فخرج بأهله وخلف حاتماً في داره إذ يقول مفتخراً بنفسه :

وإنِّي لَعَفُّ الفَقْرِ مشتَرَكُ الغِنَى وَوَدَّكِ شَكْلٌ لا يوافِقُهُ شَكْلِي (٦)

---

(١) السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ينظر ديوان عروة ، ص٧٥ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ،ص ٦٨ . سمحاء : كرماء الواحد سمح ... المخاريق الواحد مخراق المتوسع في الكرم .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٣٩/١ . الاقواء الفقر . والسماح والسماحة : الجود والكرم .

(٥) الأصمعيات ص١٨٣ . والتعلة من عللت كأنه أراد حين افتقر واحتاج إلى العلل أي الحجج أو إلى أن أعلل نفسي كما يعلل العليل .

(٦) ديوانه ، ص١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلِلْفَتَـــى غَائـــلٌ يَغُولُـهُ يا ابنَةَ عَجْلَانَ مِنْ وَقْعِ الحُتُومْ (٣)

وكما يشير حاتم إلى مثل تلك المعاني في ديوانه ، فيقول في موضع منه :

أماويَّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الفتى إذا حَشْرَجَتْ نَفْسٌ وضاقَ بِها الصَّدرُ(١)

وكما يقول :

إذا أنتَ أُعطيتَ الغِنى ثمّ لمْ تَجُدْ بِفَضْلِ الغنى أُلفِيتَ مَالَكَ حَامِدُ

وماذا يُعدّي المالُ عنكَ وجمعُـهُ إذا كان ميراثـاً ووارثكَ لاحِدُ (٢)

ونرى بعض الشعراء الجاهليين تحدثوا عن الفقر والغنى في شعرهم ، وتعاقب اليسر والعسر ، وكذا المسرة والمساءة .

يقول عدي بن زيد العبادي :

ألم تعلموا للخيرِ والشّرّ مَوْرَةً تناقلُها الأيامُ عُوجاً رَوَاجِعا (٣)

ويقول قيس بن الخطيم في تغير الأحوال في الغنى والفقر :

ألمْ تَرَ أَحْوالَ الزّمانِ وريبَهَا وكيفَ عَلى هذا الوَرَى يَتنقّلُ (٤)

ويقول أيضاً :

وكائنْ رَأَينَا مِنْ أُناسٍ ذَوِي غِنىً وَجِدَّةِ عيشٍ أصبحوا قد تبدّلوا (٥)

ولا نعدم من يعزو الغنى والفقر إلى الحظ . كما يقول قيس بن الخطيم :

فلا يُعطى الحريصُ غِنَى لِحِرْصٍ وَقَدْ يَنْمِي لِذي العَجْزِ الثَّراءُ (١)

ويقول آخر ، وهو رجل من قريع :

متَى مَا يَرَى النَّـاس الغنيَّ وجارُه فقيرٌ يَقُولوا عاجـزٌ وجليدُ

---

(١) المفضليات ، ص٢٤٩ . الشقة السفر البعيد . يغوله : يذهب به . الحتوم جمع حتم وهو القضاء .

(٢) ديوانه ، ص٨٣ .

(٣) ديوانه ، ص٧٢ .

(٤) الحماسة للبحتري ، ص١٢٣ .

(٥) السابق ، ص١٢٢ .

(٦) ديوانه ، ص١٣٩ .

(٧) ديوانه ، ص١٥٧ . وفي حماسة البحتري ، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولَيس الغِنَى والفَقْرُ مِنْ حِيلةِ الفَتَى ولكنْ أَحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ (١)

ويقول الحارث بن حلزة اليشكري :

ولقَـدْ رأيْتُ مَعَاشِـراً قَـدْ ثَمَّـرُوا مالاً وَوُلْـدَا
وهُـمُ ذبـابٌ جائـرٌ لايُسْمِـعُ الآذانَ رَعْـدَا
فانْعَمْ بِجِـدِّكَ لايَضُـرْ كَ النَّوْكُ إنْ أُعْطِيتَ جَدَّا (٢)

ونرى علقمة الفحل يصرح بأن من كتب له رزق وغنم أطعمه أينما توجه ، ومن كتب له الحرمان وقدر عليه حرم ، فكأنه يريد أن يقول ، فمن رزقه الله فهو مرزوق ، ولا مانع له، ومن حرمه الله فهو محروم ولا رزق له . يقول علقمة :

وَمَطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ أَنَّى تَوَجَّه والمَحْرُومُ مَحْرُومُ (٣)

فعلقمة الشاعر الجاهلي في هذا البيت يصل إلى اليأس الذي يقوده إلى السلبية المطلقة ، لذلك نراه يقبل على شرب الخمر كما يشير إلى هذا في الأبيات التي تتلو هذا البيت من قصيدته . وتجده كذلك في موضع آخر من شعره يلعن الدهر الذي يبدد الأموال ويسود " أشباه الإماء العوارك " . يقول علقمة :

لَحَى اللّهُ دَهْرَاً ذَعْذَعَ المالَ كُلَّهُ وسوَّدَ أَشْبَاهَ الإمَاءِ العَوَارِكِ (٤)

---

(١) حماسة البحتري ، ص١٥٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ١٨/٢ .

(٢) حماسة البحتري ، ص١٥٣ .

(٣) ديوانه ، ص٦٦ . والمفضليات ، ص٤٠١ .

(٤) ديوانه ، ص١٣٠ -من الزيادات- . لحاه : لعنه . ذعذع : بدد وفرق . سود : من السؤدد أي جعله سيداً . العوارك جمع عارك وهي المرأة إذا حاضت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمـــــــة

خرجت هذه الدراسة إلى نتائج متعددة أثبت بعضها :

– صور الشعر الجاهلي حياة العرب من حيث خصبهم وجدبهم ، غناهم وفقرهم . فوقف الكثير من الشعراء الجاهليين – في كثير من قصائدهم ومقطوعاتهم ، أو في مواضع من قصائدهم في مختلف الموضوعات الشعرية – على ظاهرة الفقر ، إذ كانت من الظواهر الاجتماعية والبيئية التي لا يستهان بها في عصرهم . فأشاروا إلى أسباب الفقر ومظاهره وآثاره ووسائل دفعه . وصوروا الفقراء وفئاتهم وأحوالهم وأساليب معيشتهم ومنزلتهم في المجتمع ، كما صوروا جدب البيئة وفقرها .

ونقل لنا الشعر الجاهلي معاناة الفقراء والمحرومين والمساكين والجائعين وشكواهم من ظلم المجتمع والبيئة لهم ، وقلة موارد كسبهم ، في صورة تستدر العطف من الآخرين عليهم ، سواء كان هؤلاء الفقراء من الرجال أم من النساء والأطفال ، أفرادا كانوا أو جماعات . ففقراء الرجال كانوا من الضعفاء والمرضى والعجزة وكبار السن ، ومن المنبوذين والمخذولين من أقاربهم وعشائرهم ، ومن العبيد والرقيق ، والصعاليك فئة كبيرة من الرجال فقراء ، ومن الغارمين وأبناء السبيل والطارقين والسائلين ، ومن أصحاب المهن التي لا تكفي أصحابها مؤونة العيش ، كالصائد والمشتار والراعي والأجير .. ، ومن جار عليهم الزمان وأصابتهم الخطوب فقراء . والنساء – في الغالب – أشد فقرا من الرجال ، لأن اعتمادهن في الرزق غالبا يكون على الرجال ، فإذا كان الرجل فقيرا فزوجته ومن يعيل من النساء يكن أشد فقرا ، لأنهن بلا حول ولا قوة ؛ ثم إن منزلة المرأة في العصر الجاهلي كانت أقل قدرا ومكانة من الرجل ، فلم تكن تورث ، وليس لها نصيب من الأملاك والأموال كالرجال . والرقيق من الإماء شر النساء فقرا وذلا وهوانا . والأطفال من أبناء الفقراء عامة ومن الأيتام خاصة ، يشكلون فئة من الفقراء المحرومين . فنجد صورة لهؤلاء الفقراء في الشعر الجاهلي ؛ وحالتهم المزرية دليل على فقرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١- ابن عبد البر النمري القرطبي - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

١٢- ابن قتيبة الدينوري - أبو محمد عبد الله بن مسلم :

أ- الأشربة ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي بدمشق ، ١٩٤٧م .

ب- الأنواء في مواسم العرب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ط١ ، ١٩٥٦م .

ج- الشعر والشعراء ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٤م .

د- عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٣٠م .

هـ- المعاني الكبير ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٤٩م .

١٣- ابن قدامة ، المغني ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالأزهر ، (د.ت) .

١٤- ابن كثير - عماد الدين أبو الفداء اسماعيل الدمشقي ، مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨١م .

١٥- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر بيروت (د.ت) .

١٦- أبو تمام - حبيب بن أوس الطائي :

أ- الحماسة الصغرى تحقيق وتعليق عبد العزيز الميمني ، زاد في حواشيه محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

ب- ديوان الحماسة ، شرح العلامة التبريزي ، دار القلم ، بيروت - لبنان ، ط١ ، (د.ت) .

١٧- أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٨١م.

١٨- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الثقافة ، بيروت . وطبعة دار الكتب المصرية .

١٩ - أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٢م .

٢٠- الأسود بن يعفر ، ديوانه ، صنعة نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام مديرية الثقافة العامة ، ١٩٦٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١- الأصمعي - أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك :

أ- الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥م .

ب- تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، مطبعة المعارف ، بغداد ط١ ، ١٩٥٩م .

٢٢- الأعشى - ميمون بن قيس ، ديوانه ، شرح وتعليق محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٣م .

٢٣ - الأفوه الأودي ، ديوانه ضمن الطرائف الأدبية (القسم الأول) ، تصحيح وتخريج عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

٢٤- الألوسي - محمود شكري البغدادي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه محمد بهجت الأثري ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط٢ ، ١٩٢٤م .

٢٥- الآمدي - أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢٦ امرؤ القيس ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٨م .

٢٧- أمية بن أبي الصلت ، شرح ديوانه ، تقديم وتعليق الحواشي سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠م .

٢٨- أوس بن حجر ، ديوانه ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩م .

٢٩- البحتري - أبو عبادة الوليد بن عبيد ، الحماسة ، اعتنى بضبطه ووضع فهارسه لويس شيخو ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

٣٠- بشر بن أبي خازم الأسدي ، ديوانه تحقيق عزة حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٧٢م .

٣١- بشير يموت ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، المطبعة الوطنية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٣٤م .

٣٢- البصري - صدر الدين علي بن أبي الفرج الحسن ، الحماسة البصرية ، تحقيق عادل جمال سليمان ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٣٣- البغدادي - عبد القادر بن عمر ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٤- البغوي - أبو محمد الحسن بن مسعود الفراء ، شرح السنة ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣م .

٣٥- البكري - أبو عبيد الأونبي ، سمط اللآلئ ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦م .

٣٦- البلاذري - أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، تحقيق وشرح عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧م .

٣٧ - البيهقي - ابراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوئ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

٣٨- تأبط شرا ، ديوانه ، تحقيق علي ذو الفقار شاكر ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٤م .

٣٩- التبريزي - أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

٤٠- الثعالبي - أبو منصور ، فقه اللغة وأسرار العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان (د.ت) .

٤١- الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر :

أ- البخلاء ، تحقيق طه الحاجري دار المعارف القاهرة 1963م.

ب- البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجي بمصر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٠م .

جـ- الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، بيروت - لبنان ، ط٣ ، ١٩٦٩م .

٤٢- الجرجاني - السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن ، التعريفات مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٣٨م .

٤٣- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت . ومكتبة النهضة ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٧٨م .

٤٤- الجوهري - اسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

٤٥- حاتم الطائي ، ديوانه ، تحقيق ودراسة فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٤٦- الحادرة ، ديوان شعره ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، القاهرة ، ١٩٧١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٧- الحارث بن حلزة اليشكري ، ديوانه ، تحقيق هاشم الطعان ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٩م.

٤٨- حسان بن ثابت ، شرح ديوانه ، ضبط عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٦م .

٤٩- حسين عطوان :

أ- الشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧م .

ب- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٥٠- الحطيئة ، ديوانه ، تحقيق نعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٥١- الخنساء ، ديوانها ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

٥٢- الدلجي - أحمد بن علي ، الفلاكة والمفلوكون ، مطبعة الآداب ، النجف ، ١٣٨٥هـ .

٥٣- ذو الإصبع العدواني ، ديوانه ، جمع وتحقيق عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدليمي ، مطبعة الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٣م .

٥٤- الراغب الأصفهاني - أبو القاسم الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦١م .

٥٥- الزبيدي - السيد محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٧٤م .

٥٦- الزركلي - خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م .

٥٧- الزمخشري - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر :

أ- أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، مطبعة أولاد أورفاند ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٣م .

ب- أعجب العجب في شرح لامية العرب ، تحقيق محمد ابراهيم حور ، نشر سعد الدين ، دمشق - سورية ، ط١ ، ١٩٨٧م .

جـ- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، (د.ت) .

٥٨- زهير بن أبي سلمى ، شرح شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٩- الزوزني - أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين ، شرح المعلقات السبع ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥م .

٦٠- سعيد الأيوبي ، عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرباط ، ١٩٨٦م .

٦١- سلامة بن جندل ، ديوانه ، تحقيق فخر الدين قباوة ، نشر وتوزيع المكتبة العربية ، حلب ، ط١ ، ١٩٦٨م .

٦٢- السموأل بن عادياء ، ديوانه مع ديوان عروة بن الورد ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٤م .

٦٣- سميح عاطف الزين ، مجمع البيان الحديث تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري ، بيروت ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٠م .

٦٤- السيد الأمير علي الهندي ، مركز المرأة في الإسلام ، تعريب علي فهمي محمد ، مطبعة الياس زخورا ، (د.ت) .

٦٥- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية (د.ت) .

٦٦- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٣، ١٩٧٧م .

٦٧- السيوطي جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، مطبعة محمد علي صبيح ، بميدان الأزهر بمصر ، (د.ت) .

٦٨- الشنفرى الأزدي ، ديوانه ضمن الطرائف الأدبية (القسم الأول) ، تصحيح وتخريج عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

٦٩- الشنقيطي ، المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، دار النصر للطباعة والنشر ، (د.ت) .

٧٠- شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٠ ، ١٩٨٢م .

٧١- طرفة بن العبد ، ديوانه ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٧٢- عامر بن الطفيل ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣م .

٧٣- عبد الحليم حفني ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية العمة للكتاب ، ١٩٨٧م .

٧٤- عبد الفتاح الصعيدي ، وحسين يوسف موسى ، الإفصاح في فقه اللغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت -لبنان ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٧٥- عبدة بن الطبيب ، شعره ، يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة والنشر ، ١٩٧١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٦- عبيد بن الأبرص ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٤م .
٧٧- عدي بن زيد العبادي ، ديوانه ، تحقيق وجمع محمد جبار المعيد ، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥م .
٧٨- عروة بن الورد ، ديوانه ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٩٦٦م .
٧٩- عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٤م .
٨٠- علقمة بن عبدة ، ديوانه ، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ومراجعة فخر الدين قباوة ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ط١ ، ١٩٦٩م .
٨١- علي العتوم ، قضايا الشعر الجاهلي ، نشر مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٢ .
٨٢- علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠م .
٨٣- عمرو بن قميئة ، ديوانه ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
٨٤- عنترة بن شداد العبسي ، ديوانه ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠ .
٨٥- الفرزدق ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠ .
٨٦- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مطبعة دار المأمون ، ط٤ ، ١٩٣٨ م .
٨٧- فيليب حتي ، وآخرون ، تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف للنشر والطبع والتوزيع ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٦٥م .
٨٨- الفيومي - أحمد بن محمد علي المقري ، المصباح الكبير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ط٧ ، ١٩٢٨م .
٨٩- القالي - أبو علي اسماعيل بن القاسم ، الأمالي ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
٩٠- قدامة بن جعفر - أبو الفرج البغدادي ، جواهر الألفاظ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥م .
٩١- القرشي - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٣م .
٩٢- قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٣- الكاساني - علاء الدين أبو بكر بن مسعود ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، الناشر : زكريا علي يوسف ، مطبعة الإمام ، مصر ، القاهرة ، (د.ت) .

٩٤- لبيد بن ربيعة ، شرح ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢م .

٩٥- لقيط بن يعمر الإيادي ، ديوانه ، تحقيق عبد المعيد خان ، دار الأمانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١م .

٩٦- لويس شيخو ، شعراء النصرانية قبل الإسلام ، دار الشروق ، بيروت - لبنان ، ط٣ ، ١٩٦٧م .

٩٧- المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب ، مطبعة الإستقامة ، مصر ، ١٣٦٥هـ .

٩٨- المتلمس الضبعي ، ديوان شعره ، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي ، ١٩٧٠م .

٩٩- محمد جواد مغنية ، الفقه على المذاهب الخمسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٧٩م .

١٠٠- محمد النويهي ، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه (الجزء الأول) ، نشر الدار القومية ، القاهرة ، (د.ت) .

١٠١- المرزباني - أبو عبيد الله محمد بن عمران ، معجم الشعراء ، تصحيح وتعليق الأستاذ ف . كرنكو ، عنيت بنشرها مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ .

١٠٢- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٥م .

١٠٣- المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت - لبنان ، ط٦ ، ١٩٦٤م .

١٠٤- النابغة الذبياني ، ديوانه ، تحقيق شكري فيصل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨م .

١٠٥- ناصر الدين الأسد ، القيان والغناء في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، ١٩٦٨م .

٤٢٠٥٦٧

١٠٦- النسفي - أبو البركات عبد بن أحمد بن محمود ، تفسير القرآن الجليل ، المسمى بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، الناشر دار الكتاب العربي ، لبنان - بيروت ، (د.ت) .

١٠٧- نصرت عبد الرحمن :

أ- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط٢، ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٥م .

١٠٨- نوري حمودي القيسي ، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م .

١٠٩- النويري - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ، القاهرة ، (د.ت) .

١١٠- الهذليون ، ديوانهم ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

١١١- وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٤٧هـ .

١١٢- وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٢م .

١١٣- ويلكن ، ج . أ ، الأمومة عند العرب ، نقلها عن الجرمانية بندلي صليبا الجوزي . كازان : د . م ، ١٩٠٢ .

١١٤- ياقوت الحموي - شهاب الدين أبو عبدالله ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .

١١٥- يحيى الجبوري ، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي ، مطبعة دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .

١١٦- اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، تاريخه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

١١٧- يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

The poverty in the Pre-Islamic poetry

This study aims to examine the poverty phenomena in the poetry of Pre-Islamic age , and to show the secrets of those poor who had constituted the majority of Pre-Islamic community . They lived in misery and were totally deprived . They became wretched because of their poverty, lack of income and inability to earn their living .

This study tackled the concept of poverty, its meaning and social standards in Pre-Islamic era. I examined the environmental, economical, social and psychological reasons of poverty. I also examined the poverty phenomena represented in Gypsies, wars and generousity. This study also showed the poor people forms, categories, living styles and ethics. I also examined the physical, social and psychological effects of poverty, the means of diminishing it and lessening its harshness and wickedness.

Therefore, this study depended on poems of the Pre-Islamic poets to show the poverty phenomena in that age .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit